روايات عبير

كاثرين جورج

عهد الحب

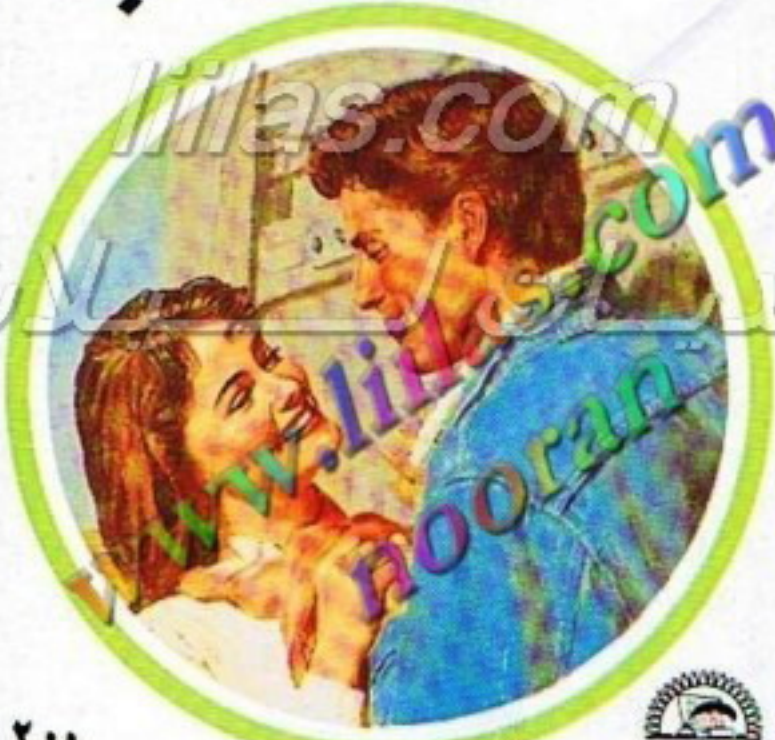

www.liilas.com
noorani

٢٠٠

مكتبة مدبولي الصغير

روايات عبير

HARLEQUIN - «ABIR» - No. 200

عهد الحب

ـ أهكذا ترانى. فتاة ماسوشية تشبه سندريلا، غير أن لها شقيقين وسيمين، بدلاً من الشقيقات اللاتى اتصفن بالقبح.

تولت صوفى رعاية شقيقيها بدون تذمر أو شكوى منذ ذلك الوقت الذى توفيت فيه أمها، وعاشت حياتها فى مدينة دينزبرى الصغيرة الهادئة ـ كما أنها عملت كسكرتيرة لدى الكسندر باجيت، لأنها وجدت أن اشتغالها أمر ملائم ومفيد. إلا أنها الآن، وذات فجأة، وجدت أن كل شىء يتغير، وراحت تدبر أمورها وتخطط لكى توّقلم حياتها مع التغيير. ولكن لماذا كان عسيراً عليها أن تغادر رئيسها الذى لم تستطع أن تصل إلى قلبه، والذى كان يطلق عليه اسم: الأسكندر الأكبر؟

لبنان	٢٢٥٠ ل.ل	الكويت	١,٥٠٠ د	اليمن	٦,٤٠ ر
سورية	٤٠ ل.س	الامارات	١٩,٢٠ د	تونس	٢,٤٠ د
الأردن	١,٥ ف	البحرين	٢,٤٠ د	ليبيا	١,٦٠ د
العراق	١,٢ ف	قطر	١٩,٢٠ ر	المغرب	٨ د
السعودية	١٠ ريال	عمان	٢,٤٠ ر	مصر	٣٠٠ ق

U.K. 2,40
France F 16
Greece Drs 320
Cyprus P 2,40

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

ميدان سفنكس ـ المهندسين

الفصل الأول

اهتاجت الحجرة المزدحمه بالتوتر. فالعيون كانت تلاقى وتتباعد وتقلصت المحادثات إلى همهمات مرتبكه كلها حدس وحرز، حيث انتظر ضيوف الزفاف، الشطر الأعظم منهم، طلباً للراحة ـ على مقربه وثيقة من مكتب عقود الزواج المدنى ـ انتظروا مجىء العروس. تصلبت ابتسامة أمين مكتب الزواج وأخيراً اختفت، حينما رشق ساعة الحائط بنظرة غاضبة، وساهم السعال الجاف الطارىء الذى اعتراه فى جوله الهمسات وخفيف الأقدام المتناقلة لأولئك الذين احتشدوا معاً ليشهدوا حفل زواج الآنسة دلفين ويندهام والسيد الكسندر بالأيت.

جلس العريس بمفرده، وحيداً كالصخره الصماء وسط بحر من الإضطراب والقلق.

كذلك فعلت صوفى غوردون لمدة نصف الساعة، حيث أعلنت ساعة حائط المدينة بدقاتها تأكيداً لهذا الأمر. لم يحدث للكسندر أن تململ هكذا من قبل. كانت الغرفه المضاءة بنور الشمس حارة على نحو خانق، إلا أن كل أناقته بدأاً من الشعر الجميل على رأسه، ياقته البيضاء على حلة الصباح الداكنه، وزهرة الغزدينيا ذات الأريج على طية صدر السترة، بقيت كلها مصقولة أنيقة كما كانت لحظة أن وصل.

إن الكسندر، كما عرفته صوفى أكثر مما تعرف أى انسان آخر، يعشق ـ للغايه ولأقصى الحدود ـ الكمال فى كل شىء، وهذا الأمر جعل من غير المصدق أن تتجرأ ديلفين وتهزأ بآرائه المعهوده عن المواظبه ودقة المواعيد.

بالتأكيد لا يستحق أى رجل أن ينتظر طويلاً هكذا ـ وعلى الملأ ـ عروسه حتى تفرغ من زينتها. رَوّع صوفى ألم مفاجىء أحاط بها من جراء شفقتها على الكسندر. ولقد كانت شفقتها على الكسندر بالأبت أول مشاعرها بالتأكيد، تلك التى تكنها له على مدى السنين، على الرغم من الصلات التى تربط بينهما.

نظراً للصداقة التى تجمع والديهما، فقد كانت نشأته تحتم أن يكون بجوارها على مر حياتها، أحياناً فى الخلفية، وبين الفينة والأخرى فى صميم حياتها. وكانت قد عذبتها تباريح وآلام غرام المراهقة له فى وقت من الأوقات. وكان يسرها تذكر أن ذلك الحب قد مات ميتة طبيعية من جراء عدم تغذيته فحسب على الأقل. كان الكسندر متفوقاً بدرجة لا تحتمل أيام دراسته بالكلية، فسرعان ما انحرف هيام المراهقة إلى اتجاهات أخرى.

لعب الكسندر دوراً بارزاً ربما فيه الكفاية فى حياتها هذه الأيام إذ أن هذه حقيقة، لأنها كانت فى السنوات القليلة الخالية، سكرتيرته.. فهو شخص طيب جداً أيضاً فى رأيها الخاص. فالزوجة فحسب تعرف رجلها أوثق مما تعرفه سكرتيرته المقربة، وفى حالتها الخاصة هذه، عكست صوفى معرفة وثيقة به بأكثر من معرفة الزوجة لزوجها.

اختلست صوفى نظرة لأبيها لتكتشف أنه كان يرمق أم العروس بقلق مصطنع. جلست السيدة تطوى قفازها المصنوع من جلد أنثى الأبل بعنف وعصبية، بينما اندفع الدم إلى وجهها فتورد، وبدا محمراً من تحت حافة القبعة.

تمتم الدكتور غوردون هامساً، «لقد أصيبت بضغط الدم». أجابته ابنته قائلة، «ليس بالأمر المفاجىء» ورفعت حواجبها بينما التقت عيناها بعينى إدوارد بيريغرين باجيت، ابن عم العريس، ويعد أكثر الرجال قراباً وحباً له.

مكث بيرى ملتوياً حول مقعده لينظر متطلعاً نحو الباب، حيث كان يتعشم أن تظهر العروس هنالك حينما ينحنى ظهره.

دار بخلد صوفى أنه عبثاً كان يفعل، ذلك أن دلفين ويندهام إبان دخولها فلن تخطفها أبصار أحد من الحاضرين.

وحينما انفتح الباب أخيراً، اشرأبت جميع الرؤوس، إلا رأساً واحدة، كما لو كانت اهتزت هزاً عنيفاً على وتر واحد. بيد أن التوقع صار مفاجأة، وقت أن قام والد العروس بدلاً منها واقفاً فى الممر، وهو يومىء بالحاح إلى بيري، الذى وكز الكسندر وذهب معه خارج الغرفة، مغلقاً الباب على طنين وغمغمة التعليقات التى اندلعت من كافة الأرجاء.

ارتخت مدام ويندهام على أحد الأقارب الجالسين بالقرب منها، بينما استدارت كيت بالأيت، زوجة أب الكسندر، إلى عائلة غوردون، وجهها الجذاب الذى بدت عليه علامات الإنزعاج، وقالت :

ـ هناك شىء ما خطأ، أليس كذلك يا دافيد ؟

ابتسم الدكتور غوردون مؤكداً ملاحظها وصاح:

ـ من المحتمل أن تكون ديلفين قد احتجزت فى اشارات المرور.

سخرت صوفى فى نفسها قائلة أو ربما كسرت ظفراً من أظافرها، أو زنسلت أحد جواربها. وأسقط فى يدها وهى تقول إن دلفين ويندهام سفهت القوم إذ أبقتهم ينتظرون، بينما حل موعد وصولها منذ دهر.

وفى الوقت الذى شغف الضيوف فيه بالتكهنات على نحو جل،

اطلقوا العنان لتزواتهم متجاوزين كل حد عبر الغرفة، فبعضهم كان متلهفاً توافا، ــ كما بدأ أمام صوفى التى لاحظت باشمئزاز ــ والبعض الآخر من الوجوه كان متشوقاً للمعرفة بفضول شره. وشعرت بالرثاء كثيراً لكيت بادلأيت، التى توترت على نحو واضح للرؤية، حين عاد الكسندر ويبرى للغرفة.

تحدث العريس على انفراد مع امين السجل، ثم استدار ليواجه القوم المحتشدين، وقد تجمدت عيناه الخضروان فى وجهه ذى الملامح الطيبه، وقال بأدب:

ــ أقدم اعتذارى لكم على طول انتظاركم، وأعرب كذا عن أسفى لأنه لن يكون هناك حفل قران بعد كل ذلك، لقد أخبرونى أن ديلفين قد غيرت رأيها.

كان هناك نحيب حاد عندما انهارت مدام ويندهام بين ذراعى رفيقها، وقفز الدكتور غوردون من فوره للمساعدة، بينما وقفت كيت بالأيت خلفه. لقد استغرق الأمر بعض الوقت لاستعادة رباطة الجأش والهدوء إلى المرأة الذاهلة، وفى ذات الوقت وقف العريس المهجور ينتظر بلا حراك، أما وجهه فقد كان خالياً من العواطف.

مكثت صوفى فى مقعدها، فى أحد الجوانب، ترثى لالكسندر من أعماق قلبها. إذ أن هذا غير مألوف ويمثل محنة له. فقد اعتاد على حياة خالية تماماً من المحن والمآسى التى قد يحتملها البعض الآخر.

رمقته صوفى بنظرة متجردة خالية من العواطف، محاولة أن تراه بعيون إمرأة غريبة. لقد كان لائقاً كفؤاً يمثل عينة جذابة من جنسه، طويل القامة قليلاً، نحيلاً، ذا عضلات، وشعر كثيف مصقول، أكثر قتامة قليلاً من اللون الكتانى.

ولا تقتصر مميزاته على صفاته الجسدية. فهو مهندس معمارى مرموق فى احدى الشركات المحترمة أسسها جده فى مدينة ديتزيرى،

ويتمتع باسم وشهرة مهنية معروفة لدى الجميع. وجدت صوفى أنه من العسير عليها أن تصدق أنه حتى ديلفين كانت قاسية لهذه الدرجة كى تتخلى عن رجل مثل الكسندر تمسك بها ليتزوجها. بصرف النظر عما إذا كان مكتب الزواج يختلف عن الكنيسة، برغم أنه قد حفل بالورود التى نسقها البعض على هذا النحو من الذوق. إلا أن المبدأ واحد وهو أن الكسندر طلبها للزواج منها لتصبح شريكه له. وحينما تعذر المرأة بعريسها فتهجره فأقل ما يوصف به انه مثل السفينة المترنحة.

وبعد النحيب، وافق مدام ويندهام أخيراً أثناء خروجها من الغرفة أقرب وأعز إنسان ألا وهو الكسندر الذى استدار مرة ثانية إلى بقايا الضيوف وابتسم ابتسامة خفيفة قائلاً:

ــ على الرغم من أن عقد القران نفسه قد ألغى، إلا أن وجبة الغداء فى انتظاركم كى تؤكل فى نادى ديتزيرى، كما كان مقرراً سلفاً.

ظهرت على وجهه فى النهاية علامات توتر مرئية للعيون، وقال:

ــ سامحونى إذا ابتعدت منصرفاً، ففى مثل هذه الظروف ليس بوسعى إلا أن أكون مثل الشبح فى النهار. ولسوف يحل محل هنا بيرى فيانى باسم السيد ويندهام وقريبته أحثكم جميعاً أن تفيدوا من ميزة كرمهم.

وفى اليوم التالى، على طعام الغداء، قالت صوفى لجدتها:

ــ لقد كان الحفل مروعاً تماماً، فلم أتوقع أبداً أن أشعر بكل هذا الحزن من زجل الكسندر.

تسألت سيلى وبنرايت باهتمام قائلة:

ــ ولم لا؟

تفكرت صوفى برهة من الوقت وصاحت:

ــ حسناً، أنت تعلمين وتعرفين الكسندر يا جدتى. فهو لا يحب

أن يبدو محتاجا إلى العطف، بغض النظر عن الشفقة. فهو قد اعتاد أن يمضي في الحياة بدون تعثر. كما أنني أعتقد في تقديري أنه عريس لقطة لأية فتاة ـ إذ أنه ماهر، وناجح، ولديه الكثير من المال...

اضافت جدتها قائلة.

ـ هذا بخلاف أنه جذاب للغاية. ولكن يبدو أن لدى ديلفين ويندهام أسباب قوية جداً للهروب منه ناقضة عهدها معه.

ـ أتصور أنه الجشع والطمع.

ـ وفساد الذوق بصورة لا تصدق إذا كانت قد هربت مع ذلك الشخص الذي يدعى فويل.

ـ آه، يبد أن تيري فويل يمثل لديلفين شخصية الدكتور فرانكشتين، أيتها الجدة.

قالت صوفي ذلك وهي تكشر باستهزاء عن ابتسامة تيري.

حركت مدام وينرايت أحد أصابعها مؤكدة تذكرها لذلك، دليلاً على موافقتها على أن هناك حقا فيما قالته صوفي. لذلك أنه بفضل مهارة تيري فويل ذات الطراز الأول من التقاط الصور بآلة التصوير، صعدت ديلفين ويندهام إلى ذروة الشهرة كعارضة أزياء «مانيكان» وبدون ذلك لم تكن لتصل إلى تلك الشهرة النجومية، برغم جمالها وشعرها الأسود الفريد الذي يصل بطوله حتى خصرها.

لقد استطاع الشاب الصغير المليء بالقوة والنشاط أن يحول وسامته إلى حلم الرجال في أن يكونوا ذوي جمال مثير للشهوة الجنسية، مما أدى إلى عرض عمل قدمته احدى شركات مستحضرات التجميل الأمريكية لكليهما كصفقة، وهو العقد الذي أسرع تيري فويل يطارد الريح إلى ديتزبري ملوحاً به أمام أنف ديلفين في الساعة الحادية عشرة في نفس يوم حفل الزفاف.

قالت صوفي.

ـ إن هذا لا يشكل منافسة متكافئة، فلم يكن الكسندر وديتزبري ليفوزا بالجولة ضد تيري فويل وشركة إلى إيه الأمريكية

فالت مدام وينرايت:

ـ لذلك طارت ديلفين إلى مدينة الملائكة ـ هذا تصرف غير ملائم اطلاقاً.

ثم نظرت إلى صوفي متسائلة:

ـ أما الكسندر، فكيف حاله الآن؟

ـ متماسك في ثبات وجلد.

رقصت عينا صوفي وهي تقول ذلك لجدتها وتخبرها كيف أن العريس المنبوذ قد سافر فعلاً إلى اليونان بعد كل ذلك، كما كان مخططاً أصلاً لقضاء شهر العسل هناك. عاطفته للأطلال العتيقة صوفي بشغفها حتى الثمالة، حتى وإن كانت عواطف الجسد ستهمل بدون إرتواء.

ـ صوفي.

صاحب مدام وينرايت محاولة جهدها أن تبدو وقد صدمت، غير أنها صدمت بعنف، فعلاً من الاستشراف العملي والنظرة الواقعية لالكسندر.

وأضافت:

ـ ولكنه لن ينزل بالتأكيد في نفس فندق شهر العسل!

ـ آه، لم يهتز الكسندر متأثراً من جراء هذا الموضوع، وفقاً لما قالته العمة كيت.

أكبرت مدام وينرايت وعيه الصائب، فطرته السليمة، وكررت ازدراءها لكل إمرأة فاسدة العقل بما فيه الكفاية لأن تهجر عريسا بمثل هذا المستوى من الحضانة. أما صوفي، فقد كانت تتطلع، من ناحية أخرى، للعودة النهائية لالكسندر إلى ديتزبري بمشاعر مختلطة،

موقنة بأن مزاجه سوف سكون سوداوياً فى أقصاه.

قالت صوفى وهى فى حالة من الغم:

ـ ديليفين فاتنة الجمال، ولسوف يكون الكسندر كالدب ذى الرأس النزق، سريع الغضب، حينما يعود أدراجه إلى العمل، على الرغم من أننى لم أعرف أبداً، كيف ظن أن فتاة مثل تلك، بمقدورها أن تقيم فى دعة وتركن إلى السعادة الزوجية فى دينزبرى.

ـ ربما لأنه تعشم فحسب أنها سوف تفعل، يا حبيبتي. فالرجال سذج جداً فى بعض النواحى.

ـ ساذج، وهل الكسندر كذلك؟

صاحت صوفى مستهجنة، وأضافت:

ـ هو أكثر الرجال الذين أعرفهم لماحية. إن ديليفين هى الخطأ الوحيد الذى ارتكبته فى حياته برمتها وقت أن أساء التقدير.

خرجت المرأتان إلى الحديقة عقب تناول الغذاء، ليستمتعا بشرب القهوة فى ضوء الشمس ومتابعة آخر أنباء العائلة. وقد تطلعت كلتاهما إلى موعد تناولهما طعام الغذاء معاً كل أسبوعين. إذا أن صوفى على وجه الخصوص، استطابت البلام والسكينة فى البيت الريفى الذى ترعرعت فيه أمها، مستمتعة بالتناقض والاختلاف بين حياتها فى كلا البيتين.

إذا أنها ههنا فى غريناكر بمقدورها أن ترتد إلى حياة الصفولة البهيجة الخالية من الهم ثانية، بينما هى فى دينزبرى تدير منزل عائلة غوردون، وتعتنى بأبيها وأشقائها، فى أوقات فراغها المتبقية من عملها فى شركة بالأيت آند صن للهندسة العمارية.

تساءلت مدام وينرايت:

ـ متى سوف يعود التوأمان من فرنسا؟

ـ اعتقد يوم الأربعاء.

ـ سيقع على عاتقك آنذاك أن تنهضى بانجاز وغسل قدر هائل من الملابس القذرة.

ضحكت صوفى وقالت:

ـ ارحب بذلك وأنا سعيدة من كل قلبى. ولقد كان لدى قبل مغادرتها إلى ادينبرج عشرات من الملابس الرثة كى أحيكها.

علقت مدام وينرايت قائلة:

ـ آمل أن تعلم الجامعة ما الذى يجبه لها القدر.

ثم ألقت نظرة حنونة فى اتجاه حفيدتها وتساءلت

ـ وماذا سوف تصنعين بشأن نفسك إذن؟

أجفلت صوفى وبدت منزعجة:

ـ «أصنع؟».

ـ لقد رحل تيم ليرعى الأغنام فى استراليا، ولسوف يصل مارك وماتيو عما قريب إلى ادينبرغ، ويبدو أن وجودك فى منزل أبيك لم يعد ضرورياً، كما كان الأمر من قبل.

لقد كانت الفكرة غير جديدة تماماً على صوفى. إذ أنها لم تفارقها على مدار الأشهر السالفة. ولكن بخلاف قلة الطعام والمغسلة الذين يتعين عليها أن تواجههما، إلا أنها تنبأت بتغيير ضئيل سوف يعترى حياتها. ويتبقى بعد ذلك أبوها لكى تتدبر أمره. حيث إن ديفيد غوردون كدكتور اعتمد عليها بأكثر مما يفعل الآباء الآخرون فى ظروفهم الخاصة، فقد كان يحتاج إليها بالمنزل لترد على الهاتف فى الليلتين الذين يتصل فيهما بها كل أسبوع. ولقد كانت مدام وينرايت تنكر عليها تفرغها لهم بمثل هذا القدر وتساءلت:

ـ ألا تتوقين أبداً إلى حياة خاصة بك وحدك يا صوفى؟ لن أستطيع معاونتك حينما أرى لويزا تعنفك محتجة بشدة، إذا رأتك تسلكين هذا الإتجاه الذى اعادت عليه حياتك فى الآونة الأخيرة.

لقد ماتت لويزا غوردون فى حادث حافلة أثناء قيامها برحلة تسويق فى أحد أعياد الميلاد إلى لندن بعد عيد الميلاد الرابع عشر لصوفى بوقت قصير. حيث اصطدمت الحافلة فى الضباب بكومة على الطريق، وفقد ديفد غوردون وأطفاله الأربعة خلال ذلك عماد حياتهم ودعامتهم الأساسية. ولدى سماع والد لويزا الأنباء صعق، أما سيسل وبنرايت فقد مزقتها الأحزان على زوجها المكلوم وأحفادها، واضطرت إلى الوقوف بجوارهم لمؤازرتهم، فى حين أن صوفى كبرى الأحفاد فقد تغيرت بين عشية وضحاها من تلميذة مدرسة خابة البال، إلى ربة أسرة وأم بديلة، لأشقائها، وفى نفس الوقت كانت تدرس وتنخرط فى حياتها المدرسية، وبجانب ذلك تدرس دورة فى أعمال السكرتارية كى تتعلم كيف تستطيع إدارة المنزل.

وكان الدكتور غوردون قد استأجر إمرأة للمساعدة فى تنظيف المنزل فى البداية، ولكن حينما تقاعدت تلك السيدة، كلفت الأسرة صوفى لكى تصرف شئون البيت بمفردها، إذ أنه فى ذلك الحين كان تيم قد رحل إلى سيرنبستر للدراسة بكلية الزراعة، أما مارك ومانيو فقد كانا كبيرين بما فيه الكفاية بعاونا بعض الشيء.

وإذا كانت صوفى بين الفينة والفينة تتوق إلى الوحدة والخلو بنفسها، فقد كانت سيسل وبنرايت وحدها هى التى تعلم كيف توفر لها الاستمتاع بذلك. قالت وبنرايت بأسلوب لاذع:

ـ أعتقد أنه حان الوقت لكى تتركى العش بمحض إرادتك؟

ـ آوه، لقد فعلت، بيد أننى لا أستطيع أن أتركهم وأهمل أبى، وعلاوة على ذلك، إلى أين بمقدورى أن أذهب ؟

وقبل أن تقدم سيسل وبنرايت أية اقتراحات، دق جرس الهاتف، فانصرفت كى ترد، مخلفة صوفى تهيم فى أحلام يقظتها بالخلو بنفسها فى مكان منعزل خاص بها.

أى مكان، فى أية بقعة، حتى لو كانت نائية كى لا يكون هناك رجال مزعجون يلحون فى طلب تنظيف قمصانهم واعداد الطعام، حيث كانت تبتغى فحسب بعض الوقت تتفرغ فيه لنفسها. بعد الكد اليومى فى شركة بالأيت آند صن.

لقد كانت تعشق أباها ـ وأشقاءها، شعرت بالتحامها بهم بأكثر مما تستشعر معظم الفتيات، وربما كان ذلك نظراً لظروف موقفها وحالتهم الخاصة. غير أنها كانت تتوق للاعتناء بنفسها سراً متجاوزة قيود الزمان والمكان. ولقد كان الزمان ينقضى سريعاً، فهى أنفقت أربعة وعشرين عاماً تقريبا من جانبها داخل حدود ديزيرى والوسط العائل، حتى وظيفتها كانت قد فصلت لها، وقررها لها الآخرون. ففى خلف انتهائها من دورة أعمال السكرتارية، كان الكسندر فى حاجة ماسة إلى سكرتيرة، ولقد كانت صوفى ملائمة لتلك المهمة. فقد تم تسليمها له كما لو كانت طرداً، وأخبرها آنذاك الجميع بتكرار كيف أنها محظوظة لذلك.

ولدى عوده جدتها من المحادثة الهاتفية تساءلت صوفى.

ـ لم يكن أبى هو المتحدث، أليس كذلك ؟

ابتسمت جدام وبنرايت باعتداد بنفسها وقالت:

ـ كلا إنه ديفيد، أظن أن حياته فسدت بسبب كبت بالأيت، كما يحدث له عادة فى غيابك عنه.

ثم أضافت:

ـ فى الواقع، لقد كان سام جيفورد الصغير، ولقد وجهت له الدعوة لكى يتناول الشاى عندنا.

ـ اندفعت صوفى وجلاً خارجة، وصرحت:

ـ إذن فمن الأفضل أن أنصرف.

ـ هراء. هيا إذهبى وزينى وجهك وصففى شعرك، بينما أغسل

أنا هذه الفناجين. أم تراك سوف تخرجين مع جوليان هذا المساء ؟

كان على صوفى أن تعترف بأنها لن تفعل، وحملت الصينية متجهه للداخل، وقد علمت أن ساجيفورد هو سمسار عقارات فى أرليسبري. وكانت طباع مدام وينرايت تنبىء أحياناً عن مفاجآت، فرمقتها حفيدتها بنظرة ريبة قالت:

ـ وماذ سوف تفعلين بسمسار العقارات يا جدتى ؟

ـ سوف أخبرك عندما تعودين أدراجك.

أدركت صوفى بذكائها أكثر مما يمكنها أن تعرفه بالجدال، وأسرعت تصعد الدرج لكى تنزل وتصلح من شأنها، ومشطت جدائل شعرها البنى الذى يتدلى على أكتافها حتى صار سلساً ناعماً وأضافت مسحة من أحمر الشفاه على شفتى ثغرها الواسع. نظرت إلى وجهها المستدير وهى مشبطة. مقارنة إياه بوجه وحيا ديلفين ذى الوجنتين البديعتين،وعينيها الذهبيتين ذوات الحور، متذكرة بكآبة نحول خصرها ولم تكن صوفى واهمة بشأن تقاطيع جسدها، التى لمحت مدام وينرايت بأنه ملفوف بنبرة تأكيد، غير أن مارك وماينو لهما رأى مختلف خالى من إسداء المجاملة لصوفى.

ولما انضمت صوفى إلى جدتها فى الحديقة، كانت تلك السيده تلتحف بنظرة وهيئة الإنسان الذى يضمر سراً أثيماً.

ـ هل هناك شيىء تخفيه عنى يا جدتى ؟ بخلاف المرض أو ما شأنه ؟

هزت مدام وينرايت رأسها المتدبر للأمور وصاحت:

ـ لا يا عزيزتى، أنا لست عليه. أنا أنوى بيع غريناكر، هذا كل ما فى الأمر.

بحلقت صوفى فى جدتها وقد صعقت :

ـ أتتخلين عن هذا المنزل ؟ أواه يا جدتى ـ لماذا ؟

ـ لقد صار كبيراً على. والبستان على وجه الخصوص، بما أن العون عزيز المنال هذه الأيام ولو وجد فإنه عالى الكلفة. ولقد أصبحت كبيرة السن، كما تعلمين.

كانت سيسل وينرايت قد بلغت الخامسة والسبعين، ولكن مع ذلك فهى بدت فى شمس ظهيرة ذلك اليوم كما لو كانت أصغر بكثير عن ذلك، وأخبرتها صوفى بذلك، مبدية تأكيداً استهدفت به اخفاء الرعب والفزع الذى اعتمل فيها.

استأنفت مدام وينرايت حديثها مصرحه :

ـ لقد صلصلت فى هذا المكان كما تفعل حبة البسلة فى قرنة شاسعة منذ توفى جدك حتى الآن، ولقد ضجرت من هذا.

ـ أتشترين بيتاً آخر أصغر ؟

ـ كلا يا حبيبتى.

قالت سيسل وينرايت وهى تخفى ابتسامة عابثة للدعابة عن حفيدتها.

ـ سوف أنتقل إلى برود أوكس.

فتحت صوفى فمها مشدوهة !

ـ برود أوكس ! لكن هذا...

ـ بيت لكبار السن. أعرف. وأنا أزور صديقتى آن مورتون هناك بصفة دورية، ولقد كان لدىّ الوقت والفرصة كى أقرر بأننى سوف أتحسن جداً هناك. بوسعى أخذ بعض الأثاث الخاص بى إذا شئت وسيكون لى حجرة وحمام خاصين بى، وغرف معيشة مشاع لطيفة إذا رغبت فى مصاحبة الآخرين. إن آن هناك بمفردها ـ ولسوف آخذ السيارة، بطبيعة الحال، وبمقدورى الخروج لعمل رحلات، وأدعوك على الغداء كما كانت الأمور من قبل، وأعدك بذلك. ولكننى فى برود أوكس سيكون هناك لى ميزة إضافية وهى أننى سوف يخدمنى

الآخرون، جلست صوفى تجاهد محاولة الشفاء من الصدمة، وقال بعد برهة:

ـ أنت تبدين أصغر بكثير جداً على برود أوكس، ولسوف يُشْدَه أبى.

ـ ديفيد وأنا لم نتفق أبداً على أمر واحد.

قالت السيدة التى كانت رافضة بشدة أن تتزوج ابنتها من طبيب صغير معدم ومفلس منذ ثلاثين عاماً خلت.

ـ ولكن أعتقد أنه سوف يوافق فى هذه الحالة، إذ أننى أتخذ خطوة عاقلة جداً.

ـ لماذا لا تأتين كى تعيش معنا؟

ـ ديفيد غوردون وأنا بنفسى تحت سقف واحد! كونى واقعية يا طفلتي.

وافقت صوفى برثاء وندم على أن جدتها على حق، ثم نظرت إلى سيارة كانت تنحرف لدى البوابة، وسألت جدتها:

ـ هل هذا هو سمسار العقارات الذى استدعيته يا جدتى؟

ـ آه، إنه هو إذن.

ابتسمت سيلى وينرايت بسرور عندما رأت رجلاً يأتى عبر الطريق المخضرة نحوهما.

وهو أطول قليلاً من الطول المتوسط، وبدا نحيفاً لصوفى التى اعتادت على رؤية رجال عائلة غوردون ذوى بنية الجسم الضخمة. كانت رأس سام جيفورد ذات شعر أحمر، بينما أضاءت عيناه البنيتان وجهه ذى الملامح الوسيمة بالسحر بينما كان يحيي مدام وينرايت، التى قدمته إلى صوفى، وتركت الشابين الصغيرين معاً بينما انصرفت هى نحو الداخل كى تعد الشاى.

أخفت صوفى ابتسامة وقت أن تذكرت نزعات جدتها الدائبة فى

صنع الزيجات عن طريق الجمع بين الناس ليتزوجوا، وسألت الزائر عما إذا كان يعيش فى أرلسبرى.

ـ أعيش فيها وقتياً، فوق المحل إذ أننى أحتل شقة فوق مقر إقامتى فى شارع كواى.

ـ مباشرة على النهر؟ يا لها من شقة جميلة؟

ـ إن المكان ليس منبسطاً فى الحقيقة حتى الآن. ولم أذهب إلى الشقة منذ فترة.

علقت صوفى قائلة:

ـ أنت إذن جديد على هذه المنطقة؟

بدا عليه الإرباك، وقال:

ـ لا، ليس هكذا فى الواقع، حيث اعتدت المعيشة فى ضواحى مدينة، ولم يكن هناك، غير أننى عرضته فى السوق للبيع لتوي.

قالت صوفى، آملة أن تزيل عنه الكلفة والارتباك:

ـ أنت أصلح من يقوم بهذه المهمة لأنك تعمل بها.

طرأت فترة توقف وسكون، نهضت حينها صوفى وصاحت:

ـ سأغادر هنية ولساعة جدتي، لن أتأخر.

انطلقت صوفى موجة فى المنزل، تسبق مدام وينرايت لتتولى عنها عبء حمل صينية الشاى الثقيلة.

ـ هاى ـ أعطنى تلك الصينية. فالسيدات اللواتى على وشك أن يصبحن فى بورد أوكس لا ينبغى لهن أن يحملن الأحمال الثقيلة.

نظرت مدام وينرايت عبر المكان وقالت:

ـ لماذا تركتى سام وحيداً؟

ـ إنه يبدو خجولاً بعض الشيء. فأدركت أنه سيكون أفضل حالاً إذا عدت أدراجك.

ـ مر المسكين بظروف عصيبة.

ـ هل كان عليلاً ؟

ـ كلا، لقد طلق زوجته. وإذا كان ما أسمعه حقاً، يصبح الأمر قاسياً.

ـ أهو طويل غاب أرليسفورد ؟.

سددت مدام وينرايت إلى حفيدتها نظرة صاعقة بينما دفعتها أمامها إلى الحديقة، وقدمت سلة الكعك التى تستخدم لدى تقديم شاى الظهيرة فى عزيناكر منذ زمن فى القِدَم.

ارتاحت صوفى لما رأت سام جينورد وقد استرخى قليلاً لدى احتسائه الشاي، متسامراً وممتدحاً كعكة الفواكه الرطبة سهلة التفتت، وكذلك الكعك المسطح المستدير الذى يشبه الهواء فى رقته. وقال :

ـ رائع إن الكعك المصنوع فى المنزل لا يروقنى كثيراً.

ثم احتسى فنجاناً آخر من الشاى.

وقالت مدام وينرايت مستهجنة قوله :

ـ انى لأثق فى أنك لا تعيش فى طعامك على الخبز المحمص والفاصوليا.

ـ أنا رجل يعتمد فى طعامه على المطاعم التى تعد الوجبات السريعة.

قال سام جيفرود ذلك محولاً الموضوع بعجلة فأخبر مدام وينرايت أن منزلها سوف يتم الإعلان عنه اليوم التالى، فى كل من الصحف ونوافذ مكتبه.

صفرت صوفى قائلة:

ـ أهكذا بهذه السرعة ؟ هل سيستغرق البيع زمناً طويلاً، أم ماذا تعتقد ؟

هز رأسه مبتسماً:

ـ خمس دقائق، أحسن ذلك. فالعرض رائع، أربع غرف نوم، حديقة كالبستان الريفى، بمنزل يقع على بعد خمس دقائق مشياً على الأقدام من طريق الغولف، ومثل هذا العرض لا يخسر.

تحول الحديث إلى الشئون العامة لمدة نصف الساعة أو تلك الحدود، بعدئذ نهض الزائر على قدميه متأسفاً، وقال مبتسماً :

ـ لقد فاتنى الوقت، ولدى بعض الواجبات بالمنزل لانجزها وسكرتيرتى تعمل بعض الوقت فقط هذه الأيام، إذ أنها حامل كما تعرفان. ألا تدلونى على سكرتيرة كفوء تبحث عن وظيفة.

كانت ابتسامة مدام وينرايت اليت جاءت رداً على سام تشبه أبو الهول، قالت :

ـ إنه لأمر يسير، وبمقدورى يا سيد لأيفورد أن أتدبر ذلك، وسوف أكون على اتصال بك.

ولدى عادت أدراجها إلى صوفى عقب توديعها للزائر جلست مدام وينرايت على استعداد للحديث، وتساءلت:

ـ حسناً، هل أحببتى سام ؟

ـ إنه ظريف جداً يا جدتى، ولكن هل تقومين بدور الخاطبة مرة ثانية ؟!

ابتسمت صوفى ابتسامة عريضة.

فشلت جدتها فى النهوض من مقعدها ثم قالت :

ـ لا تشغل بالك بسام لأيفورد، فأنتى الإنسانة التى يساورنى القلق بشأنها يا صوفى. وإنى لأعلم كم تتوقين فى السر لأن تفعل كما فعلت كافة صديقاتك، وهو أن تغادرى المنزل وتحصلى على استقلالك.

فيكون لديك بيت خاص بك.

خوت صوفى كتفيها استهجاناً وقالت :

ـ هذا أمر مستحيل بالنسبة لى يا جدتى، فهو كالقطرة فى كبد السماء.

أحدقت مدام وينرايت عبر الطريق المخضرة، فى اتجاه الأشجار والشجيرات التى رسمت حدوداً للملكية وقالت :

ـ ليس هكذا بالضرورة. لقد سمعت أن مستأجرى بيت إليكس الصغير سوف يرحلون عنه عما قريب، كما تعرفين. إنه صغير جداً ويحتاج لكثير عناية، ولكن يتعين عليك أولاً أن تستهواكى الفكرة تى تستطيع أن أرتب الأمور لك لكى تحصل عليه. وبالطبع، إنى لأعلم أن مدينة أرليسفورد ليست مثيرة مثل مدينة ديتزبرى، ولكنها على الأقل مكان آخر مختلف.

واستطردت مدام وينرايت قائلة:

ـ إن الأولاد الآن بعدون وغير مسئولون منك يا صوفى، أما ديفيد فبوسعه أن يجد مديره للمنزل، ويتركك تعيشين حياتك الخاصة أخيراً.

تلألأت عينا صوفى للفكرة وتساءلت : وأين المكان بالضبط؟

ـ فى شارع الكنيسة.

تيقنت صوفى من المنزل إنه المنزل الأخير فى صف من المنازل التى كانت فى وقت من الأوقات ملجأ للفقراء بالقرب من الكنيسة، فى طريق ضيقة تتدل وتتشابك من فوقها، وهو منعزل جداً جداً. وأفاقت من خيالها كما لو كانت قد وقعت من السماء فارتطمت بالأرض. فتذكرت جدتها قائلة :

ـ تقع أرليسفورد على مسافة ثلاثين ميلاً من ديتزبرى، وهى مسافة قاصية جداً على القيام برحلات يوميه إلى مكان العمل. بالنسبة لى الأمر سيان عى أى حال.

ـ تخلى عن وظيفتك !

ـ لا أستطيع يا جدتى. خصوصاً بعد أن غدرت ديفلين بالكستدر، وأنا لا أقدر على أن أفعل نفس الشىء.

ـ هراء. إن السكرتيرات لسن عزيزات على الاستبدال والتغيير بأكثر من العرائس.

انحنى فم مدام وينرايت بابتسامة أنيقة للغاية قائلة :

ـ استعمل عقلك يا طفلتى، ألمنى أن تبحثى لنفسك عن وظيفة فى أرليفورد، الآن، أم تراك لن تفعل ؟ إن سام لايفورد بحاجة إلى سكرتيره حالاً كما رأيتى وسمعتى منه.

تفكر صوفى فى الأمر بغضب.، فقد كانت الفكرة مغرية. إذا ما استطاعت أن تقع أياها بالفكرة بأسلوب يمكنها بأسلوب لطيف كيس. وأن تقنعه بأن هدفها هو الاستقلال وليس الهجر، بعدئذ يمكنها الخروج والفرار. غير أن تذكرها بأنها ربما آذته جعلها تخجل، وفى نفس الوقت لم يكن محتملاً أن ترى تلك الفرصة الذهبية تضيع سدى.

قالت مدام وينرايت ملاطفة إياها :

ـ تستطيعين أن تأخذى كل ما تشئين من هنا كأثاث. إذا يتحتم أن تنفصل عنهم ذات يوم، يا صغيرتى. وبعد كل شىء، إذا قررتى أن تتزوجى جوليان، سيكون أبوك مجبراً على أن يدعك تذهبين، أم تراه لن يفعل؟

هزت صوفى رأسها مؤكدة قولها :

ـ أتزوج جوليان ؟ ليست هناك فرصة لذلك ؟

ـ أنا لا أستطيع أن أفهم جيلك. إذا كان هذا شعورك نحوه، فلماذا لا تشجعى الولد ؟

صرخت صوفى :

ـ «الولد» هذا يكبرنى بثلاثين عاماً ويكاد يبلغ الخمسين، وهو ليس بحاجة إلى تشجيع. أؤكد لك. أن لأوليان بريت سعيد تماماً فى

متحفه ولديه شواغله، كما أن هناك أمه. وإذا كان لديه بعض المباهج كي يبهجني بها من حين لآخر، فكيف يستطيع التفرغ لي ؟ إن الأمر يعني أنني في النهاية سوف آكل شيئاً لم أقم بطهيته! وردت مدام ويزايت قائلة

ـ وأنا دائماً أعتقد أن الطريق إلى قلب الرجل هو معدته. كم أنت إنسانة غير خيالية يا صوفي !

ـ نعم، أعرف ذلك.

ركت صوفي على ركبتها ودفنت رأسها في ثياب جدتها، قائلة وهي تنشج تشيجاً مكبوتاً :

ـ إن عاداتي مستهجنة أيضاً. فلم أشكرك حتى على اعطائي مثل هذه الهدية الرائعة. سوف أعيش في بيت إليكس، وأنني لأعتز بنفسي.

قالت مدام ويزايت بصوت أجش :

ـ حسناً انهضي الآن، إن دموعك تتلف ثيابي :

الفصل الثاني

سيسل بصدد النزول بدار كبار السن ؟

قال ذلك وهو غير مصدق.

أشارت إليه صوفي عبر مائدة العشاء قائلة: ـ هذا صحيح. اجلس و إلا سوف يبرد الطعام.

قال بحده :

ـ لقد كان هذا أقصى ما أتوقع أن تشاوبني بشأنه في اختيارها. بالطبع. أنا طبيب. وفي هذه الحالة الفريدة، أشعر بأنني على معرفة لما فيه الكفاية لكي أستغني عن استشارتها ونصائحها.

ضحكت صوفي بينها وبين نفسها ضحكة خافته وقالت :

ـ وكيف يتسنى لكما الاثنين معاً أن نعيشا سوياً. لقد اقترحت عليها ان نعيش معنا. ولكن لا تنزعج. فقد كان رد فعلها مماثلاً لرد فعلك.

شعر الدكتور غوردون بالرحة حينما اعترف بأن اختيار حماته لأحد دياز كبار السن كان اختياراً ممتازاً، وغير موضوع الحديث إلى عائلة بالأبت، وانهيار حفل الزفاف، معرباً عن رأيه بأن الكسندر، على الرغم من أنه بدون شك سيكون أفضل حالاً بدون انسانة مثل

Malas.com منتديات ملاس

ديلفين، كان زواجه منها صفقة كبرى حطمها هجرانها له فى ذلك اليوم المشهود الذى لا ينسى.

واتفته صوفى على ذلك قائلة:

ـ إنى متأكدة من ذلك، فكيف طاوع ديفلين قلبها ان تفعل ذلك، أننى لا أعرف. لم أمر بنفس التجربة من قبل أبداً.

ـ أن تتركى عريسك ينتظرك فى الكنيسة لعقد القران. أليس كذلك ؟

ـ بالضبط، إذ هى ليست أول عروس تغير رأيها، ولكن كان يتحتم عليها على الأقل أن يكون سلوكها متحضراً ـ فتعطى الكسندر الوقت الكافى كى يلغى كل شىء.

كان الدكتور غوردون متفقاً تماماً فى الرأى معها. وأمضيا بقية وقت العشاء يتسامران بشأن عودة التوأم من أجازتهم فى فرنسا، ورحيلها الفورى مرة ثانية إلى أدينبرج.

قال الدكتور غوردون متفكراً:

ـ لسوف يكون البيت هادئاً تماماً بدونها. أخفق قلب صوفى بينما كانت ترفع الأطباق عن المائدة. حيث بدا أن الوقت غير مناسب للتطرق إلى الحديث عن بيت اليكس الصغير.

أحضرت بعد ذلك كومة من المناشف وبياضات السرائر، وشرعت فى الحياكة بمعدل صاخب غاضب بينما كان أبوها يشاهد فيلماً تسجيلياً فى التليفزيون. لقد كان يوماً مضنياً فى العمل بالمكتب. فلم يتوقف بيرى الشريك الأصغر للاكسندر عن الحديث عن افتراء ديلفين، وعند ذلك كانت صوفى قد أصابها الإعياء من كثرة الكلام عن الموضوع لذى رحيلها.

ولحسن الحظ، تمكنت من مغادرة المكتب فى موعد انصرافنا

ووصلت إلى المنزل مبكراً بما فيه الكفاية لتعد لأبيها طعام الكسرولة المفضل لديه على العشاء، مضمرة فى نفسها فكرة أن تمهد له ذهنه ليتقبل الأخبار التى سوف تنبئه بها بشأن ترك البيت.

راحت صوفى تخيط وتطرز وتقص، بينما كان عقلها مشغولاً على أمل أن يجد طريقة مريحة وغير مؤلمة كى تعرض القضي. فاختلست النظر مراراً لتكتشف أن أباها مأخوذ بنفس القدر وهو يحدق فى الفضاء بأكثر مما يحدق فى التليفزيون، وهو الأمر الذى كان يعنى أن يوم الأثنين من الناحية العلمية، يوم كالمعتاد.

أحدثت صوفى بين الفينة والفينة فى الفراغ هى أيضاً، وغاصت فى أحلامها عن البيت الصغير فى أرليسفورد، بعيتها البراقين حنيناً إلى الخارج متخيلة نفسها هناك، بمفردها، مستمتعة بحياتها فحسب. فتستطيع أن تلتهم صينية طعام لوحدها ـ وهو الأمر الذى كان يؤدى إلى عبوس الدكتور غوردون ـ وأن تشاهد أية برامج تحبها فى التليفزيون. أو لا تمتلك جهاز تليفزيون اطلاقاً. ثم تنهدت بثاقل.

وتمنت لو أن هناك طريقاً فقط لإنجاز هدفها بأسلوب سام ورفيع دون أن تؤذى مشاعر أبيها فى هذه العملية.

قصت صوفى

الخيط من آخر مفرش وطوت آخر منشفة باتقن ووضعتها على قمة الكومة، وتنبهت فجأة إلى أن التليفزيون قد أغلق، وأن أباها كان يحدق فيها بركيز غير مألوف. توتر. وماذا بعد؟ إن النظر إلى وجه أبيها الحاد المميز غير مريح.

قال بفظاظة :

ـ صوفى، هل لديك أية أفكار بشأن الزواج من جوليان ؟

بدا أن هناك اهتماماً كبيراً بوليان بريت من جانب الذين يحبونها جميعاً وهو الأمر الذى أسرها.

ـ إن لأوليان مجرد صديق يا أبتاه، وأنا أخرج مع أساساً لأنه غير مهتم بالزواج اطلاقاً.

دهشت عندما رأت أباها بدلاً من أن يستريح لذلك، بدا أكثر اضطراباً وقلقاً. فقالت بلطف وكياسة :

ـ هل ثمة شيء خطأ يا أبتى ؟

نهض الدكتور غوردون، دافعاً إلى جانب كومة بياضات الأسرة وجلس بجوار صوفى على الأريكة، ولف ذراعه حولها جاذباً إياها إليه ليقربها منه. صاحت صوفى وقد أزعجها هذا السلوك العاطفى غير المعتاد :

ـ هاى، ماذا هناك يا أبى، أثمة شيء على غير ما يرام ؟

شهق ديفيد غوردون نفساً عميقاً، مستغرقاً نفسه بوضوح كى يقول ما كان جاثماً على قلبه، ويريد أن يتفوه به.

ـ صوفى، بودى أن تعلمى كم أقدر ما فعلتيه لنا جميعاً منذ أن توفيت أمك. وأعرف أنك قد تخليتى عن جميع أحلامك بالالتحاق بالكلية أو الحياة المهنية من أجل أن تعتنى بنا أنا والأولاد.

ـ لم يكن لدى أبداً أحلام بالالتحاق بالكلية، أو الحياة المهنية!

أهمل كلامها وقال:

ـ مهما يكن أنا موقن بأنك قد بذلتى جهداً، وأريد منك ـ نحن نريد منك أن تعلمى أن مكانك هو بيتنا جميعاً دائماً، وطالما كنتى تريدين ذلك.

ـ نحن ؟ انتقدت عين صوفى وأضحت مثل أصحن الفنجان. ما الذى تريد محاولاً أن تقوله يا أبتى ؟

قال مثيراً للاحتقار :

ـ اننى أجاهد كى أمهد للموضوع، غير أننى سوف أصارحك بالتى يا حبيبتى، أفكر منذ فترة وحتى الآن فى الزواج مرة ثانية. والآن لا أريدك أن تشعرى بأنك عقبة أو أى شيء أحق من هذا القبيل.

ـ تتزوج .

أوما برأسه بتعاسة وقال :

ـ لقد اتفقت أنا وكيت على أن ـ

صرخت صوفى ذعراً وقالت :

ـ هل سوف تتزوج من العمة كيت ؟

عانقها أبوها بتشنج وقال :

ـ ولكن الأمر لا يستحق القلق، أقسم لك، أرجوك ألا تحبطى، يا حبة القلب.

دفعته صوفى بعيداً عنها وانفرجت أسارير وجهها وقالت :

ـ الإحباط أيها الرجل العجوز الأحمق !، إننى أهتز طرباً، أعتقد أنه رائع ؟

ثم أعطته قبلة ممتازة لكى تبرهن على ذلك.

جفف الدكتور غوردون وجهه بمنديل، مخرجاً تنهيدة راحة وقال:

ـ هذا هو سبب سؤالى لك عما إذا كنتى تنوين الزواج من لأوليان يا صوفى. فقد كنتى تخرجين معه منذ فترة طويلة، وتعجبت إذا حاولتى أن تحبطيه بسبب عدم استطاعتك أن تتركينى.

قالت ذلك صوفى وهى تكاد تكون غير متماسكة من فرط الشعور بالنشاط حين استطردت لتخبره كل شيء عن بيت إليكس الصغير، واضعة إياه فى الصورة أخيراً، معربة له كم كانت تبتغى بيتاً خيالاً خاصاً بها.

هامت صوفى سحابة ودية من صنع هيامها بعد أن سمعت أخبار أبيها، غير عابئة حتى بالجبل الصغير من الملابس المتسخة التى أعتلت مقدم مانيو ومارك. وأخبرت كيت بالأيت عند الغداء فى سينغنغ كيتل :

ـ يا لها من أنباء رائعة. لا أتصور لماذا لم تعجلا بالزواج من قبل.

كانت عينا كيت السوداوان اللتان اتصفتا بالفكاهة والهزل صريحتين.

ـ لم يكن الوقت ملائماً. فأبوك لم ينس لويزا، أبداً. وأضافت:

وقالت صوفى لـ كيت مؤكدة أن لويزا غوردون لو كانت على قيد الحياة لوافقت بشدة، وأردفت :

ـ أن أمى كانت تحب أن ترى الناس سعداء.

تلألأت عينا كيت وهى تقول :

ـ وهكذا أنا كذلك، وأنا أوافق على الخطوة التى اقترحت أنك سوف تتخذينها. غير أن الناس سوف يتقولون بأن زوجة أبيك الشريرة قد ألقت بك خارجاً إلى برد الثلوج !

قهقهت صوفى، ثم أوغلت فى أخبار البيت الصغير، وكيف أنها كانت تعتزم طلاءه وتزيينه بنفسها قبل أن تتولى الوظيفه كسكرتيرة عند سام لايفورد. وأردفت :

ـ تأكدت جدتى من أن الوظيفة ستكون من نصيبى، فى نفس اللحظة التى سمعت فيها عن زواجك المزمع بأبى، بطبيعة الحال!

تفكرت كيت فى الأمر مليا وقالت :

ـ إن مدام سيسل قد ولدت اجتماعية تهتم بالناس وبكافة الأشياء ـ ولهذا أنا مغرمة بها جداً. فقد أرسلت لى زهوراً وخطاباً لطيفاً جداً، وهو ما أعتقد أنه لفتة ظريفة للغاية منها، طالما أننى

بسبيل للزواج من زوج ابنتها.

وإنى لأرى أن الكسندر سيكون الإنسان الوحيد الذى سوف يزعجه رحيلك.

كانت صوفى تشك فى هذا، قالت :

وهل تعتقدين فى ذلك ؟ سوف أعمل لمدة شهر ثم أقوم بالتبديل فليست لدى النية أن أخل عنه فى محنه مثلما فعلت نساء أخريات أستطيع أن أذكرهن !

على أية حال، فإن صوفى كلما اقترب يوم عودة الكسندر، كانت السحابه الورديه التى تعيش فيها تتبدد وتتبخر. فقد كانت مقتنعة بوضوح تام أن رجلاً عائداً لتوه من أجازة اختيارية، كان مقرراً لها أن تكون شهر العسل، سوف لن يتلقى استقالتها فى الاحتمال الأكبر بترحاب وفرح، إلا فقط فى حالة استبدال أخرى بها، وبعدم ارتياح.

وفى اليوم الذى كان مقرراً أن يعود فيه، بذلت صوفى جهوداً فوق العادة كى تزين وترفع من روحها المعنوية، ووصلت إلى المكتب مبكرة بنصف الساعة على غير المألوف، فوجدت أن الكسندر سبقها مبكراً إلى هناك. وكان قد استقر فى مكتبه، ماضياً فى تأدية عمله اليومى. قالت كالمعتوه :

ـ لقد عدت إذن، هل استمتعت بأجازة سعيدة ؟

ندمت صوفى على الكلمات التى أخرجتها بلسانها بمجرد التفوه بها. يا لها من معتوهة ! كيف يتسنى له أن يستمتع بأجازة سعيدة تحت مثل هذه الظروف ؟ صعدت موجة بطيئة من اللون الأحمر إلى وجهها، بينما كان الكسندر ينظر إليها رافعاً أحد حاجبيه بطريقة تهكمية، كانت تكرهها عندما كانت صغيرة السن.

ـ صباح الخير يا صوفى. نعم ولا. قال ذلك مبتسماً ابتسامة

حقيقة. نعم. لقد عدت أدراجي، وكلا، لأنني لم أستمتع بأجازة سعيدة. بدا كما لو كان قد بهت بالإعياء، من جراء التقرح الداكن تحت عينيه. وإلا لكان قد ظهر في هيئته كالمعتاد. نهض واقفاً لينظر إلى بعض اللوحات المثبتة على عارضة اللوحات الأثرية، التي كان ينظر إليها أبوه وجده من قبله، ثم سدد نظرة إلى صوفي، التي كانت تتراجع بتعاسة، مترددة لا تعرف ما إذا كان يتعين أن تتراجع أو تثبت في مكانها شجعها على الحديث قائلاً :

ـ استمري، ألم تكوني بصدد سؤالي لماذا ؟ فقالت باختصار:

ـ كلا، لدي الإحساس الكافي كي أدرك لماذا، ألا يبدو ذلك غريباً. لسوف أعود فيما بعد، كنت غير جاهز لتقرأ البريد. حيث عند الكثير من الأعمال متروكة منذ أمس.

جلس خلف مكتبه، شابكاً يديه وراء رأسه وقال:

ـ لقد شغل الآخرون وقتك بالأعمال، أليس كذلك ؟ هل وجدوا ـ على فكرة ـ أي شخص ليشغل وظيفة المصمم ؟

ـ حشد ببري بعض المرشحين كي يعرضهم عليك اليوم.

ـ حسناً، كفى عن التململ واجلسي يا صوفي.

فعلت صوفي ما أمرها، متسائلة كيف يتسنى لها أن تثير الموضوع بلياقة وبسرعة، موضوع استقالتها. وجهت إليه سؤالاً يهدوء :

ـ كيف حالك يا الكسندر ؟

ـ أفضل حالاً كما يتوقع البعض، فحال يصف حالتي. لقد كنت أحمق، طبعاً، أن أرتحل إلى اليونان.

وكانت عيناه تومضان بدون أن تبطرا شيئاً وقت أن كان يحدق فيها.

ـ في ذلك الحين، كنت أحتاج إلى الفرار إلى الجحيم، وكانت

حقائبي محتشدة، والتذاكر في جيبي، لذلك صممت على الرحيل، وقد كانت غلطتي هي الرحيل بمفردي.

وفجأة ركزت عيناه عليها، فأضاف.

هل كنت ترتحلين معي يا صوفي ؟

كبتت رجفة أصابتها وقالت :

ـ لا.

هز كتفيه

في لاأكثه الرمادي الفخم قائلاً :

ـ أنني فتاة عاقلة، حسناً لقد مرت مياه كثيرة تحت القنطرة الآن. علاوة على أنني أسمع أن هناك حفل زفاف آخر في المستقبل القريب.

نظرت إليه صوفي بتفرس وقالت :

ـ هل تعني أن هذا الزفاف أيضاً لن يتم ؟

ـ يا إلهي، لا، إنني مغتبط، ولم أستطيع أن أفهم لماذا لم يتحد الاثنان كلاهما بالزواج منذ وقت طويل قبل الآن.

ـ أنا أستحق أن أعضل في الجحيم وعلى عيني غمامتين كالفرس. إذ لم ترد الفكرة أبداً على خاطري.

ـ وماذا رأيك أنت يا صوفي ؟

نظر الكسندر بعينين طارقتين نصف مفتوحتين، بينما كانت تبتسم ابتسامة متوهجة .

ـ رأيي ؟ أعتقد أن زواجهما رائع ولا يوصف بالكلمات.

هز رأسه قائلاً :

ـ وهناك كيت، تخشى أن تشعري بأنك قد طردت في البرد، هذا عرض من الأعراض الشريرة التي تظهر على زوجة الأب، لا أكثر.

مددت صوفي أكشافها، مثبتة عينيها السوداوين عليه بتركيز بينما

ضاقت عيناه من المفاجأة. وقالت :

ـ فى حقيقة الواقع، سوف أكون سعيدة إذا ما طردت خارجاً. غير أنى قد تعودت أن أخبرك بعد يا الكسندر. فقد كنت أريد أن أتحدث معك أولاً غير أنك قد علمت الآن.

قال بحدة :

ـ لا أفهم لم إنك سوف تتزوجين لأوليان بريت.

حدق صوفى فى أن تنظر بعينين طارقتين :

ـ لكنى لن أتزوجه. أنا لا أعرف لماذا يتعجل الجميع هكذا زواجى لأوليان فى هذه الأيام. ما نحن إلا صديقان. حقاً وهو يعزمنى على العشاء من حين لآخر، لا أكثر ولا أقل.

نظر الكسندر اليها وقال مازحاً :

ـ لقد كان يدعوك على العشاء، على حد علمى، لسنوات طويلة، يا صوفى. حتى أنكما اعتدتما على ذلك روحاً وجسداً.

ـ ليس لدى نية فى الزواج منه، سواء من لأوليان أو أى إنسان آخر.

ثم تحولت ابتسامتها إلى استياء :

ـ إن الزواج كما أراه، عبارة عن سلسلة طويلة من إعداد الطعام والتنظيف، والتسويق ـ بصرف النظر عن الأطفال الذين يحتاجون إلى مالا نهاية له من المطالب، عندما يلتحقون بالمدارس.

نظر الكسندر إليها شزراً :

ـ يا إلهى، هل هذا هو رأيك فى الزواج ؟ لم يكن لك حديث مع ديلفين عن الموضوع، فى أية فرصة ؟ وإلا لكان لها معى شأن آخر.

نظرت صوفى فى عينيه وقالت :

ـ لم تكن علاقتى طيبة أبداً بديلفين، وصديقاتى لا يفرقن فى نوع السلوك الذى تقترفه.

حدث سكون وصمت بغيضين. وقالت صوفى أخيراً بدون أن

تعى ما تقول : أنا آسفة، أظن أننى ما كان يجب أن أقول هذا.

هز الكسندر كتفيه. قائلاً :

ـ أرجوك لا تعتذرى، فمن الواضح أنك تكرهينها. أنا على يقين من أنك، تحت نفس الظروف، لن تتركى الأمور تتفاقم حتى اللحظة الأخيرة لكى تخبرى عريسك بأنك قد غيرتى رأيك.

شهقت صوفى نفساً عميقاً وقالت :

ـ كلا على الإطلاق. إذ طالما أننى لن أورط عريساً، فالمناسبة من غير المحتمل أن تنشأ. ولكن بما أنك طرف فى الموضوع يا الكسندر فإننى أعتبر أن ما فعلته ديلفين كان عملاً بربرياً. أننى أعرفك، وليست لى الجرأة عليك، ولكن صدقنى، لقد نزف قلبى دماً من أجلك فى ذلك اليوم.

ـ يا لك من حنونة يا صوفى. على أية حال، لاتبدى عواطفك. سوف أستطيع أن أنساها. فالنساء يمكن استبدالهن ـ حتى النساء الجميلات مثل ديلفين. والآن، هل لنا أن نواصل العلم، من فضلك ؟

اضطربت صوفى أثناء الساعة التى قضاها كلاهما معاً فى تجميع الخطابات البريدية. وكانت تمضى فى طريقها منصرفة من الغرفة حينما ناداها الكسندر لترجع. وقال لها مذكراً إياها :

ـ ألم تكونى على وشك أن تخبرينى بشىء يا صوفى ؟

تبدد وخز الضمير الذى استشعرته صوفى، قالت :

ـ أوه، نعم. سوف أؤكد على هذا كتابة، بالأسلوب المعتاد، ولكننى أحسب أنك يجب أن تعرف أننى سوف أرحل، يا أكستد، ولسوف. أعمل خلال الشهر الإعتيادى بطبيعة الحال.

جلس الكسندر فى كرسيه، يدير قلماً ذهبياً بين أصابعه، بينما كان

ضاقت عيناه من المفاجأة. وقالت :

ـ فى حقيقة الواقع، سوف أكون سعيدة إذا ما طردت خارجاً. فلم أكن قد انتويت أن أخبرك بعد، يا الكسندر. فقد كنت أريد أن أدعك تستقر أولاً، غير أنك قد علمت الآن.

قال بحدة :

ـ لا تقولى لى إنك سوف تتزوجين لأوليان بريت.

جاء دور صوفى فى أن تنظر بعينين طارقتين :

ـ لا، لن أتزوجه. أنا لا أعرف لماذا يتعجل الجميع هكذا زواجى للأوليان فى هذه الأيام. ما نحن إلا صديقان. حقاً وهو يعزمنى على العشاء من حين لآخر، لا أكثر ولا أقل.

نظر الكسندر اليها وقال مازحاً :

ـ لقد كان يدعوك على العشاء، على حد علمى، لسنوات طويلة، يا صوفى. حتى أنكما اعتدتما على ذلك روحاً وجسداً.

ـ ليس لدى نية فى الزواج منه، سواء من لأوليان أو أى إنسان آخر.

ثم تحولت ابتسامتها إلى اضطراب :

ـ إن الزواج كما أراه، عبارة عن سلسلة طويلة من إعداد الطعام والتنظيف، والتسويق ـ بصرف النظر عن الأطفال الذين يحتاجون إلى مالا نهاية له من المطالب، عندما يلتحقون بالمدارس.

نظر الكسندر إليها شزراً :

ـ يا إلهى، هل هذا هو رأيك فى الزواج ؟ لم يكن لك حديث مع ديلفين عن الموضوع، فى أية فرصة ؟ وإلا، لكان لها معى شأن آخر.

نظرت صوفى فى عينيه وقالت :

ـ لم تكن علاقتى طيبة أبداً بديلفين، وصديقاتى لا يفرقن فى نوع السلوك الذى تقترفه.

حدث سكون وصمت بغيضين. وقالت صوفى أخيراً بدون أن

تعى ما تقول : أنا آسفة، أظن أننى ما كان يجب أن أقول هذا.

هز الكسندر كتفيه. قائلاً :

ـ أرجوك لا تعتذرى، فمن الواضح أنك تكرهينها. أنا على يقين من أنك، تحت نفس الظروف، لن تتركى الأمور تتفاقم حتى اللحظة الأخيرة لكى تخبرى عريسك بأنك قد غيرتى رأيك.

شهقت صوفى نفساً عميقاً وقالت :

ـ كلا على الإطلاق. إذ طالما أننى لن أورط عريساً، فالمناسبة من غير المحتمل أن تنشأ. ولكن بما أنك طرف فى الموضوع يا الكسندر فإننى أعتبر أن ما فعلته ديلفين كان عملاً بربرياً. أننى أعرفك، وليست لى الجرأة عليك، ولكن صدقنى، لقد نزف قلبى دماً من أجلك فى ذلك اليوم.

ـ يا لك من حنونة يا صوفى. على أية حال، لاتبدى عواطفك. سوف أستطيع أن أنساها. فالنساء يمكن استبدالهن ـ حتى النساء الجميلات مثل ديلفين. والآن، هل لنا أن نواصل العلم، من فضلك ؟

اضطربت صوفى أثناء الساعة التى تلتها كلاهما معاً فى تجميع الخطابات البريدية. وكانت تمضى فى طريقها منصرفة من الغرفة حينما ناداها الكسندر لترجع. وقال لها مذكراً إياها :

ـ ألم تكونى على وشك أن تخبرينى بشىء يا صوفى ؟

تبدد وخز الضمير الذى استشعرته صوفى، قالت :

ـ أوه، نعم. سوف أؤكد على هذا كتابة، بالأسلوب المعتاد، ولكنى أحسب أنك يجب أن تعرف أننى سوف أرحل، يا أكسند، وسوف. أعمل خلال الشهر الإعتيادى بطبيعة الحال.

جلس الكسندر فى كرسيه، يدير قلماً ذهبياً بين أصابعه، بينما كان

ينظر إليها، قال متمتماً عقب فترة سكوت طويلة وسقيمة :

ـ أشعر بأنني كالسفينة الغارقة.

صاحت بحدة، وقد اتقدت عيناها :

ـ أكره هذا التلمح يا الكسندر، فأنا لست أدوس عليك. فأنا بصدد البحث عن فرصة أخرى كي أتدرب قبل الرحيل. وكما ألمحت منذ عهد ليس ببعيد، فإن النساء يمكن استبدالهن. وأنا، كما لم تلحظ أبداً، إمرأة.

أخضعها الكسندر لمسح شامل، فقد جالت عيناه بسلاسه من تاج رأسها الداكن اللامع، حتى أطراف حذائها الأسود الصغير، وعادت مرة ثانية، متريثة وماكثة وقتاً طويلاً عند تلك المنحنيات التي عززت من عبارتها مما لا يدع مجالاً للتساؤل. وقال في النهاية :

ـ أنت كذلك يا صوفي، وأنني لسعيد أنك قد نبهتيني إلى ذلك.

أعترضت، واستدارت مديره وتوجهت نحو الباب، ولكنه للمرة الثانية ناداها لكي تعود، متسائلاً :

ـ لماذا ماذا ؟

بدت عينا الكسندر مكتئبة على نحو غير متوقع، وأعرب.

ـ كنت أعتقد أن تلك الفرصة الوظيفية مثالية في حالتك الخاصة.

فقالت متسألة :

ـ هل هذا هو سبب منحك إياي الوظيفة أصلاً ؟

تردد الكسندر قائلاً :

ـ لا، لكي أكون أمينا تماماً، منحتك الوظيفة لأن كيت أرادت ذلك.

ـ لا، ولكن كنت محظوظاً. فقد برهنتي على أنك سكرتيرة ذات كفاءة عالية.

أحدقت صوفي فيه بقسوة، قائلة :

ـ على أية حال فأنا أفترض أنك سوف تكون مستعداً لإعطائي تعويضاً.

ابتسم الكسندر، وهو ينظر إليها باضطراد :

ـ طالما سوف نصبح أقارب عما قريب، فلماذا هذا التباطل عن محاباة الأقارب؟ علاوة على ذلك، فأنا أريدك أن تبقى. وإذا كانت المسألة مسألة مال...

قالت بسرعة :

ـ لا شيء من هذا القبيل، سأنتقل وأنزح عن المقاطعة.

نهض واقفاً وتجول حول المكتب، قال :

ـ هل يحق لي أن أتساءل إلى أين ؟

ـ بالطبع. إلى ارليسفورد. لقد أعطتني جدتي منزلاً صغيراً هناك.

انحنى الكسندر ليلتقط مشبك أوراق وقال :

ـ هل هو البيت الذي في شارع الكنيسة ؟

أجابت صوفي وقد دهشت ؟

ـ هذا صحيح. هل تعرفه ؟

ضحك قليلاً وقال :

ـ نعم. وأعرف أن سيسلي الظريفة كان لها يد في كل ما جرى. يا لها من سيدة. لو كانت أصغر سناً بسنوات قلائل، لكنتفقالت

صوفي بصوت خافت:

ـ وليس لأنك ظننت أنني سأكون سكرتيرة ذات كفاءة

تزوجتها بدلاً من تعريض نفسي للازدراء وأنا أهث وراء

ضحكت صوفى، وشعرت بالراحة حينما رأت الكسندر يبدو أقل عدوانية، ثم أخبرته عن مفاجأة جدتها المذهلة عن التحاقها بدار لرعاية كبار السن، وكيف أنها دفعت سام لأيفورد ليمنح صوفى الوظيفة. وقالت :

ـ إنى على يقين من أن الرجل المسكين كان يخشى أن يقول لا.

فقد كان يخجل أن يقول أمامى ما إذا كان يريدنى أم لا.

أخذ الكسندر كومة الرسالة منها ووضعها على المنضدة، وقد فاجأها بدرجة كبيرة بأمساكه بيديه، بينما كانت عيناه جادتين وهو ينظر إلى عينيها، وصرخ :

ليس لدى من شك على الإطلاق فى أن لأيفورد يريدك يا صوفى وقد يكون أحمق إذا لم يكن يريدك. أنا أعرف اللعين جيداً، فهو ليس بالأحمق. ولهذا السبب هو ناجح جداً.

حاولت صوفى أن تسحب يديها منه، غير أن أصابع الكسندر الطويلة كانت محكمة الإمساك بهما، قالت :

ـ أنت تعرفه إذن ؟

ـ معرفة سطحية. قبل أن أذهب إليه كى أكلفه بإيجاد مقر مناسب لفرعنا الجديد كمكتب.

ابتسمت صوفى بانتعاش وسحبت يديها من قبضته، قالت :

ـ أوه، إنه عالم صغير يتعين أن أنصرف. سوف يفتقد بيرى خدماتى دقيقة بدقيقة. على فكرة، هل يعرف الآخرون أنك قد رجعت ؟

طأطأ الكسندر رأسه، بينما كان يناولها البريد، قال :

ـ لقد اتصلت بكل من بيرى ولأورلا هاتفى الليلة الماضية. هل تسدين إلى معروفاً كبيراً جداً يا صوفى ؟

نظرت إليه بقلق :

ـ إذا استطعت ذلك. ما هو إذن ؟

ـ هل تأتين معى لتناول وجبة خفيفة فى مطعم لأورلا عند وقت الغداء ؟ لكى نحتفل بعيد زواج والدى.

قال ذلك بسرعة، حين فتحت فاها لتنطق بالرفض، وأردف :

ـ وليس هذا فحسب. لكى أكون أميناً، فانتى سوف أقدر كثيراً مساندة معنوية ضئيلة منك لى، حين أظهر وأنتى معى لأول مرة أمام العامة، منذ ذلك اليوم الشنيع.

كانت تجربه جديدة لصوفى أن تكتشف أن الكسندر بالأيت يلاطفها لكى تصاحبه، وأحست بأنها أحبيت ذلك. حيث كان من الممتع أن ترى الكسندر الواثق من نفسه غروراً، وشاعراً بتفوق لا حدود له، وهو ينتظر موافقتها وقبولها بمثل هذا التوتر.

قالت عرضاً : ولم لا.

على الرغم من ابتسامته التى أجاب بها عليها، وكيف أنها كانت ساترة، إلا أن أفكار أن تتناول الغداء مع الكسندر ملأت صوفى بالهواجس. طيلة الصباح، حتى وقتما كانت تعمل بسرعتها الإعتيادية وتركيزها العادى، كانت تطاردها فكرة فرصة النزول لمجتمع دينزيرى بصحبة رئيسها.

كانت أوقات غداء الكسندر عادة، عن شئون عمل، وأوقات تتفق من أجل جعل الإتصالات أمراً حيوياً لنجاح شركة هندسية معمارية خاصة فى عالم تسوده المنافسة القاتلة، حيث ترسو الصفقات الكبرى على عروض المزايدين الأكثر تنافساً فى ضآلة الأسعار.

كانت شركة بالأيت آند صن ناجحه على نحو متماسك فى منطقة دانزيرى، بسبب شهرة الإسم التجارى وقدم تأسيسه فى هذا الحقل

من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب أن عمل الشركة ممتازاً على نحو طيب، وليس بسبب شخصية الكسندر بالآيت الكاريزمية، الذى كان يحظى باحترام عالمى كرجل استقامة، تقترن بحاسة تمييز فردية جداً.

وظنت صوفى أن اليوم ــ وقد تنهدت ــ سوف يشهد العالم كله برجاله ونسائه وهم يشاقون إلى أن يعربا عن تعاطفهم مع تجربة الكسندر الأخيرة. يالها من تجربه غير مغرية.

فى حقيقة الواقع، كانت لمناسبة أقل مما توقعت صوفى، حيث إن مطعم لأورلاً، وهو مكان شعبى يرتاده رجال الأعمال وقت الغداء، كان يعج بأناس كان بسرهم أن يروا الكسندر يظهر فى الأماكن العامة بانتظام مرة ثانية.

وبدا جميعهم، لدهشة صوفى، يتقبلون وجود وحضور صوفى كأمر مسلم به. ونظراً لقرابة عائلتى صوفى والكسندر، لم يحدث أن أخذها فعلياً معه هناك لتناول الغداء من قبل، أو لأى مكان آخر، لنفس سبب القرابة.

وجدته لطيفاً وحساساً أيضاً لحاجتها الملحة فى العزلة، حيث اجلسها فى أحد الأركان جاعلاً ظهرها للغرفة، فى مقعد يجعلها على مشرفة وإطلال على النهر خارج النوافذ، بدلاً من أن تنظر إلى بحر من الوجوه الفضولية. أختارت صوفى كأساً من الخمر البيضاء والقليل من السلاطه، رافضة اغراءات الكسندر فى أن تجرب شيئا أكثر إثارة.

ابتسمت له ابتسامه خفيفة وقالت :

ــ كلا، شكراً، نادراً ما آكل أى شيء على الغداء، ما عدا تفاحة.

أقطب الكسندر وجهه، وقال:

ــ لماذا لا تتناولين ؟

ــ لأننى أطهو ما يطلق عليه أبى «عشاء فخماً» كل مساء، وإذا تناولت طعاماً، سوف أصبح أكثر بدانة عما أنا عليه الآن.

أخبرته صوفى ذلك بفظاظة، وقد تورد وجهها قليلاً، وبذلك يكون الكسندر ــ للمرة الثانية فى هذا اليوم ــ قد تفحص شخصيها عن قرب، وقد تكست كالمعتاد زياً ملائماً لوظيفتها. وكانت صوفى قد جربت ارتداء لأيب وقمصان فى المكتب، مركزة على الجودة وأسلوب التفصيلة بأكثر مما تركز على الكمية. ولقد كانت اللأيبة اليوم سوداء ومستقيمة، والقميص جعداً متماوجاً مصنوعاً من القطن المرقط باللون الأسود. أما ساقاها فقد كانا خاليين من الجمال، وكانت ترتدى شبات دون تغير، جوارب أنيقة داكنة، وأحذية كلاسيكية ذا أعقاب عالية كى تعوض عن قصرها.

قال الكسندر أخيراً:

ــ أنت لست طويلة جداً، وإلا لكنت قد حسبتك مرضية تماماً من حيث الحجم والشكل.

قالت صوفى وقد تأثرت مشاعرها، وهى ترتشف الخمر، والقلق يتملكها على نفسها:

ــ ليس هذا ما اعتدت أن تقوله !

ابتسم ابتسامة عريضة، وقال :

ــ حسناً، لقد كنتى كذلك، كالكعكة الملفوفة المحشوة بالفاكهة، ذات يوم أعترف بذلك ! غير أنك قد كبرت على ذلك منذ فترة طويلة.

ــ من الخارج فقط يا الكسندر ! أما من الداخل، فلا زلت أشعر بأننى بدينة، بسبب مضايقاتك عديمة الشفقة بينما كنت فى المرحله الحساسة سريعة التأثر.

أطرق الكسندر يتفكر هنية وقال :

ـ يا إلهى ! هل لهذا السبب تتعاملين معى بتحفظ ؟

ابتسمت وهى تعيد التأكيد :

ـ لقد كان عداء بكل ما فى الكلمة من معنى، غير أننى سلوت بمرور الزمن.

ـ شكراً لك يا إلهى على ذلك.

شعرت صوفى فى البداية بصعوبة أن تستمتع بتناول الوجبة بينما تقاطعها من حين لآخر التعبيرات المصطنعة من المشاركة الوجدانية، إلا أن الكسندر، فى كل مناسبة، كان يبدد الإرتباك من صوفى عن طريق تقديمها للضيف بصرف النظر عما إذا كانت تعرف الرجل أم لا، وأضحت تقريباً معتادة على ذلك، بعد برهة، وصار بدهشها أن ينصرفوا فى النهاية فى سلام.

قال الكسندر وهو ينتهد :

ـ أشكر لك يا إلهى أنك أتيت معى يا صوفى. لقد كنتى كبير عون لى.

ـ كان بمقدور بيرى أو لأورلا أن يفعلا نفس المهمة بنفس الإتقان.

هز الكسندر رأسه، وقد بدا أكثر استرخاء لما انقضى وولى وقت المحنة الأولى، قال:

ـ بيرى كان يسارع لمقابلة الحبيب على الغداء، وانطلق لأورلا ليعاين ذلك المنزل فى الجانب الآخر من مدينة فلوستر من قبل. علاوة على ذلك، فإن كليهما بيرى ولأورلا ليسا فتاه جميلة. ورجل مسكين، أسيء معامله مثل، يحتاج إلى مصاحبة سيدة مثلك، احتياجاً شديداً، اليوم فهل هذا يُعَدُ مغالاة فى التعصب ؟

قالت صوفى :

ـ لا، أمر طبيعى فحسب، على ما أظن. غير أننى لست جميلة.

أقطب الكسندر جبينه، وقال :

ـ من الذى يدعى ذلك ؟

ـ مرآتى. فأنا لست غير جميلة فحسب، بل إننى أيضاً لست عمياء ولا أرتدى عدسات ذات ألوان وردية.

فى تلك الأونة، جاء متعاطف آخر إلى منضدتهما لكى يصافح الكسندر، وقال الرجل بوقار، وهو يومىء برأسه بأدب لصوفى :

ـ أقدم لك التعازى، أيها الشاب القديم. ثم انصرف.

قال الكسندر بوحشية:

ـ أتراني قد فقدت انساناً عزيزاً على بالموت.

نظرت صوفى إليه ملياً، وتساءلت أولست قد فقدت؟

دفع جانباً طعام غدائه الذى كان قد أكل نصفه، وصرح:

ـ أظن ذلك،

ثم مال بذقنه على يده، ناظراً إليها، وقال :

ـ أظن أن الحقيقة الأساسية هى أننى لم أعرف ديلفين بما فيه الكفاية. لقد كانت دائماً ترفرف وتطير حول الكرة الأرضية، وراء معارض الأزياء التى لها فيها مهام كعارضة أزياء. ولذلك فقد أنفقنا وقتاً ضئيلاً جداً معاً، إذا حسبه المرء بالساعات، إن القدر يلعب ألعاباً وحيلاً مضحكة أليس كذلك يا صوفى ؟ إذا لم تكن عائلة ديلفين ارتحلت إلى ديتزبرى العام الماضى، لم يكن ليتيسر لى أن أقابلها البتة.

ـ هل كانت تعتزم مواصلة كافة سفرياتها بعد الزواج ؟

ـ أصرت مؤكدة لى أنها قد تعبت من ذلك. وأقسمت بأنها صارت تستهوى الاستقرار. فخدعت نفسى بأنها كانت تعنى ذلك

حقاً.

قالت صوفى بصراحة :

لا أرى أبداً وجهاً للإتفاق بينك وبين ديلفين.

وصل الكسندر إلى المائدة وأخذ يدها، هامساً :

ـ كى اكون نزيهاً، هناك وجه واحد للإتفاق، غطى بظلاله على كل شيء آخر.

تلون وجه صوفى وحاولت أن تستل يدها منه، وقالت:

ـ لا أريد تصرفات صبيانية يا الكسندر، من فضلك.

ـ اسكتى ! كنت أحاول مجرد الشرح.

صارت قبضة الكسندر محكمة بينما مال وانحنى ليكون أكثر قرباً منها. وهمس فى أذنيها:

ـ كلمة فى سرك يا صوفى، كما أكون صادقاً تماماً، كنت سأضحى سعيداً لو أننى أقمت علاقة أقل دواماً مع غيرها، ولكن صدقينى أو لا تصدقى، لقد تمنعت ديلفين على حتى إعلان الزواج.

بحلقت صوفى : هل تعنى...؟

ـ هذا صحيح يا سيدة القلب. فقد كان مسموحاً لى أن أقبلها، ولكن لا أكثر من ذلك. قبل أن أوقع على عقد الزواج. كى يكون فى بيت الزوجية. فلم أكن كالماشية المثيرة للضحك، ولكننى أعانى ـ وأعرف ماذا تعنى كلمة المعاناة ـ من الإحباط. هذا بالإضافة إلى تعريفك بأننى تصرفت مثل النوعيات المختلفة العديدة من الحمقى، حول الآنسة ديلفين ويندهام. وسأثر هذه التصرفات أضت الآن خبرات، بوسعى اخزانها.

رمقته صوفى، وقد أصابها ذعر مفاجىء، غير واثقة من كيفية التعبير عن مشاركتها الوجدانية، بدون أن ترتكب أشياء أكثر سوءاً،

وقالت:

ـ لا أظن أنك كالمواشى المثيرة للضحك يا الكسندر. فكيف يمكن أن تكون كذلك؟ أنت رجل محبوب ومحترم جداً فى ديتزبرى. وأنا على يقين من أن أحداً لا يفكر حتى فى مجرد الضحك عليك.

تحولت عيناه إلى النعومة والاسكينة، وقال: أشكرك يا صوفى.

ألقت بناظريها بعيداً، وأضافت :

وأنت لست بالتأكيد أحمق. أتصور أن أى رجل كان سوف يفعل نفس الشيء، من أجل فتاة فى مثل جمال ديلفين.

وضع الكسندر أحد أصابعه تحت ذقن صوفى، وأعرب:

ـ إذن، أنا لست كالمواشى المثيرة للضحك، ولست أحمق. وهذا يخلصنى من اثنتين من مشكلاتى. هل لديك ما تنصحين به للتخلص من المشكلة الثالثة؟

اتضح لعين صوفى ببطء ما كان يعنيه الكسندر. ففى بار لأورلا مهنا، كان ـ كما تحققت ـ يقوم بنوع ما من مراودتها عن نفسها، وللدهشة لم تكن غاضبة كما كان يتوقع، حيث تخيلت أن مثل هذا الموقف قد ثار بينهما.

فهى لن تفعل مثل ذلك ولو بعد مليون سنة. فإذا كانت علاقتها أزيد من علاقة صاحب العمل والسكرتيرة بقدر طفيف منذ البداية، فذلك لأن عائلتيهما فحسب كانتا دوماً أصدقاء. بالإضافة إلى أن الكسندر كان يعتنى بالأطفال عندما كانت أمهم. وكانت صوفى تنظر إليه شاردة، حين تذكرت صبره وقت أن كان التوأم، على وجه الخصوص، يتبعاته فى تجواله مثل الجرو، حينما كان أبوهما محطماً. وكانت هى نفسها قد التجأت إلى كيت بالأبت التماساً للراحة، كأمر طبيعى، ولم تكن تشعر أبداً أنها قريبة من الكسندر، مثلما كان أشقاؤها يشعرون.

علق الكسندر على صمتها كاسراً أفكارها، قال:

ـ أنتى هادئة جداً.

قالت مجادلة :

ـ الكسندر، لقد كنت أحسب أن هذه المشكلة قد زالت وقتما كنت مغترباً.

ابتسم قائلاً :

ـ لقد كنت أنوى ذلك، غير أن الأقوام الآخرين فى الفندق كانوا عبارة عن أزواج، من كافة المشارب، وفكرة شراد الحب من إمرأة ـ مع كل ما يصاحب ذلك من مخاطر وعوائق ـ كانت تصنع حداً مؤقتاً لكل الرغبات الجامحة.

تساءلت صوفى، وقد أدهشها أنها لم تكن مرتبكة:

ـ ألم تكن هناك احتمالات أخرى ؟

قال الكسندر وقد أطلق سراح يدها :

ـ لم أبال بمعاردة أى إمرأة، أعتذر لك يا صوفى. أنسى كل ما قلته.

ظهر الكسندر منسحق الفؤاد نادماً على نحو غير مميز، وقال:

ـ أنا لن ألومك إذا طليتى بالسواد عينى، لمجرد التلميح بأنك قد ـ أنهت صوفى حديثه بحدة بينما هى تنهض للإنصراف، قائلة :

ـ أستعد ذاتك الجديدة إلى سالف رضاتها؟

امسك بتلابيبها ليقبها قائلاً :

ـ ليس بالضبط. أحسب أننى كنت أطلب المزاة.

ـ وحدث الأقرب. أنا أفترض هذا.

وافقها بخفة، وأمسك كوعها كى يواجهها عبر الحشود :

ـ بالضبط، وأيضاً الأكثر إعزازاً.

قال ذلك هامساً فى أذنها، مردفاً :

ـ بعد كل شىء، يا صوفى، أنت وأنا صديقان قديمان جداً، ولقد كنت على مسرح حياتك الخاص قبل لأوليان بريت بوقت طويل.

الفصل الثالث

توقعت صوفى أن تشعر بالسخط على الكسندر بعد تناولهما الغداء معاً، غير أنه سرعان ما صارحها بأنه لم يشعر بالندم لما وضع ثقته فيها.

وفى حقيقة الأمر، أصبح الكسندر يعاملها وكأنها قد تحولت إلى إمرأة مختلفة تماماً، وأراه تستحق أن توضع موضع الإعتبار، ولم تعد مجرد صوفى الصغيرة التى لم يلحظ حقيقة أنها تتواجد فى المكتب كل يوم حتى انتصاف النهار. وهو هذه الأيام أصبح ساحراً فاتناً، وكانت ترقب هذا السحر بارتياب، موقنة أن لديه دافعاً خفياً لكى يبدو على هذه الهيئة. فإذا لم تكن تعرفه جيداً تبلاً، لأقسمت صوفى بأن الكسندر كان يزيل كافة العقبات لكى يجعلها تعيد التفكير فى استقالتها.

كما أنه لم يكن لديها كثير من وقت لكى تخمن، طالما كان فريق شركة بالأيت آند صن مشغولاً بأكثر مما سلف، أن هناك ضرورة لوجود فرع جديد للمكتب، وتزايد بالحاح بمرور الأيام.

قال الكسندر مثيراً إياها :

ـ أتمنى وأودُّ لو أن صديقك لأيفورد قد أسرع وعجل بايجاد أى مكان يصلح مقراً للفرع الجديد.

ردت صوفى :

ـ هو ليس صديقا لى.

ابتسم الكسندر بأسلوبه المتعالى المعهود :

ـ حسناً، احذرى منه يا صوفى، حينما تعملين معه. لقد طلق زوجته لتوه، والرجال الوحيدون عبارة عن وحوش خطيرة.

وضغط على خصرها فجأة بغير توقع، بينما كان يعالج الباب لها، وكانت صوفى، وذراعاها مليئان بالملفات، لا حول لها فى دفعه ومنعه.

قال بيرى متهجماً، راشقاً إياها بنظراته كالمدفع من الإتجاه المقابل :

ـ أقول، هل لديكما مانع أن تفعلا هذا النوع من الاشياء فى مكان آخر من فضلكما ؟ ثمة مصممون خطاطون صغار السن وأبرياء على وشك الوصول كما تعلمان.

كان ابن عم الكسندر فى أواخر العشرينات من عمره، ذا مسحة من شعر أشقر غير مهذب بدرجة كبيرة عن شعر شريكه الأكبر، ذا عينين زرقاوين واسعتين توشيان بحدة العقل الذى يكمن خلفهما كالموسى.

رشقتهما صوفى معاً بنظرة ثاقبة متوترة، وشقت طريقها نحو مكتبها، وهى تود، للمرة الثالثة منذ عودة الكسندر، لو أنه ثاب إلى سالف عهده وشخصيته السابقة على يوم الزفاف، إلى اليوم الذى كان اتجاهه نحوها عادياً. والمزيد من اليسر فى التعامل بطرق كثيرة. ولقد شعرت بالتلهف معظم الوقت أخيراً، وهى قد أدركت ذلك، وكبتت أحاسيسها حينما علمت حقيقة أنها مشغولة وغارقة حتى أذنيها فى المنزل والمكتب. ذلك لأن شقيقيها التوأم سيغادران المنزل متوجهين إلى ادنبرج، تذكرت ذلك بحزم وصرفت نفسها لمهمة تأليف قائمة

قصيرة عن طلبات العمل المتلقاة رداً على الإعلان الخاص بطلب سكرتيرة لتحل محلها.

رفض الكسندر بصراحة أن يتعامل مع القائمة، قال غير مبال:

ـ تخلصى فحسب إلا من ثلاث أو أربع من المجموعه، وسوف أراهن كلهن فى نفس اليوم، وإلا فأننى لا أريد أن أعرف.

ـ ولكن، أخبرنى يا الكسندر ما إذا كنت تريد واحدة صغيرة السن وجذابة أو تفضل ناضجة ويعتمد عليها.

ـ أنا أريدك أنت يا صوفى. ولكن طالما أنك مصممة على هجرى، فلا تعنينى اللعينة التى سوف تجلبينها مكانك، ما دامت تلك المرأة متعلمة وتستطيع الطباعة على الآلة الكاتبة ـ وتصنع القهوة المفضلة.

التفت الكسندر عن مكتب مرسامه المهندسى ليكتشف أن صوفى عابسة الوجه نحوه استهجاناً. فقال:

ـ بالمناسبه، لا تأتى بسكرتيرة فاتنة جداً، حيث ضغط دم لأورلا هائل مرتفع، وبيرى كما تعلمين، لديه ضئيل مقاومة حينما يتعامل مع من هن من بنات جنسك.

أحدقت صوفى فيه، قالت :

ـ أفهم. أنت لا تريد واحدة تزعجكم أيها الذكور بمفاتنها الجسدية. أشكرك كثيراً يا الكسندر. خلال عمل هنا، لم يقم أى فرد مطلقاً بمحاولة مغازلتى أو أى تلميح !

ضحك ضمها إليه من كتفيها، ناظراً إليها بعينين مثيرتين :

ـ يا ا ، أتمنى لو أنهم لم يفعلوا. وإلا لكانوا أجبرونى على منافستهم ! ألم تتحققى من أننى قد أصدرت أوامرى بأن «أرفعو أيديكم عنها» لهم، يا صوفى، بدأ من بيرى إلى كل من هم دونه؟ ولا أشمل لأورلا لأنه قد تزوج ويعيش حياة زوجية سعيدة ملهوأ

بأطفاله. والباقون يعلمون حق اليقين كيف سيكون ردى عليهم، إذا ما شرعوا فى مطاردتك حول مكتبك.

عضت صوفى على شفتيها، قالت :

ــ أوه. لقد فهمت.

على فكرة، لقد كدت أنسى، لقد جاءت رسالة لك بينما كنتى بالخارج لتناول الغداء. بريت يقول إنه لا يستطيع أن يخرج معك الليلة، وطلب منى أن أعتذر لك.

أومأت صوفى برأسها غير عابئة، وقالت :

ــ أوه، حسناً.

فقال الكسندر بفضول :

ــ ألم تصابى بإحباط. أضاءت عينا صوفى الداكنتان بالضحك، وقالت :

ــ كلا، لقد كان مقرراً أن يصطحبنى لمشاهدة أحد الأفلام الأجنبية الجادة فى مركز الفنون.

هز الكسندر رأسه الوسيم مستغرباً وقال:

ــ يالألهى وأنت لا تحبيهن انفقد مثل تلك الفرصة ؟ يا لك من انسانة نبيلة يا صوفى.

ضحكت صوفى بينها وبين نفسها فى خفوت وقالت :

ــ لا تكن قاسياً، لأوليان رجل لطيف جداً، فى الحقيقة. كل ما هنالك أن بعضاً من ميوله تتصف بأنها لا يفهمها إلا المقربون منه، هذا كل ما فى الأمر.

أومضت عينا الكسندر، وتساءل :

ــ من المقربين منه ؟ كيف يتسنى لكما ذلك، هل يوسعنى أن أستفسر ؟

ــ لا تكن مثيراً للاشمئزاز ! قالت ذلك بسرعة وحدة.

رفع الكسندر أصبعه موبخاً :

ــ والآن ، الآن يا صوفى. كل ما كنت أعنيه، هو هل قريكما من بعض قراءة الشعر، وألعاب الطاولة، وخلافه. ولا أعنى أى شىء سىء.

اندفعت الدماء فى وجه صوفى وأسرعت نحو الباب، غير أن الكسندر أمسك بها قبل أن تصله، واحتجزها برفق. وقال بنعومة:

ــ صوفى، دعينى أخرج معك على العشاء هذه الليلة، بدلاً من لأليان.

فى نفس الوقت الذى استغرقته صوفى كى يسبح ويخمد غضبها، كان عقلها يعمل بمعدل سريع. لقد كانت ترتاب للغاية فى الكسندر الجديد هذا، الذى راح يلاحقها أينما ذهبت، وبصفة عامة يجعل من المستحيل تجاهل أن اتجاهه نحوها قد أخذ أخيراً منعطفاً خطيراً. لقد نقد ديلفين، ومى ذكرت نفسها بذلك، وراح يتصرف أساساً فى ذات الوقت بتبلد نموذجى متناسباً إياها.

مهما يكن، لم تستطع صوفى أن تخلص نفسها من الشك المقيم الذى راح يقوى ويكبر بمرور الوقت. وراحت تعتقد أن الكسندر أخذ يلتمس البلسم الشافى لخروج من آخر نبع يمكن أن يدور بخلدها، وهو ذاتها وشخصها.

سألها خاصاً إياها:

ــ حسناً، هل سوف تأتين يا صوفى ؟

قالت :

ــ لا أستطيع، سوف أطهو طعام العشاء لأبى والأولاد كالعادة. ولم أكن أقابل لأوليان منذ فترة.

أطلق الكسندر سراحها ووقف متراجعاً، لا يزال ينظر إليها بنفس الطريقة المزعجة :

ــ تدبرى الأمر لآخر مرة. فى وقت لاحق، فربما تغيرين رأيك،

قبل أن تنقضى حذاءك أخيراً ونهائياً من تراب ديتزبرى.

ـ نعم، يا أيها الحبيب.

قالت صوفى وهى تبتسم متراجعة بخفة نحو مكتبها، الصغير الضيق. إلا أنه خاص منعزل ذو باب، تستطيع أن تصرعه دون موظفى شركة بالأيت آند صن.

ـ كيت سوف تزورنا بعد العشاء.

أعلن ذلك الدكتور غوردون، بينما تحتشد العائلة حول المائدة فى وقت لاحق فى نفس اليوم مساء، وقال:

ـ أعتقد أننا سوف نقلب الرأى وندرس بعض الخطط القليلة لترتيبها عقد القران.

تلقى مانيو غوردون، الضخم الداكن الذى يشبه أباه، صن طعامه باهتمام قائلاً:

ـ بيف بالزيتون.

أما مارك، الذى كان عبارة عن نسخة كاربونية من أخيه، فقد أطلق صفيراً عالى الصوت.

ـ هذا الطهو لمسة من لمسات المطبخ الفرنسى فى إعداده للطعام. هل هذا للمناسبات الخاصة؟

تذوقت صوفى طعامها بحرص وهى ترد:

ـ كلا، لقد عدت أدراجى إلى البيت مبكراً، قررت أن أعد طعاماً مختلفاً. لقد جاء اليوم كثيراً بعض الشىء.

ـ إنه جيد جداً. قال ذلك أبوها مؤكداً، ثم كشر عن ابتسامة.

ابتسمت صوفى ضاحكة، وكان الشقيقان التوأم متحمسين. لقد زودتها اقامتها المؤقتة فى فرنسا بحاسة تذوق الأشياء الغريبة، وتناولا طعامها بشهية. ففى رأى شقيقتهما، أنها لم يفعلا أى شىء آخر. وجه مانيو إليها سؤالاً:

ـ كل شىء معد بالطبع يا سيدى، من أجل الرحيل، وإذا قمت باعداد الحقائب لكى تأخذى شيئاً ترتديه، سوف أختفك.

امعن النظر دكتور غوردون فى وجه ابنته المرهق وقال:

ـ لقد كان يوماً حافلاً، يا حبيبتى؟

ـ حافلاً جداً. خلاف العمل اليومى المعتاد، كنت أحاول إيجاد سكرتيرة لتحل محل، وكل اللاتى تقدمن بطلبات ليس منهن واحدة واعدة حتى الآن.

شعرت صوفى بثباط همتها، متعجبة الآن لماذا كانت طموحة هكذا لتطهو مثل تلك الوجبة الدسمة، فى نفس الوقت الذى تنتهى فى كى ملابس شقيقتها التوأم. سألها مارك.

ـ كيف حال الكسندر، هل لا يزال يتوق شوقاً لديلفين؟ فقالت صوفى بإيجاز:

ـ كيف يتسنى لى أن أعرف؟

أبدى أبوها ملاحظة قائلاً:

ـ إن الكسندر ليس من النوع الذى يظهر مشاعره. للعالم الخارجى، على الرغم من أن كيت مسرورة بسبب احتفاظه بذلك على هذا النحو من الإتقان.

ثم رمق ابنيه بعين آمرة:

ـ على فكرة، تستطيعان أنتما الإثنان أن تغسلا الأوانى، حيث إن صوفى سوف تخرج مع لأوليان.

حررت صوفى أباها من وهم هذه الفكرة، وأطلقت العنان لنفسها للبعد عن وابل من السخرية المعتادة حول لأوليان، الذى لم يتمكن أبداً من كسب استحسان شقيقيها.

متجاهلة إياهما، ذهبت لتجالس أباها، تاركة القدور والأوعية للمساعدة الصاخبة التى سيقوم بها التوأم، بينما هى تقوقعت فى أحد

أركان الكنبة لتشاهد الأخبار. تفكرت فى تزين نفسها بفتور، ثم قررت عدم القيام بذلك، حينما علمت أن العمة كيت من المحتمل أن تدس أنفها فى شؤنها الخاصة، ثم سرعان ما خارت قواها.

تساءل الدكتور غوردون:

ـ هل ثمة شيء يزعجك يا حبيبتى ؟

ابتسمت صوفى وهى غائبة عن الوعى، وعيناها على الشاشة، قالت :

ـ لا يا أبى، أنا بخير.

ثم التفتت لتنظر إليه، قالت :

ـ سوف أغادر لألقى نظرة على البيت الصغير يوم السبت، وبما أن يوم الأحد هو اليوم الذى أقضيه عند جدتى، والتوأم سيكونان قد حلا آنذاك، فقد قررت أن أمضى الليلة فى غريناكر.

نظر نحو الباب، بينما كان الجرس يرن وقال :

ـ لا مانع يا حبيبتى ، أعتقد أنها كيت وقد وصلت.

ـ سأذهب لأفتح الباب.

هتف مانيو من المطبخ، ودهشت صوفى حينما سمعت صوتاً مألوفاً يحييها لدى الباب. فهو كما يبدو الكسندر قد صمم على مصاحبة زوجة أبيه.

دخلت كيت الغرفة فعاجلها ديفيد غوردون بقبلة، وكانت تعبيرات عينيها تنم عن أسف لما عانق صوفى، قالت :

ـ أعلم أنك قد عانيت من ابنى طلية النهار، يا حبيبتى، لكن الكسندر تطوع بتوصيل إلى هنا. أن الطقس الليلة ضبابى.

مشى الكسندر الهوينى فى الغرفة، مبتسماً، يبدو مختلفاً عن المهندس المعمارى ذى الحلة التى زادته رزانة فى الصباح، وقد ارتدى قميصاً أصفر وبنطلوناً كاكي، جرى مارك ومانيو فى أعقابه كالمعتاد.

حيا الدكتور غوردون صوفى بأسلوب الرجل الواثق من الترحاب به.

أذعنت صوفى لحقيقة أنه يحاول أن يكون عادلاً، ولهذا فقد أحبه الجميع، وقالت فى نفسها بحسم، إن شقيقيها يحبانه أكثر مما تحبه هى بالطبع. فى الواقع لقد تعلق به مارك ومانيو من فورهما، وقد قررا سوياً فى انسجام أن يؤجلا رحيلهما إلى ادينبرج، متخلين عن شغفهما بذلك. أما صوفى فقد تراجعت فى الركن الذى كانت تحتله من الأريكة، بينما كان أبوها يصب المشروبات.

قالت كيت وقد أقبلت على صوفى تنضم بجانبها :

ـ أنت لا تعرفى ماذا تتصرفين مع هذين الولدين، يا صوفي. هل يملآن عليك حياتك ؟

اتفقت معها صوفى فى الرأى قائلة :

ـ نعم. منتهى السعادة. كيف يتناول هذان الولدان طعامهما ! إنى متأكدة أن تيم لم يلتهم تلك الكمية من الطعام عندما كان فى مثل سنهما. لقد أخبرك أى أن تيم قد كتب يقول كيف أنه لم كان مسروراً عندما علم بنبأ الزفاف ؟

طأطأت كيت رأسها، ونظرت بعينين متقدتين:

ـ لقد كنتم جميعاً ترحبون بهذا الزفاف.

ابتسمت صوفى ابتسامة شريرة، وقالت متعمدة :

ـ ولماذا لا نرحل به ؟ لن أفقد أبى، ما هنالك أننى سوف أكتسب زوجة أب محبوبة جداً، علاوة على شقيق آخر اضيفه لأشقائى نظر الكسندر بحدة وقال : عم كنتما تتحدثان ؟

ولما كررت كيت تعليق صوفى، بدا تعساً، قال بطريقة جافة: ـ أما أنا فأبدو وكأننى افقد كل شيء حولى ـ أولاً العروس، والآن السكرتيرة.

ضمت صوفى إليها ركبتها، وهى تود لو أنها كانت فى مكان آخر،

إلا أن مانيو قطع الصمت المثير للحرج، بتجاهله المرح المعتاد، للحاسية فى الموقف، اقل:

ـ لقد صدمنا الأنباء، يا الكسندر، فمن كان يعتقد أن ديلفين سوف تلعب حيلة قذرة مثل تلك ؟ يا لها من فاحشة بذيئة، سلنى عنها.

قال أبوه :

ـ ولكن، دعنا ننسى يا مانيو كل ما يتعلق بالحادث محل التساؤل ـ وأقدم لك اعتذارى يا الكسندر ـ وبدلاً من ذلك فلتتحدث عن كيت ونفسى.

قبض الكسندر على يده بحزم من فوره، وقال :

ـ هل لى باعتبارى كأحد أبنائك، وأحد الذين سوف يزفونك إلى عروسك أن أطلب منك طلباً واحداً، يا ديفيد ؟

أومأ الدكتور ديفيد برأسه ملاطفاً ومسايراً له، فقال الكسندر :

ـ هل نعتزم التمام حفل الزواج فى الكنيسة، أعرف أن ليس لى شأن بذلك، بطبيعة الحال، غير أننى متأكد بأننى أتحدث نيابة عن كيت كما أتحدث تماماً عن نفسى، حينما أقول بأننى لا أظننى قادراً على مواجهة جلسة أخرى فى مكتب ديترارى لعقود الزواج.

كان ثمة ضحك متعاطف ووجد انى حينما أكد له ديفيد غوردون أن الزفاف سيكون فعلياً هادئاً، حيث سيكون مدعواً فقط العائلة وواحد أو اثنان من الأصدقاء، ولكنه سيعقد بالتحديد فى الكنيسة.

قالت صوفى بعد ذلك ببضع دقائق، ريثما كان الرجلا منهمكين فى المناقشة :

ـ أيتها العمة كيت، هل سوف تدعين جدتى على القرآن ؟

نظرت كيت وقد أخذتها الدهشة والمفاجأة :

ـ بالطبع، يا حبيبتى. لماذا ؟ هل تحسين أنها لن تأتى ؟

ـ كلا. كلا، فإنى على يقين من أنها ستكون مبتهجة. كل ما هنالك أنى ظننت أنك ربما لا ترحبين بالفكرة.

ربتت كيت على يدها قائلة :

ـ لن أستغنى عنها ولو استغنيت عن العالم كله من زجلها. بمقدورك أن تخبريها بذلك فى نهاية الأسبوع وبأن دعوة رسمية سوف تصل إليها بمجرد أن أحصل على الدعوات المطبوعة.

انظم الكسندر إليهما، جاعلاً كيت تتحرك كى يستطيع أن يدق نفسه كالوتد بينها وبين صوفى، قائلاً :

ـ ما الذى تتهامسان بشأنه أنتما الأثنان ؟ وزردف :

هل هى أسرار نسائية ؟

تراجعت صوفى على قدر ما أمكنها الاستطاعه، غير أن الكسندر أحنى ذراعها منتزعاً، حتى أنها وقعت فى شرك، قالت:

ـ لا، كنا نتسامر عن جدتى.

ـ آه، سيسل المقدسة.

قال ذلك واضعاً ذراعه على طول ظهر الأريكة، وأضاف :

ـ لقد كان لها مكالمة هاتفية معى بين المكالمات العديدة التى تلقيتها هذا المساء فى أعقاب انصرافك، يا صوفى.

عبست صوفى فى وجهه وقد أصابتها المفاجأة.

ـ جدتى اتصلت بك هاتفياً ؟ هل كانت المكالمة للعمل أم التسامر ؟

ـ قليلاً من كليهما. لقد طلبت منى أن أتفقد البيت الصغير فى أرليسفورد قبل أن تنزحى إلى هناك، وطبعاً أنا وافقت على ذلك. فأنا لا أجروء أن أفعل العكس !

ضحك الكسندر وهو يحدق فى عين صوفى المذهولتين، وحرك ذراعه ليمسك ويستأثر بكتفها برشاقة :

ـ قالت إنك قررتى الذهاب لترى المكان يوم السبت، واقترحت أن أصاحبك لكى أشرف عليه، وأنظر ما إذا كان هناك عفن جاف أو رطوبة. ولذلك فإن المسح عبارة عن العمل، أما التسامر فهو مصاحبتك إلى هناك.

غيرت صوفى من جلستها، فقد أدركت أن التوأم كانا قلقين كثيراً بشأن موقع ذراع الكسندر، قائلة :

ـ هل أنت متيقن من أن يوم السبت ملائم ؟ يبدو الأمر وكأنه من الظلم أن نجوز على أجازتك الأسبوعية.

ـ كلا، البتة، ليس هناك ما أفعله، مفضلاً إياه على غيره.

قال الدكتور غوردون :

ـ أشعر الآن بالراحة. طالما أن صوفى قد علقت قلبها على المعيشة فى هذا البيت الصغير الخال من الإمتاع، وسأكون سعيداً أن أعرف أن المكان مناسب لسكنى البشر.

دق جرس التليفون، فانطلق مارك ليجيب، وعاد ليقول أن لأوليان على الخط يريد مخاطبة صوفى. فهرعت تزحف بعجلة شاكرة وسعيدة بهروبها من الركن الذى كانت محجوزة به. وبعد أن أنصتت بصبر وليضع دقائق لاعتذارات لأوليان واقتراحاته بترتيب سهرة يخرجون فيها معاً فى ليلة أخرى، عادت لتكتشف أن شقيقها قد خرجا لوسط المدينه لمقابلة الأصدقاء، وفى غضون غيابهما، منح الكسندر للعروسين، بيت شانترى، وهو البيت الذى خلفه له أبوه، والذى تشاركه المعيشة فيه حالياً كيت.

نظرت صوفى إليه مندهشة، ومدركة تماماً أنه كان ينوى المعيشة هناك فى شانترى مع ديلفين. وكانت خطة كيت الأصلية هى النزول بصحبة شقيقتها الأرملة، حينما يتزوج الكسندر، ولكن تحت ظل الظروف الجديدة فقد مكثت فى بيت شانترى.

nooran

ابتسم الكسندر قائلاً :

ـ إنه قرار ارتجالى عفو اللحظة، وكنت قد أعطيت فرصة الإختيار بشأن البيت الذى كنت أضع عينى عليه فترة خلت، ولذلك فأننى أظن أن ديفيد بمقدوره أن يأخذ الشانترى ليعيش فيه مع كيت.

استحوذت كيت على يد صوفى فى يديها، قالت :

ـ لقد كان ديفيد وأنا نفكر مليا أين نعيش منذ أن قررنا الزواج. وحتى على الرغم من أن أياً منكم لن يعيش معنا بصفة دائمة، أحب مع هذا أن يكون البيت مكاناً يمتلك فيه كل منكم غرفة بوسعه أن يطلق عليها غرفته الخاصة. بما فى ذلك تيم حينما يعمل من خراف استراليا. إن الحل الذى قدمه الكسندر يبدو تاماً.

زوماً دكتور غوردون برأسه متحمساً وقال :

ـ سوف أعرض هذا البيت للبيع فى السوق فوراً، ثم أقرر بينى أنا وبينك مقدار المال الذى سوف تعوض به الكسندر حتى لا يكون خاسراً فى الصفقة.

نظرت صوفى إلى الكسندر بفضول، قائلة :

ـ أين المنزل الذى سوف تعيش فيه ؟

ـ أوه، ألم أخبرك ؟ إن رئيسك المستقبلى كان مشغولاً للغاية نيابة عنى. لقد استخلص منزلاً فى برادينغ لى، وفى نفس الوقت وجد وعثر على مقر المكتب الملائم، الذى كنت أسعى إليه للشركة.

شعرت صوفى بالغيظ. فهذه هى المرة الأولى التى تسمع فيها عن هذا الموضوع، قالت :

ـ يا لك من محظوظ. هل المقر واسع ؟

ـ أصغر طفيفاً من مكاتب دينزبرى، ولكنه أكثر مما هو كاف.

تساءل الدكتور غوردون باهتمام :

ـ ماذا عن حيثياتك عن برادينغ ؟

www.liilas.com

ـ يقع المنزل عند غاية شارع شينيس. ولقد كنت قد وضعت الخطة الأصلية للحصول عليه منذ سنوات درجت، وقت أن كان أبى على قيد الحياة. إذ تقع واجهته على النهر، وهو منعزل وخاص، الأمر الذى أبتغيه.

توقف الكسندر، مبتسماً بينما نظرت كيت باهتمام مفاجىء بخيط يتدلى من الكم الخاص بها.

ـ بيد أن مقر المكتب ليس فى برادينغ على أية حال يا صوفى. لقد انتزع سام لأيفورد مقراً آخر فى شارع شيب فى أرليسفورد.

ـ أرليسفورد!

نظرت صوفى لابتسامة الكسندر الظريفة إلى كيت ذات الوجه المرتبك.

ـ هل كنت تعلمين شيئاً من هذا أيتها العمة كيت؟

ـ لا شيء حتى الليلة.

وهنا أبلغهما الكسندر أن سام لأيفورد قد اتصل به هاتفياً قبيل مغادرته للمكتب. إذ أن بعض مقار المكاتب كانت قد وقعت فى حوزته، وطالما أنها تقع مباشرة فى المركز التجارى لمدينة أرليسفورد، فقد أقترح ناصحاً أن نختطفها كلها من فورنا.

تساءلت صوفى ببرود:

ـ وماذا عن البيت الذى يقع فى برادينغ؟ هل هو قد عرض للبيع فى السوق اليوم أيضاً؟

كلا، ليس بالضبط. لقد ذهبت إلى لأيفورد منذ وقت سابق فى الواقع. وهم ألمحوا لى بأن «ويلو رتريش» سوف يعرض للبيع وظننت أننى سوف أضرب عصفورين بحجر واحد، وأفحص صاحب العمل الذى ستعملين عنده فى المستقبل فى نفس الوقت ـ حتى أتأكد من أنه شخص مناسب لك كى تعمل معه.

أثار هذا سخط صوفى الشديد، حيث لم تلحظ حتى الموعد الذى أخذ فيه أبوها كيت ليخرجا من الغرفة. وثبت ناهضة، وعيناها تتقدان، وقد أشعل حنقها ظنها أن حياتها الجديدة فى أوليسفورد تشبه تواجداها فى بيتها القديم من حيث افتقادها للحرية، كما كانت تخيل.

جاهدت صوفى نفسها وهى تحاول كبت الدموع من شدة الإنفعال، ونشجت:

ـ كم كنت مشغولاً يا الكسندر، بالتدخل المباشر فى حياتى! الخاصة؟

وضعت أحد يديها على عينيها وقد فرغ صبرها، قالت:

ـ سمعت جدتى عن البيت الصغير ـ الذى هو رائع، كما سوف، بل إنها حتى لم تستطع أن تدعنى أبحث عن وظيفتى الجديدة. فضلاً عن ذلك، هى تجدك من أجل أن تذهب معى إلى البيت الصغير، بينما أنت يا الكسندر بالأبت، قد ارتكبت وقاحة حين كلفت نفسك بأن تستقصى بالفحص أصل ومحتد سام لأيفورد، وتجنب ذكر المصادفة العجيبة فى أن تجد مقراً لك فى نفس المدينة التى أنوى المقام فيها. كانت هناك مقار أخرى يا الكسندر، فأنا أكتب الخطابات لك، فتذكر هذا، وليرى أيضاً، فقد كان بوسعك أن تجد مقراً فى غلوستر ـ

ـ هناك مناقشة قاتلة لنا.

ـ أو فى مدينة بريستول.

ـ المقر غالى جداً هناك.

لمعت عينا صوفى لمعاناً ينم عن خطر، وصاحت:

ـ لقد فهمت. يتعين أن يكون المقر فى أرليسفورد.

ـ أقسم لك أنها كانت مجرد مصادفة يا صوفى.

اقترب منها الكسندر أكثر فأكثر، إلا أنها ابتعدت، واتقدت عيناها.

ـ حتى أبى، لديه فكرة مجنونة فى تزويجى لـ لأوليان بريت !

توقفت وهى تنشج بغضب، وأردفت :

ـ ربما لم تكن فكرة مجنونة، إن لأوليان، على الإقل، لا يحاول أن يدير حياتى لى.

هتلك أسود وجه الكسندر، وأعرب :

ـ ليس من أحد يحاول أن يدير حياتك، يا صوفى. نحن فحسب نريد أن نعتنى بك، هذا كل ما فى الأمر ـ أن نشملك بعطفنا وعيوننا.

ـ أوه، نعم ؟ وإذا كان الجميع قد شرعوا يخططون، وأنت تعيش فى سعادة الآن مع ديلفين بعد زواجك منها، فهل كنت شخصياً، ستبقى تواقاً بهذه الدرجة لكى تشملنى بعينيك ؟ أوليس هذا الإندفاع فى المشاعر الفجائية ينبع عن أنك قد رمتك إمرأة، وشاءت الظروف أن أكون على مقربة منك، كهدف ملائم كى تعالج به الجرح الذى أصاب ذاتك ؟

كان الكسندر يقف واضعاً يديه فى جيوبه، إلا أنه انتزعهما بسرعة وقبض على كتفيها، دافعاً إياها نحو المرآة ليقف على مقربة خلفها حتى يستطيع رؤية انفعالاتها وانعكاسات صورتهما معاً الكسندر بشعره الكثيف الجميل منسدلاً على رأسه، وعيناه تلمعان كمبنى النمر بين رموشه الكثيفة الداكنة، وتدبرت صوفى صورتها بوحشية وغم. شعرها مثل عش الطائر، وعيناها متورمتان، وأنفها أحمر، مرتدية بذوق حسن، قميصاً رياضياً منكمشاً يتسمى لأحد شقيقيها.

قال الكسندر فى صوت خفيض بارد :

ـ إذا كانت مسألة اشباع بدنى عابر كهدف وحيد لى، ألا تحسين

يا صوفى غوردون أننى كنت أختار سيدة تافهة تناسب الغرض ـ من وجهة النظر هذه ؟!

وقعت الكلمات عليها كصاعقة باردة، جففت من دموعها كالسحر ثم تخلصت من يديه منتزعة نفسها منهما، وقالت :

ـ يا لى من غبية. أنت على حق، طبعاً أنا بلهاء تماماً.

نزح الكسندر إزاءها، غير ان صوفى أجفلت مبتعدة.

ـ لا تقترب، قالت ذلك بحدة، فتراجع الكسندر، بينما تحول وجهه إلى خطوط كالحة ضاربة، فقال بالحاح.

ـ لقد أساءت الظروف منك فهم المعنى.

ثم همس بينه وبين نفسه لاحقاً حينما جاءت كيت يصطحبها الدكتور غوردون. قالت بابتهاج.

ـ هل فرغتما من العراك يا هذان، لقد صنعت الشاى.

تمكنت صوفى من الابتسام بجهد هائل جهيد، مدركة فى ذات الوقت أن رأسها يثاقل، قالت :

ـ هل لى أن التمس منكم جميعاً أن تعذرونى ؟ أنا لا أشعر بأنى على ما يرام ـ ربما كان السبب فى ذلك النوم.

بلعت ريقها بصعوبة، وأخرجت أنيناً مكظوماً، وهرعت إلى أعلى الدرج، لتتناول بعض الطعام بمفردها، ثم جردت جسدها المرتعش من ملابسها، ودلجت زاحفة إلى الفراش، كالحيوان الصغير الذى يختبىء داخلاً عشه طلباً للمأوى والحماية.

الفصل الرابع

قوة الإرادة وحدها هى التى أجبرت صوفى على النهوض من الفراش فى اليوم التالى لتواجه أباها على مائدة الإفطار. قال الدكتور غوردون، وقد أمسك يدها يجس نبضها:

ـ أنت تبدين كما لو كنت مريضة، دعينى أرى لسانك.

أخرجت صوفى لسانها مطيعة، فالقى عليه الدكتور غوردون نظرة واحدة، وطلب منها ان تعيده ورد لها يدها.

ـ دعينى أتصل هاتفياً بالكسندر لأخبره بأنك لست مستعدة للحضور اليوم.

تاقت صوفى إلى أن تستسلم وتذعن لمثل هذا الإغراء، غير أنها ثبتت بحزم. وقالت وهى ترتجف:

ـ لا يا أبى. هذا كثير. على أية حال، السبب هو طعام الأمس. تومة.

بدا الدكتور غوردون وقد ساورته الشكوك، وأعرب:

ـ لقد استطاع الباقون أن يهضموا الطعام سالمين. وكانت كيت قلقة عليك. إذا صعدت لتلقى نظرة عليك قبل أن أوصلها بالسيارة إلى بيتها لكنها قالت إنك كنت نائمة.

كانت صوفى ترقد خائرة العزم، غير ناعسة بدلاً من أن تقول

هكذا، طرقت موضوعاً آخر أكثر تشوقاً، تساءلت:

ـ لماذا أوصلتها بسيارتك إلى بيتها؟

ابتسم غوردون فى وجه أبته السقيمة، وقال:

ـ لقد انصرف الكسندر فور توجهك للفراش. وادعى أن لديه بعض الأعمال سينجزها، ولهذا طلبت من كيت أن تمكث هنيهة. لابد وأن تكون مشاجرة قد ثارت بينكما، طالما أنك اندفعت لتلقى بنفسك على الفراش، وانطلق الكسندر إلى مرسامه الهندسى. تماماً مثلما كانت الأمور فى الماضى، حينما كنتما تتشاجران بسبب أى شىء. لقد كنت أعتقد أنكما تجاوزتما تلك المرحلة منذ زمان بعيد.

احتست صوفى فنجان الشاى بتعطش، قائلة:

ـ إن الكسندر يتصور أن له بعض الحق فى التدخل فى حياتى. ويعتقد أن دوره هو دور الشقيق الأكبر، وليس الأخ غير الشقيق.

نهض الدكتور غوردون، وهو يربت على رأسها قبيل التقاطه للحقيبة الطبية، وقال:

ـ حينما كنتما معاً على الأريكة الليلة الماضية، تلقيت انطباعاً جلياً أن الكسندر لا يرى نفسه شقيقاً لك البتة فى ضوء تصرفاته. ولا تبرقى بعينيك هاتين فى، يا حبيبتى، أيتها الأثيرة. فما أنا إلا أب مسكين ساهر على محاولة تربيتك يا ابنتى على أفضل نحو استطيعه.

كشرت صوفى عن ابتسامة على هذه العواطف الكاذبة المكشوفة.

ـ أوه. اذهب واكشف على أى مريض آخر لتسعفه. فأنا بخير، أو سوف أكون بخير بعد أن أحتسى غالوناً من الشاى.

دهشت صوفى عندما وجدت نفسها على صواب، إذ أنها

بمرور الوقت على شربها الشاى كله، شعرت وكأنه أستعادت عافيتها لكى تتعامل مع هيئتها وتزين نفسها، وهى بعد قد أنجزت نتيجة مشرفه باستخدام المزيد من الروج وظلال العيون، بالإضافة إلى ارتدائها قميصاً حريراً بلون الكريم والقشدة مقلماً بخيوط سوداء، ورباط الرقبة فراشى الشكل ذى اللون الأسود المصنوع من الساتان، مثبتاً تحت ياقة القميص. وكانت ترتدى ذلك مع بلوزتها السوداء الأنيقة العادية، والحذاء النحيل العقب. وكان التأثير كافياً ومبهجاً. غير أن ذلك كله لم ينفع فى إزالة الشعور الذى غاص فى معدتها، عند تذكرها بأنها سوف تواجه الكسندر.

حيث شعرت صوفى بأن كليهما لم يخرج من مواجهة الليلة السالفة وقد أحسن وفادة الآخر وكرم اللقاء، وتمنت من كل قلبها لو أنها نبذت وظيفتها فى النو واللحظة، بدلاً من الوقوف بوعدها فى تدريب السكرتيرة التى سوف تحل محلها.

بمرور الوقت وصلت إلى مقر شركة بالأيت آند صن فى ميدان السوق وقد جاهدت صوفى نفسها لكى تكون فى حالة عصبيه غير مسبوقة، حيث وجدت أن الكسندر لم يكن، كما هى عادته ونعوده، على مكتبه قبيل وصولها. وبدلاً منه، نادى بيرى عليهامن مكتبه الخصوصى، وهو الأمر غير العتاد. فالمواظبة على المواعيد الصباحية لم تكن نقطة من النقاط القوية لدى بيري. أعلنها قائلاً :

ــ لقد أخبرنى الكسندر أن أذكرك بأنه فى المحكمة طيلة النهار اليوم. بدا على وجهه القلق حينما احدق فيها عن قرب بتفرس وقال :

ــ أقول، يا صوفى، هل تشعرين بأنك على غير ما يرام، يا حبيبتى؟

قالت صوفى بإيجاز :

ــ ارتباك فى المعدة.

وقد اهتاجها الفرح أن الكسندر قد توجه مباشرة إلى المحكمة بدلاً من المجىء أولاً إلى المكتب كما كان يفعل عادة. وشعرت بتحسن فى النو، وانصرفت للعمل شاكرة فى بريد اليوم مع بيرى بدلاً من الكسندر. كان غذاؤها عبارة عن فنجان من الشاى تناولته بمفردها فى مكتبها، أثناء جلوسها مجردة لا تعمل شيئاً البتة حتى مضت ساعة غذائها، أنفقت معظمها فى مقاومة الفكرة الملحة ودافع أن تطبع استفالتها على الآلة الكاتبة، وتنبذها على مكتب الكسندر، وألا تطأ بابه مرة ثانية أبداً. حسبت صوفى أن هذه الحركة ستكون غير عملية برمتها، مادامت سوف تجمعها عما قريب صلات زواج والديهما، مهما كانت واهية تلك الصلات. اشتعلت بهمة فى ساعة النهار، وقد استراحت عندما تذكرت فرصة الأجازة الصباحية فى اليوم التالى، حيث تودع شقيقيها فى رحلتهما إلى اذنبرغ. وكانت تتشاق إلى فترة تنفس تلتقط فيها أنفاسها قبيل مجابهة الكسندر مرة ثانية، حينما صارحها بوضوح شفافيه أن أى نوايا غرامية من جانبه، كانت عبارة عن نتاج خيالها الخاص، كانت تصاب فيها بالسقم والإعياء وتستشعر البرودة.

شعرت صوفى بالراحة حينما عادت إلى البيت، ووجدت أن شقيقيها قد قاما بتنظيم وإعداد وليمة الوداع الخاصة بهما، فى هيئة أطباق كثيرة ومتنوعة من المطعم الهندى للوجبات الجاهزة بالمدينة، فلم يتأخر أى من الولدين فى تبديد شطر من منغصات حياة أختهما سريعة الانفعال. وعندما قرارا الخروج للمشاركة فى آخر احتفال تباتى صاخب ومخمور لهما فى حانة المدينة، عملت صوفى بنصيحة أيها وذهبت إلى الفراش مبكراً، بعد تناولها عشاء مكوناً من الشاى وشطائر الخبز المحمص واستيقظت فى اليوم التالى فى حالة طيبة لكى تواجة فوضى الدقيقة الأخيرة المسعورة شديدة الاهتياج، بينما كان

شقيقاها الثائران بحملان العربة المقفلة المستعدة لنقلها إلى مباهج الأسبوع الأول للطلبة الجدد فى جامعة ادينبرغ. استشعرت صوفى غصة حادة حينما انطلقت عجلات العربة القديمة اخيراً الى جهة الطريق، آخذه شقيقيها الصغيرين فى اول مرحلة من مراحل الرجولة والبلوغ. وكانت مغتبطة لما شملها أبوها بذراعه وقتما رجعا أدراجها إلى البيت.

قال الدكتور غوردون بصوت أجش :ـ

ـ سوف نفتقدهما.

ضحكت صوفى مرحة، وقالت :

ـ ولكن، ثمة قليل، وأقل القليل من القمصان والأطباق كى أغسلها!

ولما وصلت صوفى إلى المكتب عقب الغداء، كان الكسندر متواجداً هناك قبلاً، ولكنه كان مشغولاً فى انتباهه إلى العمل حتى أنه لم يتنبه إلى سكرتيرته. فقد كان البناؤن يدخلون ويخرجون من المكتب طيلة الظهيرة، حيث تعامل مع قائمة منهم، يدرس متفحصاً بنظام أى منهم الأكثر ملائمة ومناسبة ليتقدم بعطاء من أجل تشييد محل أو مخزن كبير على ضواحى المدينة.

لما كان الكسندر مشغولاً حتى أذنيه، استغلت صوفى تلك الفرصة لكتابة خطابات للأربع سكرتيرات الواعدات المتقدمات ليشغلن الوظيفة التى ستتركها، طالبة من السيدات المختارات الحضور للمقابلة الشخصية فى الأسبوع التالى. وقد اضطرت لمقاطعة الكسندر مرة لتجمع مذكراته اليومية، وكى تتأكد أى يوم هو الأفضل، ولكنه عرف بالكاد ويشق النفس مهمة اعتذارها بحرص، وانسحبت صوفى بسرعة، أكثر اغتناماً بأن تحجب وجهها عنه قدر الإمكان. وعندما حان وقت انصرافها، كان الكسندر لا يزال متورطاً

مع آخر البنائين، فمكثت تنتظر هنيهة، ممتنعة عن مقاطعته ثانية. أخيراً، وحتى برغم أن اليوم الجمعة مساء، فقد خلصت إلى أن تسلك المسلك غير المعتاد، وتتصرف بدون إعلام الكسندر، فقالت ليبرى، طاب مساؤك، وغادرت المكتب شارعة فى أجازة نهاية الأسبوع، وتنهدت تنهيدة راحة.

استيقظت صوفى فى اليوم التالى على صوت أجراس متكررة للباب ترد، فأنعمت النظر فى ساعة الحائط، بعينين غائمتين، لتكتشف أن الساعة الثامنة والنصف، وهو الأمر الذى يعنى أن أباها قد انصرف سلفاً من أجل إجراء عملية صباح السبت الجراحية. ارتدت الروب دوشامبر وهى تسحبه على بيجامتها متثاقبة، ونزلت أسفل الدرج، متوقعة أن تجابه رجل البريد. انفتح فمها دهشة عندما وجدت الكسندر على الباب مبتسماً لها، أثناء اندفاعه للولوج إلى المكان بنشاط ونشاط. وقد بدا متعافياً متمتعاً بالحيوية، مما أوقع على نفسها الكآبة، وهو بعد يرتدى حلة سوداء وحذاء العدو، بينما كان شعره قد تجعد متغضناً مكيلاً من جراء العدو الصباحى الذى يمارسه يومياً. قال بابتهاج.

ـ صباح الخير يا صوفى. ظننت أن من الأفضل أن أسألك عن الموعد الذى تريدين فيه الشروع فى زيارة أرليسفورد.

شعرت صوفى بأنها قاتلة. فلملمت الروب دوشامبر متلحفة به حول نفسها، مدركة للمشهد غير المألوف الذى تمثله وقد ساءها ذلك، وقالت بحدة :

ـ سوف أشرع فى الزيارة بمفردى.

ـ لا تكونى بلهاء. لقد أخبرنى سيسل بأن اصطحبك، ولذلك فأنا سوف أصطحبك.

ابتسم ابتسامة حنونة، كما لو كانت هى طفلة نكدة شكسة.

وأردف:

ـ أنت لم تعودى حانقة علىّ، أليس كذلك يا صوفى ؟ هيا اصعدى، يالك من فتاة طيبة. سوف أعود الكرة فى غضون الساعة.

أطلق الكسندر ساقيه للريح، قبل أن تستطيع صوفى أن تنطق باعتراضاتها، متوجهاً إلى بيته بمعدل خطو سريع لم تحتمل رؤيته.

صرعت الباب بنزق وصعدت أعلى الدرج لتأخذ حماماً، شاجبة، ليس للمرة الأولى فى الأونة الأخيرة، أساليب جدتها الحيية الأوتوقراطيه، مقتنعة أن أقصى شيء فى العالم يريد الكسندر فعلاً أن يفعله هو تمضية الوقت بتسكع هباء فى بيت صغير عتيق بارد فى أجازة السبت.

على أى، كانت صوفى جاهزة ومنتظرة عندما توقفت سيارة الكسندر المرسيدس الكمشونة عند أحد المواقف خارج البوابة تماماً بعد ساعة من الزمن. عند ذلك الوقت شعرت بأكثر أشكال هدوءاً ورباطة للجأش، نظراً لحقيقة أن شعرها كان بريقاً، ومحياها متزيناً بعناية فائقة، ليبدو كما تريد له الطبيعة أن يظهر، مرتدية البنطلون البنى الأثير لديها، والقميص الصوف الناصع البياض كالقشدة، والسترة الموهير بلون المشمش، مسترسلاً بحرية على كتفيها طلق الكمين. وتعمدت، ليس من أجل أن تدفع الكسندر إلى التفكير بأنها متلهفة للغاية، أن تختبأ فى غرفة نومها، تاركة إياه يرن جرس الباب مرتين قبل النزول أسفل الدرج، لتسمح له بالدخول. كانت تحيتها له مهذبة باردة، حينما سألته إذا كان لديه مانع أن يحتسى القهوة قبل الرحيل.

كان الكسندر يرتدى بنطلوناً قطنياً قديماً تشبث على نحو عجيب بساقيه الطويلتين، وقميصاً مماثلاً لقميص صوفى، وجاكيتاً مصنوعاً من الصوف وقد تعلق على كتفيه. واقفاً بحماس، جالساً على كرسى

بلا ظهر أو ذراعين فى المطبخ، فى حين أعدت هى قهوة فورية سريعة فى أباريق خزفية صفراء. قال، مبتدراً إياها:

ـ أنا آسف لما حدث فى الليلة الماضية، يا صوفى. أعتقد أنك أسأتى الفهم كلية لما قلته.

ـ أنا لا أتذكر ما قلته. كل ما هنالك أننى لم أكن على ما يرام. حيث اربكتنى وجبة الطعام فى الهضم.

كانت ابتسامة الكسندر مسترضية وهو يقول:

ـ كنت أخشى أن تكون الأنباء عن المقر الجديد هى المذنب الحقيقى. أعدك يا صوفى، بأنه صحيح أنها كانت مجرد صدفة عثور سام لايفورد على المكان المثالى فى أرليسفورد. فلست أحاول أن أثنى عنقك، وهذه الفكرة لا تفتقد إلى التبرير.

عبست صوفى فى وجهه بينما كانت تعالج القهوة، قائلة:

ـ أنعشم ألا تقول أشياء من هذا القبيل يا الكسندر. فأنت لم تتعود على ذلك. لقد كنت أحب منك معاملتك لى كقطعة من الأثاث.

هز الكسندر رأسه مستنكراً قال:

ـ هل فعلت ؟ لا عجب أنك لا ترغبين فى العمل معى بعد الآن!

ـ أنت تعلم أن هذا ليس هو السبب.

قالت ذلك ساخطة، وأضافت:

ـ أريد فحسب تغييراً. إن المسألة ليست شخصية.

إذن طالما أن المسألة شخصية، يا صديقتى الصغيرة، فيم اعتراضك على مشاهدة ورؤية شيء يتعلق بى اجتماعياً ؟

ارتسم وجه الكسندر الوسيم تعبيراً ينم عن هذا المنطق الودى، أما صوفى فقد تخلت عن التحفظ قليلاً. قالت بحرص:

ـ حسناً، ليس هناك اعتراض، على ما اعتقد. فإذا كان هذا هو كل ما فى رأسك، فالمسألة بسيطة.

ـ حسناً.

قفز الكسندر من الكرسى، وأخذها بين يديه قائلاً :

ـ هيا بنا، إذن، دعينا ننطلق.

كان الجو مشبعاً بنكهة فصل الخريف، وكانت الأوراق على الأشجار تبدأ لونها فى السقوط على الشوارع الفرعية التى أضاءتها أضواء الشمس، والتى انتخبها الكسندر، مفضلاً إياها على الشارع الرئيسى المزدحم، الذى يربط أوليسفورد بدبتزيرى.

استرخت صوفى فى السيارة الفخمة، غير كارهة البته رحلة تتمتع فيها بمثل هذه الراحة، على نحو أفضل من الأتوبيس، الذى كان يتعين عليها أن تركبه ما لم تكن المرسيدس موجودة.

وسرعان ما تبدد آثار الإرتباك الذى استشعرته من جراء الاتجاه الواقعى لالكسندر حينما قدر حسنات وفضائل صاحبات طلبات العمل كسكرتيرات اللاتى حشدتهن صوفى للمقابلة فى الأسبوع المقبل، ثم طرق إلى مناقشة احتمال كسب عملية تصميم فندق كبير فخم يشرف على النهر فى مدينة برادبنغ. تساءلت صوفى.

ـ هل من المحتمل أن يرسو عليك، هل تظن أنك ستفوز بها ؟ إن المنافسة ستكون قاسية.

كان الكسندر متفائلاً. لقد استطاع بضربة حظ أن يحصل على رخصة التخطيط التمهيدى، لمالك الأرض أساساً، وهى التى أعطته فكرة متى باع المالك الأرض لشركة الفنادق السلسلة التى لها عدد من الفنادق فى عدة بقاع. سأل صوفى :

ـ ألا يستهويك أن تلقى نظره على الموقع ؟ سيكون لدينا المزيد من الوقت للذهاب إلى البيت الصغير هذه الظهيرة.

وافقت صوفى بسعادة. مدينة برادبنغ عبارة عن بقعة جميلة حية لا تزيد عن كونها قريه كبيرة شاسعة تقع على ضفاف نهر آفون، وهى مشهورة جداً لدى الناس الذين يسافرون منها يومياً متوجهين إلى بريستول وباس وحتى إلى لندن. كان موقع الفندق عبارة عن بقعة ريفية لها حقوق الإشراف على ضفة الآفون على طول امتداد شاسع منه. وكن الكسندر السيارة بالقرب من مجموعه من أشجار الصفصاف التى تطل على منظر الماء المنساب فى دعة وهدوء، بينما يغلف المكان ضوء الشمس، وثمة مواشى ترعى على مراعى الماء الكائنة بعيداً على الناحية الأخرى من ضفة النهر.

ـ إن الفندق مخطط له أن يكون واحداً من تلك البقاع التى يوسعك أن تتركبها، من أجل قضاء شطر الوقت لاستعادة الصحة والوعى، أثناء أجازة نهاية الأسبوع. يحتوى على أحواض سباحة مائية داخلية، «جمنازيوم» مقر للألعاب الرياضية، أراضى ريفية طبيعية تشمل. فناءات للتنس، والحفاظ على الكثير من الأشجار الأصلية بقدر المستطاع.

لمعت عينا الكسندر عندما وجد أنه من المقدور أن يتخيل كل شيء يتخذ أشكاله ومواقعه على لوحة مرسامه الهندسى.

قالت صوفى مترددة :

ـ رومانتيكية رائعة.

ثم دفعها الفضول إلى أن تسأله قائلة :

ـ هل المنزل الذى ستشتريه قريب من هنا ؟ طأطأ الكسندر رأسه :

ـ هل تودين أن تريه ؟

بدت عيناه متسائلتين حينما كان ينظر إليها، أما ابتسامة صوفى رداً عليه فقد كانت ساخرة. فبادرها متسائلاً :

ـ ما هذا ؟

ـ كنت أتفكر فحسب كم أنت عطوف وحنون اليوم ! وافقها باعتداد قائلاً :

ـ نعم . أنا هكذا، ألست كذلك ؟

كانت صوفى تضحك بينما كان هو يقود السيارة، ناظراً باهتمام لدى انحراف السيارة إلى طريق لم يختره، قادها لمسافة ميل أو ما يقارب ذلك، بطول ضفة النهر، بدون رؤية البصر لأى منزل آخر، حتى انتهى عند حواجز عالية اكليلية، وبوابات خشبية مرتفعة.

ـ هذا هو «ويللو ريتش». قال ذلك الكسندر بنغمة توحى بأنه المالك. وعاون صوفى على الخروج من العربة، ثم حرك اجراس الحديدى حركة دائرية، وهو الجرس الذى يعمل كمقبض، فاتحاً احدى البوابات المرصعة بالمعدن لها لكى تدخل إلى احدى الحدائق التى حدقت فيها بتفرس بعينين مفتوحتين ابتهاجاً. كانت المرجات الخضراء الناعمة والحدود العشبية تقليدية بما فيه الكفاية، غير أن انتباهها قد جذبته على غير غرة طريق مكون من شجر الطقوس، وهو شجر دائم الخظرة من الفصيلة الصنوبرية، وقد تم تهذيبه فى أشكال خالية، اشتملت على عروش مأوم، وورد، وطيور، ودواب متوحشة من كل وصف، آخذه العين فى اتجاه حيوانات من الرخويات محفورة فى الحجر، فوق حوض سباحة صنعت حوافه من الرخام والمرمر.

قال المكسندر :

ـ إن الفسقية بحاجة إلى الاصلاح. ما رأيك فى بيتى الجديد ؟

انتزعت صوفى عينيها بعيداً عن الكهف، ووجهتها ملتفتة نحو المنزل، الذى صنع من الأحجار اللينة القديمة، على غرار تصميم سرمدى خالدى على نحو غريب غير مألوف.

لقد تم استخدام قطع زجاجية صغيرة لا حصر لها لصنع النوافذ

التى سيطرت على الحوائط الوردية اللون المصنوعة من الحجارة المصقولة، وفارندة تتعلق بها نبات الوستارية المعرش ذو الزهر العنقودى، الذى التف حول النصف الأدنى من البيت، ليشكل شرفة للغرف العليا.

قال الكسندر برقة :

ـ هذا كان أول منزل حدث لى أن قمت بتصميمه، قبيل مجيئك للعمل معا بفترة يا صوفى.

متحيرة. التفتت صوفى مستديرة من البيت إلى الحديقة، ثم عادت ثانية لتقول :

ـ إنه جميل تماماً، ولكن ـ إذا كنت قد صممته فإن المنزل جديد حتمياً، بطبيعة الحال، غير أنه لا يبدو من مظهره أنه حديث، ولا أستطيع أن أصدق أن الجو فى هذه الحديقة تم انجازه فى سنوات قلائل وجيزة.

قال الكسندر باستحسان :

ـ فتاة ماهرة. إن المنزل الأصلى هجر خاوياً لسنوات، ثم مات المالك، وهذا الجزء من الضيعة التى كان يمتلكها قد بيع من جانب الوريث. وقد استحوذ عليه أبى، وهدم بعضاً من المنزل، الذى كان أكبر كثيراً من هذا، إلا أنه احتفظ بكافة مواد البناء التى تستحق الإدخار، وعهد إلى بالعملية، ليس فحسب لتصميمه لينهض كطائر الفينيكس «العنقاء»، من أطلال البيت القديم، ولكن أيضاً لضمان أنه سوف ينسجم متآلفاً مع الحديقة على نحو متوافق سعيد، متى تم افتتاحه.

وعندما أتى بى أبى ههنا لأول مرة، توقعت تماماً أن أجد أميرة غارقة فى النوم فى مكان ما بوسط البيت !

تحولت صوفى حول المنزل، محدقه بعينيها عبر النوافذ فى الغرف

الخاوية، نصف المملوءة بالأثاث، والأرضيات الخشبية البراقة، وتساءلت:

ـ هل معك مفتاح يا الكسندر؟ هل نستطيع الدخول؟

كلا، أنا لم أوقع فعلياً العقد حتى الآن.

وأمضيا ساعة آمنة يستكشفان مباهج البستان ذى الحائط على الجانب الآخر من الكهف، حيث كانت هناك فواكه التفاح والأجاص «الكمثرى» قد نضجت على الأشجار المتعرشة، وكانت شمس فصل الخريف دافئة تلف المكان.

فيما بعد ذلك، تجولا متمهلين نحو حاجز الماء الصغير الخاص، حيث تحرك زورق تجديف مهدم بوهن جيئة رواحاً فى المستنقع. وجلسا على مقعد حجرى قديم، على مقربة من صف من أشجار الصفصاف الناعمة على حافة الماء، وراح الكسندر يشرح كيف حالفه الحظ، فى الليلة التى وجهت له الدعوه فيها على عشاء أعد كحفلة وداع للزوجين الذين كانا يعيشان فى المنزل.

ـ لقد باعاه فعلياً، وحشدوا متاعهم نازحين، وكانوا على وشك المغادرة للسفر إلى استراليا ليلحقا بأطفالهما، حينما فشل للبيع فى النهام.

ـ لذلك وثبت أنت لتشتريه.

ـ لم يكن بوسعى مقاومة الفرصة. فتوجهت إلى سام لايفرود بسرعة البرق، صدقينى حينما أخبرنى أنه يتولى إعادة البيع.

ـ متى سوف تنتزح إليه؟

ـ بقدر ما أستطيع من السرعة. ويعوزنى أساسيات كالستائر وبعض الأكلمة، وعلى أية حال، لقد استقرت نفسى على أننى سوف أنتظر حتى حلول حفل زفاف كيت وديفيد قبل أن أرتحل مغادراً الشانترى.

كانت صوفى غارقة فى تفكيرها للغاية عندما تراجعا عائدين إلى السيارة، وقد أخذتها الدهشة لاكتشافها أنها راغبة تقريباً فى هجر هدوء وسكينة البستان الخفى السحرى الحالم.

ـ إن هذا المكان بديع الجمال، فاتنة.

قالت ذلك بينما أغلق الكسندر البوابه الثقيلة، وأدار الجرس الحديدى العظيم حتى يؤمن المنزل.

قال الكسندر:

ـ إن هذا المكان هادىء لدرجة أن البعض لا يستطيع المقام فيه.

ـ أنتى تعنى ديلفين، أليس كذلك.

ـ هل تستطيعين تخيلها وقد احتجزت هنا بعيداً عن الدنيا؟

كانت نبرة الكسندر باعثة على السخرية، وأردف:

ـ لم تكن متحمسة للمعيشة فى هذا الصقع من الدنيا البتة.

لقد بذلت قصارى جهدى لتقنعنى بالمقام فى لندن، وحتى بالعمل فى احدى الشركات الدولية الكبرى. إن منزل «ويللو ريتش» لا يعنى شيئاً بالنسبة لإمرأة مثل ديلفين.

كانت صوفى متفقة اتفاقاً مطبقاً، غير قادرة على تصور ديلفين العصرية المتحررة فى ذلك البستان الحالم المنعزل، على كل فالعيون السلابة النهابة لم ترق أبداً، باستخفاف بجمال من القدر، المنزل الذى يمثل قرة عين الكسندر.

وعندما انطلقا ثانية، اقترح الكسندر أن يتناولا الغذاء فى إحدى الحانات الواقعة فى ضواحى مدينة أوليفورد حتى تعطيهما طاقة يستعينان بها على المهمة المقبلة.

قالت صوفى بارتياب:

ـ طائة، ما الذى أتوقع أن أقوم به؟

ـ أن تمسكى بالطرف الآخر من الشريط لافتتاح البيت الصغير،

لا أكثر.

أرشدها الكسندر إلى مقعدها فى مطعم مريح عبارة عن بار، حيث كان به موقد نار مشتعلة فى المصطل الواسع فلنسوى الشكل، بغض البصر عن سطوع الشمس خارجه.

طلبا لحوماً مطهوه على الطريقة المنزلية، وفطائر البطاطس، خالية من التوابل من أية نوع، إلا الأرغفة القشرية، والزبدة الطازجة.

ــ لا جدوى من السؤال عن اللحم المطهو بصلصة الفلفل الأحمر الحار أو المكرونة هنا. قال الكسندر وهما يشرعان فى تناول الوجبة بشهية، وأضافة.

ــ إن السيدة المالكة لهذا المنزل تصنع كل شيء بنفسها، وتؤمن بالطهو البسيط المنزل المعد بعناية وحب.

قالت صوفى بتوقير وفمها مليء الطعام :

ــ آمين. هذه هى أول وجبة طعام أتناولها خارج المنزل فى مطعم منذ الطعام المزعج الذى أعددته فى آخر مرة.

ــ الذى جعلك هكذا ذات نزوات وأفكار غريبة. أقترح عليكى ألا تطهى مثلها مرة ثانية أبداً.

قال ذلك الكسندر وهو يكشر عن ابتسامة لها عبر إبريق الجعة الخاص به.

ردت عليه الحجة، بينما كانت تخلع القفاز قائلة:

ــ بل أنت الذى أثرت غضبى، حين قلت إنى أبدو مخيفة مرعبة لا أجذب أنتباه أى رجل.

قال بانشداه :

ــ هل هذا هو ما اعتقدتى أننى أعنيه ؟ يا إلهى ! إنها إذن مشكلة سوء فهم طفيفة، أؤكد لك ذلك يا صوفى. كنت أعنى شيئاً مختلفاً تماماً.

قالت بصراحة :

ــ مهما كان هذا الشيء، لا أريد أن أعرفه. دعنا نحافظ على الصداقة، وأسدل ستاراً على يوم الأربعاء.

بدا الكسندر وكأنه على وشك أن يقول شيئاً، ثم هز كتفيه لا مبالاةً، وواصل تناول غدائه، متقنياً ومتبعاً أحاديث صوفى وهى تطرق موضوعات أكثر حياداً. وبعد ساعة من السرور أو ما يشارف الساعة، ذهبا إلى أليسفورد، حيث ركن الكسندر سيارته فى باحة السيارات الصغيرة، على مقربة من النهر، حريص على عدم المخاطرة بترك سيارته المحبوبة المرسيدس خارج بيت اليكس الصغير، حيث كانت هناك ممشاة ضيقة تفصل البيوت عن ساحة الكنيسة.

قال الكسندر وهما يرتقيان التل المشبع بالمياه قاصدين الكنيسة :

ــ تقول سجل إن الناس فى البيت المجاور لديهم مفتاح الحنفية، مما يوفر علينا القيادة إلى غريناكر أولاً. وبمقدورك أن تقابل جيرانك الجدد.

فضلت صوفى أن تفعل هذا بنفسها، وأصرت على الكسندر أن ينتظر على مسافة بعيدة بعض الشيء، وطرقت الباب الخاص بالبيت الصغير المحاذى.

كانت المرأة العجوز التى تناولتها المفتاح ودودة ومرحة جداً، وكذلك فضولة على نحو لا يخجلها بشأن الرجل الطويل الوسيم الذى ستنتظر عبر الطريق.

قالت متسائلة وهى تأمل أن يكون ذلك كذلك :

ــ هل هذا زوجك يا عزيزتى ؟

أنكرت صوفى بحزم قائلة :

ــ لا. أنه السيد بلأيت وقد أتى معى لتفقد البيت.

بصوت عال بما فيه الكفاية حتى يسمع الكسندر بوضوح، طالما

أن مدام بيركنيز قد اعترفت بأنها ضعيفة السمع قليلاً.

اعترض الكسندر، وهو يفتح باب بيت ايليكس الصغير قائلاً:

ـ كان بوسعك أن تقدميني لها، حتى وإنه كنت أعتبر نفسي غير أهل وغير جدير بأن أكون زوجاً لك.

ـ الموضوع لا يحتمل كل هذا. فمن غير المحتمل أن تتقابل مع مدام بيركنيز ثانية.

كانت النظرة التي تلقتها صوفي من الكسندر غريبة وهو يرشدها إلى غرفة الجلوس، الذي ظهرت وكأنها أكبر من المتوقع.

ـ لأنها فارغة، على ما أظن.

قالت ذلك صوفي مبتهجة، وأسرعت مقتحمة المطبخ الصغير، الذي كان مزوداً بفرن حديث وثلاجة، مما أدهشها. وعقب تفقد سريع للدواليب الصغيرة المرتبة، توجهت صوفي أعلى الدرج الذي يؤدي من غرفة في حجرة الجلوس إلى مهبط الدرج، بين أحد الدواليب على مقربة من الحمام، وغرفة النوم الوحيدة، التي تزهو مفتخرة بوجود شرفة قوسية مثل الحجرة السفلى.

تبعها الكسندر صاعداً بكثير من عناية، وقد اضطر أن يحني رأسه الطويل قبيل الولوج في غرفة النوم، وقد أجفل عند رؤيته ورق الحائط، الذي أقرت صوفي أنه رائع إلى حد ما، فتصميمه على شكل زهور وأقواس شريطية معلقة، والأبعاد التناسبية البالغة التناسق للغرفة.

أزال الكسندر قطاعات من الورق من أماكن حساسة لينظر هل ثمة رطوبة، غير أنه لم يعثر على شيء يسبب القلق.

ثم استدار ملتفتاً إلى المناطق العلوية، وقد أنفق بعض الوقت متفقداً السقف من الداخل مستعملاً بطارية صغيرة ذات ضوء باهر.

أما صوفي فقد عادت أدراجها هابطة لتغرق نفسها بالإهتمام بالكثير من الديكورات الداخلية.

التحق الكسندر بها بعد مرور وقت قصير، وعند ذلك كانت قد استغرقت عن الإهتمام بورق الحائط، الذي يطل الجدران باللون الأبيض، وأقمشة استائر المعلقة ذات اللون الأصفر والأبيض على النوافذ، ومجموعات نباتات الزهور في كوة النافذة العميقة.

ـ أليست متقنة كاملة؟

قالت ذلك بمنتهى اسعادة، وقبل أن أحنى الكسندر رأسه داخلاً إلى الغرفة، وهو يزيل خيوط النكبوت من شعره بالفرشاة.

ـ لست متيقناً من الإتقان والكمال، غير أنني على قدر ما استطعت أن أرى، فإن السقف على ما يرام، فليست هناك علامات لتلفيات في الأخشاب. ولديك بعض القليل من سوس الخشب، بالطبع، وهو ما لا يمكن تفاديه، إذ أنه حتمي في منزل قديم في عتق هذا البيت ـ ولكن، ليس هناك شيء لا يمكن معالجته.

قالت صوفي مؤكدة:

ـ إذن هل كل شيء على ما يرام؟ أليس هناك شيء يمنعني من الإنتقال إليه؟

ـ سوف أرى.

قال ذلك وقد التبس عليه الأمر، ثم أنفق ساعتين قبل أن يصدر حكماً نهائياً، مؤكداً الأساس سليم، إذ ليست ثمة علامة أو دليل على وجود ترسبات في أي مكان، كما أن نظام الصرف مرض، كل ما هنالك هو بلاطات قليلة فحسب على السقف بحاجة و إلى أن تستبدل.

ألقت صوفي بذراعيها حول الكسندر وقبلت خديه بنشاط وخفة. فضحك وهو يستجيب للعناق باشتياق، وقال:

ـ إذا كان هذا جزائي على تفقد البيت، فما الذي سأحصل عليه، إذا عاونتك في عمل الديكورات؟

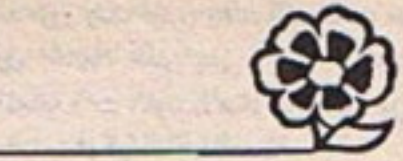

الفصل الخامس

استندت صوفى على يديه المتشابكتين، وعيناها تقولان بمكر صريح :

ـ أنت يا الكسندر ؟ هل باستطاعتك حقاً أن تطل وخلافه ؟

ـ يسعدنى أن أخبرك أننى بيكاسو عالم الديكور المنزلى. قال ذلك بوقار مضيفاً:

ـ أما فيما يتعلق بـ «خلافه»، فإنه لا نظير لى فى ذلك.

ـ لا، أنا جادة ! هل تساعدنى فى ترتيب وتزين المكان ؟

ـ أفهم من ذلك أنك تريدين صحبتى ما دمت قادراً على جعل نفسى نافعاً !

قالت صوفى وهى تحرر نفسها منه ضاحكة :

ـ وبيرى أيضاً، إذا كان يستطيع الطلاء.

ـ أطالب بحقوقى فى أن أكون المتنفع الوحيد وإلا فلا اطلاقاً.

قال ذلك الكسندر من فوره، وأردف :

ـ بالإشتمال على لأوليان بريت.

ـ لأوليان لا يعرف أحد طرق فرشاة الطلاء من الطرف الآخر.

نظرت إليه بلا مبالاة :

ـ هل تعنى ذلك حقاً ؟

ـ نعم أعنى ذلك.

وجاب المكان قاصداً الباب ليفحص القفل، قال :

ـ ولكننى أريد شيئاً كمقابل، بطبيعة الحال.

ـ أوه. نعم ؟

ـ أن تساعدينى على انتخاب الستائر والسجاجيد لمنزل «ويللو ريتش».

تطلع إلى المفجأة البادية على محياها، ضاحكاً، وقال :

ـ سوف أقدم كهدية لـ كيت أمتعة الشانترى، كأمر طبيعى.

بالإضافة إلى ذلك، «ويللو ريتش» له شخصية مميزة جداً تخصه وحده فحسب دون سواه. وأنا أريد أن أسعدها باختياراتى.

ضحكت صوفى قائلة:

ـ أنت تتحدث كما لو كان المنزل انساناً له شخصية.

ـ ما دمت أنا الذى صممته، فلى الحق فى شعورى بالألفة والإنجذاب، يا صوفى.

نظر الكسندر إلى ساعته وقال :

ـ لقد سرقنا الوقت. أفضل أن أوصلك إلى جدتك بسرعة البرق. إذ من المقرر أن أعود إلى دبزيرى عند الساعة السابعة.

تجاهلت سيسلى وبنرايت رفض الكسندر لاحتساء الشاى، قائلة:

ـ كلام فارغ. ورفعت يدها لتسمح له بتقبيلها حيث كان يفعل دائماً، وقالت :

ـ ضياع عشر دقائق لن يردع المرأة التى تنتظرك، أنا على يقين.

استسلم الكسندر ضاحكاً، ومستقراً فى مكانه لصوفى على أحد المقاعد فى قاعة الإستقبال، بينما مدام وبنرايت تغرقه بشظائر الانشوفه وهى عبارة عن خبز محمص محتو على لحوم سمك صغير يشبه الزنكة، وطالبته أن يزودها بتفاصيل الحالة فى بيت ايليكس الصغير.

ـ إنه فاتن ساحر، يا جدتى.

قالت ذلك صوفى وعيناها تبرقان بالمرح، وأضافت :

ـ لم يتسن لى أبداً أن رأيت بيتاً من تلك البيوت الصغيرة من داخله قبلاً. إنه دافىء ومريح، ومزود بالستائر الملائمة، والقليل من تكسيات الطلاء.

ضحكت مدام ويترايت قائلة :

ـ نعم، نعم، يا حبيبتى، ادخرى لنا التفاصيل. وبرغم ذلك فأنا مسرورة من معرفتى أنا استحسنتى المنزل. إن ما أريده هو رأى الكسندر المهنى المتخصص فى الهندسة المعمارية، لأنى أتوق مشتاقة لذلك.

قام الكسندر بتزويدها بما طلبت ببلاغة وإحكام، ثم سدد ابتسامة إلى صوفى، وقال :

ـ سوف تبعث إليك سكرتيرتى اثباتاً مونقاً، بطبيعة الحال.

مضت تقريباً نصف الساعة فيما بعد ذلك قبل أن ينهض ليغادر، وأوصلته مدام ويترايت لتودعه. أما صوفى فقد شكرته على دعوتها إلى الغداء واصطحابها إلى «ويللو ريتش».

وقالت بينما كانت تتمشى معه لتوصله إلى السيارة :

ـ لقد كان ظريفاً منك أن تكرس أجازتك يوم السبت من أجل.

ثنى الكسندر ساقيه الطويلتين طاوياً إياهما فى مقعد القيادة، ثم وجه نظرة مستقيمة مباشرة جداً إليها، وقال :

ـ لم تسبى لى مشاق يا صوفى. ولمجرد تسجيل الواقعة، فإننى أقول لك بأننى لن انزلق فى علاقه مع واحدة من بنات جنسك.

ارتفع ذقن صوفى وهى تقول :

ـ حياتك الإجتماعية خاصة بك لا شأن لى بها.

ـ على كلّ، حسبت أن الأفضل أن أخبرك بأننى سأتناول العشاء

مع لاورلا وسالى هانتل، وبالضبط مع خال سالى، الذى تصادف أن يكون رئيساً لمجلس إدارة سلسلة الفنادق الكبرى المهنية بموقع الفندق فى برادينغ.

أدهش صوفى سعادتها الكبرى لدى سماعها هذه المفاجأة، وصار صوتها حاداً وهى تجاهد أن تخفى ذلك، وصاحت.

ـ الا تفعل الأشياء لمجرد أنك تبغى ذلك، يا الكسندر، بدلاً من أن تفعلها وعينك على انجاز الأعمال ؟

لمعت عيناه تحت جفنيه السفليين، وصاح :

ـ لماذا، نعم. هذا هو كل ما كنت أفعله طيلة النهار اليوم حتى الآن. طاب مساؤك، وتصبحين على خير يا شقيقتى الصغرى.

انطلق بالسيارة المكشوفة وهو يؤدى تحية تهكمية ساخرة لها جاعلاً السيارة تخرخر طاوية الطريق.

ـ ذلك تعبير غير مألوف.

قالت ذلك مدام ويترايت وقد لاحظت الحديث، حينما انضمت إليها صوفى، وأردفت :

ـ الكسندر يداعبك مضايقاً مرة ثانية ؟

فقالت صوفى : أجل.

أما العكس فإن صوفى كانت موقنة بأنه غير صحيح. فنظرة عيون الكسندر كانت عسيرة على التحديد. فلو كان أى رجل آخر. لأقسمت أنه يضع تصريحاً واضحاً جداً ذا نوايا. بيد أنه ليس أى شخص آخر. إنه الكسندر بالأبت، الذى كان يعرفها طوال حياتها، والذى كان على وشك الزواج من ديلفين، منذ وقت وجيز فقط.

ان الاندفاع المفاجىء فى الإهتمام بها صفع كالسوط ذوق صوفى. بالإضافة إلى أن دور الكسندر فى حياتها كان دائماً عبارة عن أخ إضافى.

لقد تفكرت صوفى فى سكينة وامعان خالصة إلى أن الأخوة هى الوصف الصحيح لالكستدر الجديد. لقد كان اتجاهه مزعجاً جداً، ليس فحسب لأنها شعرت يقيناً أن هدفه هو معالجة جروحه طالباً السلم الشاق لما أتلفه صوفى. وأكتشفت أنها تريد أن تعرف بأى ثمن وبأخلاق أيهما الذى تأثر بالتلف أكثر من الآخر ــ كبرياؤه أم قلبه.

لم تعلن سيسل وينرايت على ذهول حفيدتها، ملتفتة بدلاً من ذلك إلى حفل الزفاف القادم، لتتحدث بشأنه بينما كانا يتناولان عشاءً خفيفاً.

وضحكت لما اعترفت لها صوفى بالمفاجأة التى أصابتها عند سماعها أخبار الزواج من أبيها، وأوضحت :

ــ لابد وأنك عمياء يا طفلتى. لقد كانت كيت بالأبت غارقة فى الحب مع ديفيد منذ سنوات طويلة.

نظرت صوفى إلى أمها بدهشة، مستفسرة !

ــ أحقاً كانا يحبان بعضهما ؟

ــ أوه، ليس ثمة شىء صعب المراس ! قد كانت كيت صديقة حميمة لـ لويزا طوال حياتها، حتى حضورها إشبينة للعروس فى الزفاف. ثم فاجأت كيت الجميع بزواجها غير المتوقع من هوف بالأبت بعد أسابيع قليلة من حفل القرآن، وهو رجل يكبرها بسنوات، وكان قد رزق قبلاً بولد. كانت ابتسامة مدام وينرايت مفضية بأسرار لحفيدتها، وهى تعرب لها قائلة :

ــ وأنا شخصياً كنت مقتنعة دوماً أن السبب هو اختيار أبوك لـ لويزا، على الرغم من أنه، حتى أكون منصفة، كلمة «اختار» ليست هى الكلمة المناسبة للتعبير.

ــ لقد كانت أمى تقول دائماً إنها هى وديفيد كانا يكتفيان بنظرة

واحدة من كل منهما للآخر، حتى يتفهما ما يريدان ويتفقا على ذلك.

ــ لم أختلف أنا وجدك على شىء قاله هو أو قلته أنا بالتأكيد. فالناس لم يكونوا يعيشون معاً فحسب فى تلك الأيام، كما تعرفين، غير أن لويزا كانت ستهرب مع ديفيد كالطلقة النارية، إذا كنا قد عارضنا زواجهما.

كانت ابتسامة مدام وينرايت ساخرة تهكمية وهى تضيف :

ــ ولذلك خلينا لها السبيل لتختار طريقها. ثم بعد ذاك تزوجت كيت من الرجل الذى صارت هى أرملة له عقب وفاته. وإنى لأقسم بحق هذا اليوم أنها فعلت ذلك، لأنه كان يعنى بقاءها بالقرب من لويزا وديفيد. حركت صوفى المعلقة فى فنجان قهوتها تكراراً قائلة :

ــ أتعجب ما هو الشعور بحب انسان ما بكل هذا القدر الكبير؟ أعنى مثل أمى وأبى، والعمة كيت، أيضاً، إذا كانت تحمل بطارية طوال كل هذه السنين. أنا لست متأكدة البتة من الإحساس أو الشعور بالحب العنيف كهذا لأى انسان.

ــ هل حدث لك أن تفكرت فى الزواج من لأوليان بريت ؟

تنهدت صوفى بضجر ونفاذ صبر

ــ كلا، يا أعز جدة فى الدنيا. لم يحدث. لأوليان ليس من النوع الذى يتزوج. وأقول لك قبل أن تشرعى فى تشتة أى أفكار على عكس ذلك، وكذلك أنا.

أبدت مدام وينرايت ملحوظه بلطف وأعتدال، قائلة :

ــ إذا وقعت فى الحب سوف تعتقدين العكس، وخلاف ذلك.

ــ ولذلك سوف أتيقن من احتفاظى بقدمى الإثنين على الأرض. وإذا حدث أن أكتشفت مجرد هوى خفيف فى نفسى نحو الوقوع فى الحب، فلسوف أعدو كالجحيم.

ــ صوفى !

اعتذرت صوفى، وتحاشت حتى نهاية الأجازة الأسبوعية التطرق للموضوع، وهو الأمر الذى كان سهلاً تماماً، طالما أن كل ما كانت تريد الحديث عنه فعلاً هو بيت ايليكس الصغير. كانت أفكارها أقل خصوصية. فقد كانت يثيرها أنها على وشك الإنتقال إلى بيت خاص بها، والنظرة التى كانت فى عيون الكسندر، بينما كان يقود سيارته منطلقاً ظلت تلح على تخيلاتها بالنعيم الإنفرادى.

رفضت صوفى فى ظهيرة اليوم التالى أن تسمح لجدتها بأن توصلها بالسيارة إلى المنزل، غير راغبة فى جعل مدام وينرايت تسوق السيارة مسافة ستين ميلاً أو ما يقارب ذلك، فى يوم رطب ملىء بالضباب.

ـ سوف أذهب بالأتوبيس.

ـ ولكنه يتوقف فى كل محطة على الطريق، يا طفلتى، وسوف تصلين إلى البيت متأخرة.

توقفت مدام وينرايت، وقد قاطعها جرس الباب، فأرسلت صوفى لتفتح الباب الأمامى. وقف الكسندر خارجاً، مبتسماً لها، قال:

ـ أهلاً، يا صوفى. ظننت أنك سوف يستهويك أن أوصلك للبيت.

رمقته صوفى مشدوهة، وقالت:

ـ هل أتيت كل هذا الطريق لتأخذنى فحسب؟ أومأ الكسندر برأسه، بدمائه:

ـ بالطبع، فعلت ذلك، فأنا فى الواقع من نوع الرفاق الذين يعرفون الواجب تماماً.

ـ لابد أنك كذلك، أن تقود السيارة لمسافة ثلاثين ميلاً، معتمداً على الحظ. لقد كنت على وشك أخذ الأتوبيس.

ـ ألا تفضلين السيارة الخاصة بى؟

رمقته صوفى بارتياب، فلابد أن الكسندر مسل جداً كما هو

واضح وقالت أخيراً:

ـ أتمنى أن أعرف ما الذى تبتغيه؟ هذا الإندفاع المفاجىء فى الإهتمام بى من جانبك مزعج جداً. لابد وأن يكون لك دوافع خفية. هيا أدخل، واعترف، ما هى هذا الدوافع؟

أكد الكسندر لها قائلاً بكياسة ونعومة:

ـ لا شىء يا أختاه. إنها جزء من خطتى لتوحيد عائلتى بالأبت وغوردون فى عائلة واحدة سعيدة. إن دوافعى، وأقسم على ذلك، نقيه صافية لأقصى الحدود.

وضعت هنية مدام وينرايت حداً للمزيد من الجدال حتى تم تبادل التحية بالإنصراف، إذ أنه حتى الشاى لم يتناولوه، وأضحت صوفى فى المرسيدس فى طريقهما متوجهة إلى المنزل فى دينزبرى، حينما دخلت وخرجت إلى الموضوع باصرار وإلحاح، مخبرة الكسندر بأن التغير فى اتجاهه كان يجعلها تشعر بعدم الارتياح.

وقالت بصراحة:

ـ إنه كالشبح، ولا أحبه، لقد كنت دائماً حليفاً ونصيراً للأولاد، وليس أنا. فى الواقع، أنت وأنا لم نكن أبداً على ما يرام اطلاقاً فى علاقتنا، وهذه حقيقة. وفى وقت من الأوقات، لم نتمكن أبداً من تبادل كلمتين اثنين بدون شجار واختلاف، ثم بعدئذ انتقلت أنت إلى مرحلتك العليا ـ

قال مجفلاً وهو يسألها:

ـ مرحلتى ماذا؟

ـ مرحلتك العليا ـ وهى التى يؤرخ لها تقريباً من الوقت الذى التحقت فيه بالكلية، وحتى، كما أظن، يوم عقد قرآنك مباشرة.

نظر الكسندر إليها مقرباً، ومقطباً جبينه، ثم استرجع انتباهه للطريق، الذى كان نصف عامض من جراء ذيول الضباب الطافية.

وكرر قولها:

ـ العليا. هل هذا هو ما كنت تظنين فى طوال هذه السنوات كلها؟

ـ نعم، لا.

قالت ذلك بصراحة وحشية وأضافت:

ـ ذلك هو ما شغل أفكارى هذه السنين برمتها، يا الكسندر.

ـ لماذا؟

ـ لماذا ماذا؟

ـ لماذا لا أستحق منك كثير تفكير فىّ يا صوفى؟

صار صوته واهياً، حتى أن صوفى نظرت إلى وجهه مندهشة، مستفسرة عما إذا كان قد أزعجه الكلام، واستأنفت:

ـ حسناً.

قالت ذلك وقد ندمت أنها طرقت هذا الموضوع، وأضافت:

ـ أظن لأنك معتد بنفسك وناجح، لدرجة مقززة للنفس، فى كل شىء. أعنى، فى المدرسة، كنت تطوى الإمتحانات مجتازاً إياها بنجاح، وكنت كابتن لعبة الكريكيت، والألفى. و

وفى حياتك البالغة، كنت دائما محبوباً جداً ومحترماً، متشحاً بوصفك اللائق فى الحياة الذى تم تفصيله له سلفاً فى شركة العائلة. فأنت لم تعان أبداً من الأشياء الحقيرة منغصات الحياة، مثل بقيتنا ـ فأنا لم أتذكر حتى اصابتك بأمراض الطفولة مثل تيم والشقيقين التوأم.

كانت ابتسامة الكسندر قصيرة، وقال:

ـ حتى أبين لك فحسب كيف أن الغمامتين اللتين تضعينها على عينيك غير فعالتين، يا صوفى، أقول لك، إنك لا تتذكرين أمراض الطفولة التى أصابتنى، لأنك أصغر منى بسنوات، ومرضى

فى الطفولة، إذا كان يتعين علينا أن نناقشه، لم يكن لك عهد به فى ذلك الحين.

وفشلتى فى ملاحظة والدينا وعلاقتهما التى تجاوزت الصداقة البريئة، لأنك كنت دوماً متدثرة بدثار الشهادة والاستشهاد الخاص بك.

انتصبت صوفى واقفة فى مقعدها، وهى تقول:

ـ الاستشهاد؟

ـ تلك الحقيقة. أظن أنك تحاولين أن تظهرى كنموذج مثالى أو لؤلؤة بالغة الكمال.

ثمة صمت مشوب التوتر ساد السيارة بعض الوقت، وقت زن كانت صوفى تجاهد أنفعال العصبية حتى لا تسمح لنفسها بفقدانها، لأنها علمت من التجارب التى خاضتها أن الغضب يضر كثيراً بنفسها بأكثر مما يضر بالموضوع.

ـ وهكذا أنت ترانى على هذه الحال؟

أبدت الملاحظة بهدوء حازته بعسر، وأضافت:

ـ ضرب من أنواع سندريللا الماسوشية التى تتلذذ بتعذيب الآخرين لها، فى ظل وجود شقيقين وسمين، بدلاً من شقيقات قبيحات دميمات.

قال عرضاً:

ـ وأنا قررت أن أنصب نفسى فى دور الغُرّاب البديل. لقد حان الوقت لأن تستيقظى على ما يدور من أحداث، يا صوفى، عيشى حياتك.

قالت وهى تصرُّ أسنانها:

ـ أن هذا هو ما كنت أريد فعله منذ سنوات. وبالضبط هذا هو ما أحاول أن أفعله الآن، إذا تمكنت من اقناع كل منكم جميعاً بأننى

قادرة على العناية بنفسي وبإتقان.

ـ كان بوسعك أن تشرعي في فعل ذلك منذ زمن خلا، إذا كنت قد صحوت على حقيقة أن كيت وديفيد كانا تواقين وعلى وشك أن يريحاك من الحياة المنزلية التي فرضتيها على نفسك.

حفض الكسندر السرعه وهو يحادثها، متعطفاً بسلاسة إلى مكمن على الطريق المهجور. تساءلت صوفي بقلق.

ـ حتى يتسنى لي ولك الدخول في مسامرة خاصة.

التفت الكسندر مستديراً نحوها، معرباً:

ـ ألم تتحققي أبداً أن ديفيد لم يجبروه ولم يطاوعه قلبه على ايذائك وجرح مشاعرك عن طريق ابعادك عن عاطفة الأمومة الغريزية التي لديك حتى أزف وقت الحاجة إليها ؟ وكانت كيت على وشك التدخل في أي وقت في هذا العام المتضرم، لولا خوفها من وديفيد من إيذاء شعورك.

قالت صوفي متأثرة:

ـ ليس فضيلة أستطيع أن أنسبها إليك، يا الكسندر بلايت.

ـ وهذا يفسر لماذا وأنت وأنا لم نتفق كثيراً عندما كنا صغار السن.

ـ محتمل جداً.

قالت ذلك صوفي وهي بَعْدُ قد ساخت في مقعدها، وأحست بواطن تضاءلت منكمشة بكل ما في الكلمة من معنى، وصاحت:

ـ لماذا لم تذكر لي شيئاً إذن، ما دمت أنت هكذا قد اختبرت بأنها الأمور عن الموقف كله ؟

ـ لم يكن ديفيد وكيت ليسمحا بذلك. وبناء عليه، مادام الموضوع لا شأن لي به حقاً، أغلقت في محافظاً على ذلك. وحتى عهد قريب جداً لم تكوني البؤرة الدائمة لاهتمامي. إذ كنت مولعاً ومتورطاً

مع ديلفين في ذلك الحين، وقت أن أدركت كيف كانت الأمور تتطور مع كيت.

ـ الأمر الذي يعني أنك لديك الوقت في تفصيلات تافهة مثل.

اصطنعت صوفي ابتسامة ساخرة، وقالت:

ـ أنا لا ألومك على ذلك. قد كانت ديلفين موضع اهتمام يستنفذ كل شيء.

حل عليهما فترة أخرى من فترات السكون والصمت تلك التي أدركتها صوفي وعلمت أنها مملة، حين خلوتها مع الكسندر. غير أن هذه الفترة لم تلكن غنة كثيفة بالإهانات غير المنطوقة. لقد كانت مريحة على نحو مدهش أن تجلس معه لوحدهما في القسق المنسدل.

قال الكسندر بعد برهة:

ـ كانت ديلفين أدماناً، عادة اكتشفت أنه من العسير التخلص منها متى بدأت. لم أر منها أبداً ما يكفي لكي يجعل حماسي وولعي بها نشطاً غير خامد. ولم تعطيني أبداً قلبها..

ـ تصاب بالسقم والموت.

ـ بالضبط.

انخفض صوت الكسندر درجات عديدة وهو يقول ذلك، مضيفاً:

ـ لو عدت للوراء بالذاكرة يا صوفي، أحسب أنني أيقنت في داخلي أن هذه الزيجة بديلفين لن يكتب لها الحياة والدوام.

ـ الكسندر المتفوق الذي لا يقهر، بكل جوارحه يريدها أن تعود غاضبة أو سعيدة، أظن ذلك.

تنهد الكسندر، وقال:

ـ أشك لأنها بصراحة رفضت أن تدعني أستحوذ عليها.

ـ تعني أنك ربما لم تتزوجها إذا ما رضخت لك كما أردت ؟

صمت الكسندر هادئاً لحظة، وأعرب:

ـ صوفى، أنا لا أعرف بكل أمانه. على أية حال، فالمسألة تحتاج إلى دراسة أكاديمية. فهى لم ترفض لى وفى النهاية لم تتزوجنى، أيضاً وبناء فلن يتسنى لى أبداً أن أعرف.

ـ وإذا ظهرت مرة ثانية غدا وتابت عن الإثنين، فهل سوف تعيدها ؟

قال بصراحة، رداً تساؤل صوفى :

ـ ستغرينى. ولكن آمل أن يكون لدى العقل الكافى للرفض، لقد خانت وغدرت بى. وإذا كان لى أن أهبط إلى الذات الأنانية لحظة، فإننى أعلم أنها جعلتنى أظهر وكأننى أحمق دموى. أنا لا أعرف ما إذا كنت سوف أبالى بوضع نفسى عرضة لعرض مكرر. ولا ما إذا كانت المشكلة سوف تثار ثانية.

لقد تلقيت رسالة نادمة منها منذ أيام قليلة، تقول فيها كيف أنها شعرت بالأسف، وكيف أنها أيقنت كم كنت أنا رائعاً للغاية كرجل، يسعى بإمرأة كانت تتوق بإلحاح فى سرية وتجرى وراء الشهرة والنجاح، والآن أخفقت تماماً فى التمتع بها.

توقف وجه صوفى فى الظلام وقالت:

ـ هل تحسب أننى خيبة مفرطة فى ذلك إذا قلت إن ديلفين قالت لك كل هذا سخرية بك واستهزاءً ؟

ـ كلا. ليس إلى هذا الحد، أوافقك.

تحسس الكسندر يدها وأمسك به، وصرح:

ـ لكن تيرى فاول لم يبعد الطُعْمَ حتى حلول الساعة الحادية عشرة، لسوء الحظ.

ـ هل لا تزال تعانى ـ من الإدمان الذى ذكرته ؟

سألته صوفى هذا السؤال بحياء.

ـ كلا ، لقد شفانى منه الانتظار الجهنمى فى مكتب عقود الزواج. بصرف النظر عن شهر العسل الذى أمضيته بمفردى. وكلاهما علاجان ناجحان يا صوفى.

ـ إذن يبدو وكأن كبرياءك، وليس قلبك هو الذى عانى الأمرين.

أحكم الكسندر أصبعية على أصابعها، وقال :

ـ لقد عرفت ديلفين لمدة وجيزة جداً لا تمكننى من طول أمد جروحى.

ـ أظن أن الوقوع فى الحب يستغرق فحسب لحظة واحدة !

ـ ونفس القدر تقريباً للخروج والنهوض منه ـ إذا كانت المسألة مجرد افتتان.

ورفع الكسندر أصابعها لشفتيه، وراح يقبلها واحداً واحداً مما أثار دهشة صوفى النصوى، وهو يقول:

ـ إن العواطف الأكثر دواماً ـ الصداقة، التعاطف ـ الدفء ـ تنمو وتتطور طوال الوقت فى النوع الصحيح من العلاقات.

سحبت صوفى يدها بهدوء، وقالت :

ـ الكسندر، أنا لا ـ

ـ لا. ماذا ؟

قال ذلك بنعومة، وألقى بأحد ذراعيه خلفها ليقربها منه وهو يقبل ثغرها.

لم يكن ثمة مناص، وقد تحققت صوفى من ذلك، للتراجع والارتداد فى مقعد سيارة اليكسندر المكشوفة. ولما لا فى ثغرة ثغرها، ترامت رأسها للخلف على دعامة ذراع الكسندر ذى العضلات، ومسند الرأس، بينما لازالت يده حرة الحركة تمسك برأسها، ولذلك كانت أية حركة من أى نوع ضرباً من المستحيل.

وكان أحد ذراعيها محتجزاً بين صدره و صدرها، أما ساقاها فقد كانتا مقيدتين من جراء عمود القيادة، وحينما امتدت يدها الخالصة لتشد وتجذب معصمه، كان فعلها هذا كما لو كانت تقطر قضيباً معدنياً حديدياً. واستقر رأيها على أن أفضل خطة هى البقاء تماماً بلا حراك أو استجابة. فهو سرعان ما سوف يضجر من محاولة تقبيل دمية خالية من الحياة. ولقد ثبت أن الخطة ما هى إلى فشل ذريع، وقت أن اكتشفت أن نفسها تتحول إلى حياة مفعمة بالإنفعال كلما مرت ثانية من الزمان. وتوصلت إلى أن تكون استجابتها قائمة على العمل باستقلال وذاتية من وحى عقلها وذهنها الخاص. وفى الحقيقة، عقب ثوان قليلة فحسب من محاولات الكسندر اقناعها بتقبيلها بثغره الخبير، دار عقل صوفى تماماً، وتفرقت شفتاها منفرجتين باستسلام مفاجىء حاد.

أحدث الكسندر صوتاً مكتوماً مستساغاً ومستطاباً فى أعماق حلقه، وشبك ذراعيه الاثنين حولها. انتعش جزء ضئيل من ذهنها كالبرق فى سرعة زواله محذراً إياها بأن كل هذا طيش وتهور حتى درجة عالية، إذ سيكون الغد هو صباح الاثنين عما قريب، وإن غداً لناظره لقريب، وأن الرجل الذى يقبلها الآن يمثل هذا الخليط الفذ لا مثيل له، هو أيضاً الرجل الذى سيكون فى انتظارها خلف مكتبه، حينما تصل للعمل من أجله فى اليوم التالى.

أخفقت المحاولة الأخيرة، وأذعنت صوفى مستسلمة لمصيرها.

وعلى حين غرة، كان هناك وهج ساطع من الأضواء ونحيباً كالنهيق من جراء أصوات صفارات الإنذار عندما انطلق سرعة سيارات البوليس قاصمة هدأة الليل بالضوضاء الصاخبة، ومدده الظلام والحلكة للحظات قليلة متطفله، أعادت صوفى من خيالها إلى أرض الواقع مرتطمة.

وقبل أن يكون لديها الوقت لدفع الكسندر بعيداً، كان قد رجع عائداً فى مكانه السابق، وهو يتنفس بصوت مسموع، وكانت صوفى تلملم شتات نفسها. وصارت غضبى على حين غرة، غضبى للغاية عليه، وعلى نفسها، وعلى كل شىء، وقد أمامها مقاطعة سيارات البوليس لها. كانت ترتجف. وكان الكسندر يتنفس بحدة. وقال الكسندر: أنا آسف يا صوفى.

ولم تكن صوفى ليسرها أن تتلقى أى اعتذار، وصاحت:

هل لأنك قبلتنى ؟

— يا إلهى، كلا ! كيف يتسنى لى أن أكون آسفاً على شىء أعطانى الكثير من البهجة فوق ما أتخيل أنه ممكن ؟

وحتى هذا السؤال وجداه خاوياً من الاستحسان. لماذا يشعر الكسندر بكل هذه المفاجآت مرؤعاً ؟ هل كان أبعد من حدود الإمكان أن يعتبر تقبيل صوفى غوردون تسليه ممتعه؟

تساءلت صوفى:

— إذن، ما هو بالضبط الشىء الذى أسفت من أجله؟

عاد الكسندر فأمسك بيدها، قائلاً:

— ذلك لأننا تعرضنا للإعاقة وعدم الإطراد، لأننى استسلمت لدافع أن أتيك حبى فى مكان يضايق وغير مريح البتة، ولأننى أعتقد، وهذا هو الأكثر أهمية، أننى قد عرفتك منذ زمن طويل، معرفة وثيقة، ولم أتودد إليك بالحب من قبل.

— ألا تأخذ دورى فى كل هذا كأمر مسلم به ؟

— فقط فى ضوء استجابتك الأخيرة يا صوفى.

— أوه.

— نعم. أوه.

قال ذلك الكسندر وصوته قد أضحى مبحوحاً أجش، وأضاف:

ـ لم أحلم أبداً بأن كل هذه النيران كمنت متخفية مستتره وراء هيئتك المنضبطة.

أتسعت عينا صوفى وهى تقول :

ـ منضبطه؟ أنا ؟

عصر الكسندر يدها قائلاً :

ـ نعم بمقدور أى فرد يحيا نوع الحياة التى كنت تعيشيها بدون نظام يا صوفى.

ـ هذا لا يأتى بسهولة.

قالت له بجفاء، وأردفت :

ـ ولا حتى اللؤلؤة النموذجية بالغة الكمال التى مثل. لقد كان على العمل كداً من أجل ذلك.

ـ علمت هذا. لعل هذا هو ما يفسر أن الهيئة المنضبطة هى ما يتقبلها الناس، على خلاف صوفى الأخرى الكامن مستتره وراء هذا.

ـ الإنسانة التى نحن إلى المهروب !

زادت قبضة الكسندر إحكاماً، قال :

ـ هل أنت موقنة بأن بيتاً صغيراً يشرف على المقبرة فى أرليسفورد هو أفضل وسيلة للفرار، يا صوفى ؟

ـ إنه أفضل عرض حدث أن تلقيته يا الكسندر، صدقنى !

ـ بوسعك دائماً أن تتزوجى.

تنهدت صوفى، وأضافت :

ـ كما أقول دائماً، إلى حد مقزز حتى الغثيان، أنا أعرف، بأحسن من أى شخص آخر، ما الذى يعنيه الزواج. كلا. شكراً.

ـ ولكنك تتحدثين عن الحياة المنزليه، يا صوفى. إن الزواج بوسعه، بل يجب أن يزود المرء بالكثير من الزبد ـ والمربى.

ـ يا الكسندر، إذا كنت تقصد ما أظن أنك تعنيه، فإن كل ما

سوف يتقضى هو زوج فعل، يتوقع كأمر طبيعى تماماً، أن يبنى الحب، وهذا قمة ما عداه من سائر الأشياء.

وهزت رأسها بعنف قائلة :

ـ لا سبيل لذلك.

ضحك الكسندر، وقال :

ـ وهكذا أنت تمجين مباهج الحياة المنزلية الزوجية !

ـ لن أفتقد إلى شيء لم أستحوذ عليه أبداً.

حل الصمت المألوف الآن لمدة لحظات قلائل، ثم مد الكسندر يداً ناقراً زر الضوء الخلفى حتى يستطيع أن ينظر بشدة فى وجه صوفى.

فعبست بوجهه على نحو ردىء الطبع.

ـ أطفئ الضوء ! أننى أشعر وكأننى البطة الجالسة.

فى أعقاب ذلك صارت الظلمة أكثر حلكة عن ذى قبل، قال بهدوء :

ـ أردت إذا كنت تعنين ذلك حقاً، يا صوفى.

ـ أننى لم افعل ذلك مع أى شخص أبداً.

قالت ذلك وهى تضحك فى نفسها، وأردفت :

ـ لكن هذا سر بينى وبينك، يا الكسندر. لا أريد أن ينتشر فى كل مكان. أنظر كيف ستأثر سمعتى !

ـ أنا مندهش. لا تحاولى أن تخبرينى بأنك فاترة العاطفة لقد ثبت بحسم لنوى الآن أنك لست كذلك.

ـ قالت مدافعة عن نفسها :

ـ ما هو الأمر المثير للدهشة فى ذلك ؟ لقد قلت إن ديلفين كانت كذلك !

ـ ذلك لأنها كانت تتماسك فى انتظار جرس الزفاف. وأنا لست

ساذجاً سهل الانخداع لأن أعتقد انها كذلك.

ـ حتى الآن، لازلت تريدها!

ـ بالطبع. فأنا لست عجوزاً خرفاً من العهد البائد حتى أتوقع أن امرأة فى مثل جمال ديلفين، تبدو عذراء فى مثل عمرها، ولا أن أتوقع منك أنت أيضاً، يا صوفى، حتى أكون صريحاً، أن تكونى كذلك.

تدبرت صوفى هذا ملياً، غير متيقنة هل هو قد مدحها أم ذمها.

ـ لأننى بلغت الثالثة والعشرين، أتعنى ذلك ؟

ضحك بنعومة، وقال :

ـ لا. لأنك إمرأة غنوج جداً، بغض البصر عن عمرك.

قالت بحرارة :

ـ أوه هيا، أجعل الأمر لا يطاق يا الكسندر :

ماذا تعنين ؟

كانت المفاجأة فى صوته أصلية، فعصرت صوفى يده التى تمسك بيدها، وقالت :

ـ ضعه على هذا النحو. تذكر أننى قلت إنك متفوق ؟ أنا أحب أن ألعب هذه اللعبة الصغيرة، وهى تصنيف الناس كل بصفة واحدة. وأنت تعلم الصفة الخاصة بك. وصفة جدتى هى «أتوقراطية»، وأبى «ذو ضمير»، وتيم «طموح» والشقيقان التوأم يتصفان لأنهما توأم بأنهما «مضنيان»، وأما كيت فهى «حبوبة»، وهكذا هلم جراً.

هل أنا أصبتك بالملل ؟

ـ كلا البته ! فأنا حقاً لا أتنازل عن تصنيفى الخاص بى، ولكن واصلى. كل ما أريد معرفته هو كيف تصفين نفسك.

ـ يقول جواز سفرى كل شيء فى الواقع. الشعر بنى، العينان

بنيتان، لا توجد علامات مميزة. بكلمة واحدة «متوسطة». أو ربما «عادية»، لأن صفات معينة لى هى أكثر توافراً وتزيد عن كونى «متوسطة».

جعل سكون الكسندر الكلى ـ جعلها تتململ غير مرتاحة فى مقعدها. فقال :

ـ إذن أنت عادية، ألست كذلك ؟

ـ نعم، أنا كذلك. على نحو كئيب.

بدا الكسندرا متجاوباً، فصارت صوفى تتململ أكثر فأكثر.

ـ خطأ، ليس هناك شيء عادى فى عينيك أولاً. فهما واسعتان بما فيه الكفاية، ولامعتان كذلك بما فيه الكفاية، ويعلم ا، وهما تبتسمان حتى عندما يبقى فمك محتشماً متأنقاً، وقت أن تحاولى البقاء بغير ضحك. أما فمك فهو ينحنى أعلى قليلاً، هذه حقيقة ولكن بما فيه الكفاية ليبدو عيباً لى، وأما فمك ـ فإننى بأمانة، فهو واسع قليلاً، يا صوفى، إلا أن منحنياته مغرية جداً، والآن أعرج إلى الموضوع، هناك كمال فى الشقة السفلى ـ

قالت صوفى بتسرع، وهى تختطف يدها :

ـ أوكيه، يا الكسندر، لا حاجة لأن تسترسل وتسترسل.

فأمسك بيدها وألقى بذراعه خلفها ثانية، وقال :

ـ أنا لم أنته بعد.

ـ الكسندر.

فقال بجديه :

ـ فلتهدئى، لقد كنت قد بدأت فقط توًّا.

تلوت صوفى باهتياج شديد، إلا أن ذراع الكسندر أحكم قبضها، جاعلاً إياها تكن. قالت :

ـ الكسندر، لقد حان وقت العودة للمنزل.

قال بصوت مبحوح قليلاً :

ـ فى لحظة واحدة. أريد أن أخلصك ورأسك من هذا العراء كلمة «عادية». لسبب واحد، كما تقولين، هناك أشياء معينة بشأنك تفوق وتزيد عن المتوسط، ولتأخذى كلمتى بشأن ذلك.

راح السكندر يقبل ثغرها ثانية، وشفتيها بإلحاححتى أن صوفى قهرت تماماً.

وعندما رفع رأسه أخيراً، قال بتوبيخ :

ـ لا تقولى «عادية» أبداً مرة ثانية، أيتها الفاتنة حيث لا ينطبق عليك هذا القول تماماً.

لملمت صوفى شتات نفسها بسرعة ودفعته بعيداً، ولكن أصابعها كانت ترتعش كثيراً جداً، قالت، وهى لا تستطيع مقاومة السؤال :

ـ إذا لم أكن عادية، فماذا أكون إذن ؟

ـ إذا كان لى استخدام كلمة واحدة، فإن الصفة التى خلعتها عل لا تكفى.

ـ هل أنت وقح ؟

نظف الكسندر حنجرته بالتنحنح بينما كان يشغل محرك السيارة، وأدار رأسه ملتفتاً لينظر إليها قبل أن يشرع فى القيادة، قائلاً :

ـ أؤكد لك أننى لا أقصد الكلمات ذات الأحرف الأربعة. إن الكلمة التى قفزت ووثبت إلى عقل هى «ديناميت».

الفصل السادس

لم تكن صوفى أبداً يفتنها يوم الأثنين فى أحسن الأحوال، ولكنها فى اليوم التالى تحولت فى دينزيرى بأقدام متثاقلة كئيبة، غير راغبة من أعماقها أن تواجه الكسندر فى الساعات الأولى من النهار الباردة. لقد كانت السماء تمطر، والأرصفة غادرة مليئة بطبقات زلجة من الأوراق الساقطة بينما كانت هى تمشى مجتهدة على طريقها المعتاد إلى ميدان السوق، الذى كان دائماً جميلاً فى هدوئه، فى مثل هذا الوقت من النهار، وأمامها نصف ساعة آخر من المشى قبل أن تفتح الحوانيت، ويبدأ النهار الفعلى.

وعندما وصلت إلى شركة بالأيت آند صن طوت الشمسية وعلقت معطفها ثم عبثت بشعرها ووجهها، حتى استطاعت أن تجتاز الساعة الشريرة.

كانت المواجهة أقل مشقه مما توقعت. لقد كان بيرى مع الكسندر، يحدثه بشأن الفتاة الجديدة التى قابلها فى إحدى الحفلات. وكانت عيناه الزرقاوان تلمعان حينما شاور ملوحاً بيديه ليؤكد على أهمية الحدث.

ـ إكراماً لك، انصرف عن وجهى، اغرب ووجه طاقاتك إلى انجاز بعض العمل. احلم بصنع شىء نافع كأن تبين مصنع الجعة للحانة الجديدة فى ماركيت ستريت.

قال ذلك الكسندر، وهو ينظر متطلعاً إلى صوفى بابتسامة عندما

ظهرت، وقال :

ـ طاب صباحك، يا صوفى.

ـ طاب صباحكما.

اشتملت ابتسامته لكلا الرجلين، أما بيرى فقد أعطاها ابتسامته المعتادة المميزة قبل الانصراف لإنجاز مزايدة ابن عمه.

قال الكسندر :

ـ يدهشنى أن تكون ثمة فتيات أخريات تركن فى المنطقة المجاورة بدون أن يكتشفهن بيرى.

ثم جذب خطابات بريد اليوم المرسلة إليه، وهو ينوى بوضوح أن يشرع فى العمل من أول النهار بسرعة قصوى، مما أبهج صوفى. وحسبت أن نهاية الأسبوع ما كانت لتقضى بسلام، ثم ركزت على صوت الكسندر وقد أراحها كثيراً واقعية طباعة وتصرفاته.

فى الواقع، بغض البصر عن الساعة التى يقضيانها معاً كل صباح، لم تكن صوفى قد رأت الكسندر ذلك اليوم، أو اليوم التالى، حيث إنه كان يقضى معظم الوقت فى أرليسفورد ينظم مكتب الفرع الجديد.

ذكرته صوفى بصباح يوم الأربعاء، قائلة:

ـ أنت لن تنسى مقابلات اليوم، أليس كذلك ؟ إن المقابلة الأولى ستكون فى الساعة الحادية عشرة.

تفرس الكسندر فيها مطيلاً التفكير، وقال :

ـ لا تستطيعين الانتظار والصبر على الرجل. ألست كذلك ؟

قالت متشحة برداء الصبر :

ـ لقد أردت بتجرد أن أسوى المسائل. لقد وعدت بأننى لن أنصرف قبل أن تعرف السكرتيرة الجديدة شروط وقواعد دولاب العمل.

أسقط الكسندر عينيه على القلم الذى كان يديرة بين أصابعه وصاح :

ـ أنت إذن لم تغيرى رأيك ؟

تراجعت صوفى للخلف باستعجال، وأعربت :

ـ لا، لم أغير رأيى.

عادت صوفى إلى مكتبها الخاص بها بسرعة، غير مستريحة إلى شىء ما فى صوت الكسندر، كان يذكرها بالعلاقة الحميمة التى وقعت يوم الأحد، وهو الأمر الذى أراح بالها.

انجزت صوفى اختياراً واعياً للمرشحين من أجل استحسان الكسندر. كانت الفتاة الأولى جميلة جداً، غير أن صوفى علمت من فورها أنها لن تجتاز الإمتحان الدقيق بسبب صوتها الصاخب على النغمة، وأظافرها النرمزية الطويلة فوق العادة.

أما المرشحة الثانية فقد كانت بريئة من طلاء الأظافر، والمكياج، وأى محاولة مهما كانت لجعل نفسها جذابة، بصرف النظر عما إذا كانت ذات كفاءة، وقد استبعدتها صوفى من القاعة أيضاً.

ذرع الكسندر مكتب صوفى داخلاً فيه بعد وقت لاحق بقليل وأثنى يديه على درجها، وقال :

ـ هيا تعالى معى وتناولى الغداء.

ـ لقد أحضرت ساندوتشات.

ـ أطعميها للطيور.

سدد الرجل ذو العيون ذات الرموش الداكنة نظرة تزلف ومداهنة إلى صوفى، وقال :

ـ أرجوك، يا صوفى، إن إجراء المقابلات مع تلك النسوة ما هو إلا تذكرة باردة بأنك سوف ترحلين عما قريب. سمها غداء عمل إذا كان ذلك سوف يجعلك أكثر سعادة.

أرتعشت صوفى، ثم استسلمت، قائلة :

ـ حسناً. ولكننى سوف أقابلك فى مطعم لأورلاً فى ظرف عشرين دقيقة أو ما يقارب ذلك. إذ يتعين على أن أنتهى من هذا التقرير أولاً.

حملت ابتسامة الكسندر تلك المتعة الأصلية، التى شعرت صوفى بأنها تشجعها. ورغبت فى تناول الغداء مع الكسندر بأمانة بينها وبين نفسها. وبعد أن أنصرف، اعترفت بسرية بأنها استمتعت بالغداء معه يوم السبت الماضى، بينما تعبر عن ذلك بالصفير، إن الكسندر الجديد الملاطف هذا صار رجلاً صعباً فى مقاومته، لقد اكتشفت أن عضلات معدتها تنقبض كلما تذكرت، ليس للمرة الأولى، تلك الخلفة فى سيارته. إذا استمتعت بممارسته للحب معها بأكثر كثيراً مما تهتم بالإعتراف به، حتى لنفسها، وقعت استجاباتها إلى حقيقة أنها عادية، وأنثى ذات صحة، بينما الكسندر جذاب جداً كرجل. وأى إمرأة كانت سوف تتصرف بمثل تصرفها لوقعت تحت نفس الظروف.

وحتى ذلك، لم تكن صوفى بحال من الأحوال مستعدة إلى جيشان البهجة التى اختبرتها عندما دخلت البار بمطعم لأورلاً بعد ذلك بقليل، لتجد الكسندر يجلس أمامها على طاولة بمجرد رؤيته لها.

لاحظ جميع الحاضرين تلويح وابتسامة الكسندر وعلقوا على ذلك. أما هى فقد علمت ذلك علم اليقين، بينما كانت تشق طريقها عبر الزحام المعتاد وقت الغداء، لتلحق به وتنضم إليه فى الجانب الأقصى من الغرفة.

ـ أخبرنى من هى الأسوأ ؟

ـ قالت ذلك وهى ترتشف الخمر التى جهزها لها، وأضافت:

ـ أظن أننى أستطيع كتابة اعتراضين مهذبين على مرشحات هذا الصباح ؟

وافق الكسندر مكتبا وقال :

ـ ما حسبته صحيح. لم أزعج نفسى بإرسالهن للإختبار، لأننى علمت تفاهتهن جيداً، حتى أننى لا أستطيع أن أطيق أياً منهن حول طيلة النهار وكل يوم.

ـ ربما كانت واحدة من سيدة ظهيرة اليوم مناسبة.

سددت صوفى إليه ابتسامة لعوب، قائلة :

ـ كلا يتعين على أن أطلب صوراً فوتوغرافية. وبوسعك أن تختار اللائى يستهوينك.

رفض الكسندر أن يهلل، وقال :

ـ مهما كانت من الجمال والكفاءة، فإن خليفتك سيكون أمامها طريق شاق طويل لتقطعه.

شعرت صوفى بأنها قد روعت، وصاحت :

ـ لماذا أشكرك، يا الكسندر. لكم كان عطفاً منك أن تقول كذلك.

ـ نظر الكسندر ليتطلع إلى عيونها، وقال :

ـ أنها الحقيقة، سوف افتقد إليك بدرجة سيئة، يا صوفى، ألا تغيرين رأيك ؟

ـ أهذا سألتنى الخروج معك على الغداء ؟ لكى تقنعنى ؟

كانت نغمة صوت صوفى باردة، لإخفاء دافعها الملح المفاجىء بالاستسلام، وأخباره أنها سوف تبقى. قال الكسندر.

ـ كلا. لقد أردت فحسب صحبتك. هل هذا عسير على التصديق ؟

كانت صوفى تريد التصديق. وقد كان مثيراً لقلقها أن تكتشف أنها ابتغت تصديق كل شيء قاله الكسندر هذه الأيام، وليس فحسب يوم الأحد السالف، حينما خالفها مشبعاً كبرياءها عن رأيها

فى نفسها بأنها الآنسة «عادية».

وقالت صوفى :

ـ آسفة يا الكسندر. لم أقصد أن أغيظك.

أعادت ابتسامته اللون الوردى إلى وجهها، حين قال :

ـ أن أكثر الورود أريجاً تلك التى تقتنى أكثر الأشواك حده، أليست كذلك ؟ إن وجهك يحمر خجلاً، يا صوفى.

ـ وهل فى ذلك أى عجب ؟

نطقت صوفى سؤالها بحدة لاذعة، سعيدة بتحويل مجرى الموضوع، حينما رصت الأطباق أمامهما، وشرع الكسندر يتحدث عن مهنته وعمله. فخلال بقية وقتهم معاً، ناقشا مكتب الفرع الجديد، وأفكاره عن تأثيث «وويلو ريتش»، مع انفاق دقائق قليلة، جاءت حتماً عن مناقشة بيت ايليكس الصغير، وكيف سيكون مناسباً على وجه السرعة للسكنى.

قالت صوفى : ـ وأنا لست بحاجة إلى الإنتظار من أجل ذلك قبل أن أنزح إلى أرليسفورد. أستطيع دوماً المعيشة فى غرناكر، إذا كان السيد لايفورد يريدنى على وجه السرعة.

قال الكسندر مداهناً :

ـ بإمكان لايفورد الإنتظار حتى أستغنى عنك.

أقطبت صوفى وقالت :

ـ وما المدى الذى سوف يستغرقه ذلك، أبمقدورى التساؤل ؟

انثنى الكسندر بذقنه على يده، بينما كانت عيناه على وشك الإنغلاق من جراء شعر حواجبه الكثيف المثير للحد، وقال :

ـ هذا أمر، يا آنسة صوفى غوردون، صار يزعجنى بقدر عظيم.

أتسعت عيناها الداكنتان متفخنين، وقالت :

ـ إن شهراً آخر سوف يكون بالتأكيد طويلاً بما فيه الكفاية؟ قال

الكسندر ملغزاً، وهو يساعدها على ارتداء معطفها :

ـ يتحتم علينا أن ننتظر ونرى.

كانت صاحبتا طلب العمل اللتان وصلتا فى الظهيرة أكثر من واعدتين، احدهما إمرأة صغيرة السن جذابة فى الثلاثينات من عمرها، والأخرى سيدة بهيجة جداً ذات شعر رمادى وهيئة ومظهر جادين. وكلا المرأتين تم أرسلهما إلى مكتب صوفى ليظه كفاءتهما فى الكتابة على الآلة الكاتبة، وعقب رحيل المرأة الثانية، اقتحمت صوفى مكتب الكسندر لتطلب عنه حكماً عليهما.

تساءلت قائلة :

ـ حسناً، أيهما الأفضل ؟

شغفك لا يحملنى على مدحك. قال ذلك بلذاعة، مضيفاً :

ـ ولكننى أظن أننى يجب أن أعترف بأن المرأتين كلتيهما كانتا ممتازتين.

ـ وبناء عليه أيهما التى تريدها ؟

التفت الكسندر من النافذة لينظر إليها بقسوة :

ـ أنت تعلمين الأمر سلفاً، يا صوفى. أنا أريدك أنت. ولكن طالما أننى قد لا أحصل عليك، أعتقد أن الإختيار الأكثر صوابا هو مدام روجرز الأرملة.

تجاهلت صوفى الخفوت المفاجىء فى نبضها لدى نطقه بكلماته الأولى، محاولة إراحة نفسها، لكى تسمع استحسانه لمدام روجرز الجميل.

قالت مؤكدة له:

ـ أننى على يقين بأنها سوف تكون ممتازة.

قال الكسندر موافقاً :

ـ وليس محتملاً أن أكتشف أن بيرى يطاردها حول آلتها الكاتبة،

أيضاً.

ـ أنا لم أعانى من أية اضطرابات أبداً من هذا القبيل !

ـ لأسباب شرحتها سابقاً.

اقترب الكسندر برشاقة من مكتبها ليستحوذ عليه من كتفيها، قائلاً :

ـ لقد سننت القانون وفرضته أصلاً من أجل اكرام عائلتينا الاثنين.

والآن ـ

توقف الكسندر، ناظراً بعمق فى عينيها، وأردف.

ـ والآن، أحسب أن دوافعى ربما تكون فى جملتها شخصية ذاتية.

ـ هل بوسعى الإنصراف والمجىء مرة ثانية ؟

تسأل صوت صبور من ورائهما، أما الكسندر فقد خل بينه وبين صوفى التى انتفضت غضباً وملالاً، وهى تشرح لبيرى بأن السكرتيرة الجديدة قد وجدت.

ـ وهل هى صغيرة السن وصالحة للزواج ؟

سدد بيرى غمزة عين خاطفة وهى تمر بجواره فى طريقها للخروج.

تشدق الكسندر قائلاً :

ـ آسف أيها الشاب العجوز، إنها سيدة أرملة ذات شعر رمادى ولها ابناء أكبر منك سناً.

قال بيرى مفتعلاً التقوى :

ـ أشكرك يا الهى على ذلك. ظريف أن آتى إلى هنا بدون طرق الباب أولاً. فرت صوفى، وقد أحست بأنها كلما أسرعت بمغادرة شركة بالأيت آند صن، كان ذلك أفضل من كافة الوجوه.

وعلى مائدة العشاء فى تلك الليلة، كرر دكتور غوردون مخاوفه من أن بيت ايليكس الصغير قد لا يكون بيتاً مناسباً لابته، قال بعينين قلقتين :

ـ أتمنى فحسب ألا تشعرى بالوحدة هناك يا صوفى، يا للحماقة، لا أستطيع تحاشى انزعاجى عليك، لسوف أفتقدك، يا صغيرتى.

ـ هذا هو ما قاله الكسندر أيضاً.

أجابت صوفى، وقد شعرت أنها تتمنى لو لم تقل ذلك، لما ضاقت عينا ديفيد غوردون، فأضافت :

ـ ولكن لن يفتقدنى طويلاً، بطبيعة الحال، لقد وجدنا بديلاً لى اليوم.

ـ ولهذا سيكون بمقدورك أن تهجرى العش عما قريب جداً، إذن مضى الدكتور غوردون يلتهم عشاءه، وقد ساورته الشكوك، قائلاً:

ـ غير ان بيت ايكياس الصغير لن يكون جاهزاً بين عشية.

وضحاها، أليس كذلك ؟

ـ كلا ولكننى أستطيع المقام فى غريناكر وقت أنهى الديكورات، وأركب الستائر، وهكذا. أبى، هل لى أن آخذ معى سريرى الخاص بى؟

أكد لها أن بوسعها أخذ أى شىء من المنزل لو أرادت، فوثبت إليه تعانقه بمحبة ورقة، قال :

ـ ما لم تفضل أشياء جديدة كأثاث. أظن أننى أوفر لك قروشك القليلة بإعطائك ما أردت.

أقنعته صوفى بأن بيت ايليكس الصغير سيبدو غريباً شاذاً لو تم تأثيثه بأثاث معاصر، وأعربت :

ـ جدتى تقول إننى بوسعى اقتناء قطعة أو قطعتين من أثاث غريناكر، أيضاً، ولهذا فسأكون سعيدة. إن هذا البيت ستكون أقامتى

فيه محدودة بالخلود للراحة، وعليه فلن أحتاج إلى كثير أثاث.

ثمة مواجهات مزعجة مع الكسندر لمدة وجيزة، لأن صوفى رفضت بصراحة أن تتناول معه الغداء أكثر من مرة واحدة فى الأسبوع.

وتعمدت أن تنفق كل أجازة نهاية أسبوع مع جدتها، حتى يتسنى لها انهاء ديكورات منزل بيت ايليكس الصغير، تاركة كيت تقوم بعرض وتورية بيت غوردون للمشترين المقبلين. وعهد بالبيع إلى سام لأيفورد، مما زاد من دهشة صوفى. لقد جاء ليقيس البيت بنفسه، وبعد ذلك اقترح بحياء دعوتها على الطعام فى أى مكان فى مساء اليوم التالى، حيث إنهما سيكونان قريباً فى العمل سوياً. وافقت صوفى، وقد اكتشفت أنها تمتعت بالسهرة معه بأكثر مما كانت تتوقع. إذ أنه كان سهل القياد، على النقيض تماماً من كل من لأوليان والكسندر، فالوقت الذى ينفق مع الكسندر بعيداً عن العمل تشوبه نكهة واثر الهدنة المسلحة هذه الأيام، التى تحفل بالكلمات غير المنطوقة، وتخفه الأحاسيس بأنه فى أى لحظة، ربما تخلص من الحاجز التى حاولت الحفاظ به بينهما.

أما لأوليان، من الجانب الآخر، فهو يتعامل معها كأمر مسلم به، وهى قد علمت ذلك، ولم يزعجها هذه الحقيقة تماماً.

وبالتالى، كان تشوق وشغف سام لأيفورد أن يسعدها أمراً منعشاً لها. تشككت صوفى فى ذلك الأمر، ونبعت شكوكها من تجربته الأليمة الأخيرة فى الطلاق. لقد كان يعانى من الوحدة وقد أبدى لها ذلك. كان وقتاً ظريفاً للتسلية وهى تحلل الخلافات والاختلافات الكامنة فى شخصيات الرجال الثلاثة، حينما كانت تتناول طعام العشاء مع سام لأيفورد، أو أثناء القيام برحلة إلى المسرح مع لأوليان.

كان الأمر باعثاً على الإنزعاج، حين تحققت من أنه خلال أى

وقت أنفقته مع الكسندر، سواء فى العمل أو خارج العمل، لم يرد على خاطرها ولم يدر بخلدها أى تفكير أو تذكر لأى من الرجلين الآخرين. أو لأى مخلوق آخر. وهو الأمر الذى أصاب صوفى بالأسى لما وعدت بالمكوث فى المنزل مع أبيها حتى حلول موعد حفل الزفاف. ولقد حان الوقت لكى تعدِّ نفسها وترتحل.

ولم يكن ليجدى كذلك أن تنقلب ناكثة على الطريق التى بدت وكأنها تجتازه مع الكسندر هذه الأيام، ذلك لأنها اقتنعت بأنها ستؤول إلى انكسار القلوب.

قالت فى نفسها، متى ما أحدثت الانفصال وارتحلت إلى ديتزبرى، سوف ينصلح كل شىء. حيث إنها كانت فى بيت ايليكس الصغير، سوف تكون آمنة.

قال الكسندر ذات صباح :

ـ لقد سمعت أن الناس رأوك تتناولين طعام العشاء مع رجل جديد فى الآونة الأخيرة.

فقالت صوفى : ـ إنى أتعرف على رئيسى الجديد.

ـ أتعشم ألا تكون معرفة حميمة.

قالت صوفى وقد تلألأت عيناها بنظرته المحدقة وعينيه الخضروين الباردتين بوقار :

ـ كما ينصح به بين صاحب العمل واحدى الموظفات.

لملم الكسندر الذى كان يرتدى معطفاً داكناً وحلة رمادية غير زاهية متوجهاً إلى لندن، حقائبه وطوى المسافة إلى الباب، وقال :

ـ لأول مرة أشعر بالراحة لأنك سوف تتركينى.

أحدقت فيه بتحدى. طمأنها بابتسامة مفترسة مميزة، قائلاً :

ـ لم أقصد أن أهينك. بما أنك تصفين الحدود للعلاقات المهنية فى العمل، أتطلع إلى اليوم الذى تكون فيه علاقتك بى، يا صوفى،

علاقة شخصية بحتة.

واثنى لها بانحناءة كلها تهكم ورحل إلى مؤتمره، تاركاً صوفى وكأنها قد هزمت هزيمة منكرة.

أعطى غياب الكسندر لصوفى فرصة ذهبية لتلقين مدام روجرز الدروس المستفادة فى حركة دولاب العمل فى شركة بالأبت آند صن. وكانت السكرتيرة الجديدة تتعلم سريعاً، وأبدت دلائل على أنها تتقدم بسرعة مرضية. أما روح الفكاهة اللازعة التى اتصفت بها، فقد ساعدتها على الألفة والتآلف مع بيرى، وأما اهتمامها بأطفال لأورلا هانقل، فقد حببها إليه، وكذا صار صغار المصممين الهندسيين والمصممون تحت التمرين ــ صاورا عبيداً لها منذ البداية، لأن مدام روجرز كانت تحضر معها حقائب من الكعك المصنوع بالمنزل، لتقديمه وقت تناول القهوة.

ألمح بيرى، وفمه مليىء بالكعك ذات يوم، قائلاً :

ــ هذه حسنة لم تدركيها يا صوفى، لماذا لم تعدى لنا أبداً الكعك.

أخبرته صوفى بفظاظة أنها ما صنعت كعكاً قط إلا وقد التهمه مانيو ومارك، والآن وقد رحلا، فلم تر حاجة إلى إضافة أعباء إلى أبيها أو نفسها. ثم سرعان ما تطرق بيرى إلى النظر إلى خصرها وأصدر رأيه عن جمالها، بكلمات جعلت وجهها يحمر خجلاً، وأضاف أن عينه ليست الوحيدة فى المكتب التى تتلقى المتعة فى النظر إلى مفاتنها، وقال متوسلاً :

ــ إكراماً لى، لا تخبرى الكسندر بأننى قلت هذا. فهو سريع الغضب بطريقة لا تصدق، كلما ثار أمر يتعلق بك هذه الأيام. فأنت تعرفين ماذا تعنى ضربة من الرجل ذى العيون الخضر.

تعرضت مكانة صوفى المبجلة للتلف من جراء دعوتها للرد على مكالمة سام لأيفورد الهاتفية، الذى كان طلبه لصحبتها على طعام

الغداء قد بدا أمراً ملحاً للغاية. تساءلت على مضض، وهى مدركة أن عينى بيرى اللعوبين الزرقاوين تحدقان فيها بعبث :

ــ حسناً، هل ثمة مانع من الخروج لتناول الغداء مبكراً بعض الوقت ؟

مدام روجر ههنا تتولى حراسة الحصن نيابة عنى.

أشار ملوحاً بأصبعه :

ــ بكل سرور يا حبيبتى، انطلقى. إن غاب القط، إلعب أيها الفأر، وخلافه.

كان سام لأيفورد ينتظر صوفى فى احدى الكافتيريات الهادئة بعيداً بما فيه الكفاية من ميدان السوق، وهى عبارة عن مؤسسة نادراً ما يرتادها رجال الأعمال بالمدينة.

اختارت صوفى هذا المكان عمداً، فقد كانت تكره القيل والقال عن مبادىء الأب إن هى شاع عنها أنها تتناول الغداء مع صاحب العمل الجديد فى مطعم لأورلا، بينما هى لا تزال تعمل لصالح الكسندر، كما كانت مقتنعة فى نفسها، بأنه لا شأن للأخير وحياتها الخاصة. كما أن إختيارها لموعد ومكان اللقاء لم يتأثر بالرغبة فى مقابلة سام لأيفورد دون أن يراها أى شخص تعرفه.

لكن الأمر الذى أزعجها هو ما الذى جعله يسافر ثلاثين ميلاً ليراها فى منتصف نهار العمل. وتزايدات مخاوفها فى اللحظة التى رأت فيها سام. فقد كانت عليه هالة من القلق والاضطراب، على الرغم من سحر وفتنة إبتسامته ذات الحياء.

قالت مترددة حينما انضمت إليه :ــ

ــ أهلاً. ما الذى أتى بك إلى ديتزبرى فى هذا الوقت من النهار ؟ هل هو العمل ؟

ــ ليست المتعة بكل تأكيد، يا صوفى.

قال ذلك وهو يحلق فى قائمة الطعام بدون أن يرى شيئاً. قالت بلطف:

ـ الجبن المذاب فوق الخبز المحمص على الطريقة الويلزية (أهل ويلز) جيدا جداً هنا.

دفع قائمة الطعام جانباً، وقال:

ـ فى الحقيقة أنا لست جائعاً. وسوف أتناول بعض القهوة.

ابتسمت صوفى مشجعة وهى تضيف: هل هى العقابات غير المتوقعة فى بيع البيت ؟

ـ كلا.

التقت عيناه بعينيها وقبهما نظرة بائسة، وأردف:

ـ لقد وقعت فى عقبة غير متوقعة فى موضع مختلف تماماً، فى حقيقة الأمر. إنها سكرتيرتى.

أخفق قلب صوفى قائلة:

ـ أوه. يا عزيزى.

ابتلع ريقه بتشنج، وهو يحدق فى القهوة نحو الأسفل حينما وضعتها النادلة أمامه، وقال:

ـ أشعر بالمقت عن كل هذا، ولكننى، حسناً، أنت تعرفين البنت التى تعمل لأجل الآن ـ

ـ السيدة الحامل.

ـ تماماً. لقد افترضت أنها سوف تترك العمل تلقائياً مع مجىء مولودها. ولكنها لم تفعل. أعنى لا ترغب فى ذلك. فهى تريد العودة براجها عقب ولادة الطفل.

راحت صوفى تراقب رأسه المنحنى فى سكون، وقالت:

ـ لم تكن تعلم ؟

نظر إليها بيوس قائلاً:

ـ أنا بائس تماماً من حسن التصرف فى الموضوعات التى تتعلق بالنساء. فهى تتوقع ألا تتزوج بالمرة، هل تفهمينى، وهى بحاجة إلى الوظيفة ـ حتى أنها جاءت بشقيقة لها تسد مسدها حتى تعود ثانية للعمل.

أفلتت صوفى منه وربتت على يده، وهى تقول مبتسمة:

ـ لا تقلق، يا سام. سوف أرى لى عملاً آخر.

غطى يده بيده، وأضاف:

ـ هل هذا يعنى أنك سوف تتوقفين عن رؤيتى مرة ثانية بعد الآن ؟ فى الإجتماعيات ؟

ـ بالطبع لا.

أنتهت صوفى من قهوتها ونهضت واقفة:

ـ على أية حال، أفضل العودة الآن. سوف أحدثك هاتفياً حينما أستقر فى بيت ايليكس الصغير. وباستطاعتك الحضور فى أى وقت لاحتساء الشاى وغيره.

تبعها سام لأبفورد وهى تخرج، وقد بدا عليه الحرمان والبؤس. فابتسمت فى وجهه بابتهاج، وودعته وداعاً رشيقاً، وشقت طريقها عائدة إلى شركة بلاميت آند صن، شاعرة بالحزن والأسى على نفسها. فما الذى سوف تعيش على الأرض من أجل أن تفعله الآن ؟ وراحت تتفكر فى ذلك فى رعب وفزع ؟

كان الدكتور غوردون حاسماً جداً بآرائه عندما أخبرته فيما بعد بأن الوظيفة الجديدة فى أرليسفورد قد ضاعت فى مهب الريح. لقد استهجن بقوة رحيل ابنته للمعيشة بمفردها بلا عمل أو وظيفة فى المستقبل.

ـ طالما كنت فى مثل هذا التسرع الباعث على النوم، من أجل تنظيم وترتيب الأمور للسكرتيرة الجديدة التى سوف تحل محلك فى

شركة بالأبت، فإننى أفضل لك أن تبقى مع كيت ومعى فى بيت الشانترى، حتى تجدى لنفسك ما تفعليه، من أجل الوصول والمقام فى بيت ايليكس الصغير.

كادت صوفى تبكى وتنتحب. بدلاً من ذلك ابتلعت ريقها بمشقة استجابة لهذا القرار الأمر الديكتاتورى غير المعتاد، وأعدت نفسها للتفرغ لمساء مخصص للرد على المكالمات الهاتفية. لأن الليلة كانت ليلة دكتور غوردون فى تلقى مكالمات، بالإضافة إلى مباهج إعداد طعام أبيها المفضل فى اليوم التالى، ومعالجة كومة من الملابس التى فى حاجة إلى الكى، وليس من بين ذلك شىء يُعَدُّ واحداً من الأشياء العشرة المفضلة لديها وتهواها.

وجاء استدعاء لأبيها قبل أن يتوافر له الوقت لازدراء قهوته، تاركاً صوفى بمفردها لتدبر ملياً سخرية القدر الذى أخذ يتم ما أعطاه باليد الأخرى. وأثبتت مدام روجرز بسرعة كفاءتها حتى أن صوفى تهورت،وأعلمت بيرى بأنها سوف ترحل أعتباراً من يوم الجمعة القادم، وهو الأمر الذى كان يعنى أسبوعاً آخر فقط بمرتبها الحالى. والكسندر صاحب عمل عادى جداً فهو يستوفى حقه كاملاً عملاً عن كل جنيه يدفعه، غير أنه أيضاً يتوقع أن يدفع بكومه المكافأة، وأما صوفى فقد جمعت بيضة عش ضئيلة ومريحة، لتعاستها. وكان مدخرة للطوارىء مثل الستائر الجديدة والسجاجيد فى بيت ايليكس الصغير، وليس لتغطية نفقاتها، ومصروفاتها، حتى تجد عملاً جديداً، أو إذا وجدت فعلاً الوظيفة.

ردت صوفى على التليفون عدة مرات أثناء المساء، أحياناً رداً على مريض موهوم منزعج، وأحياناً أخرى رداً على أبيها الذى كان عادة يتصل هاتفياً ليعلم من أبته إلى أين سيذهب والمكان الذى يحتاج الناس إليه فيه فيتوجه لهم.

كانت القائمة أكبر من المعتاد، بما فيه الكفاية لتحجب الدكتور غوردون وتجعله مشغولاً طيلة الليل، نظراً للمسافات المطلوبة قطعها من أجل الوصول إلى المرضى، فى المقاطعات البعيدة، وكانت صوفى قد أعدت طعامها، وكانت قد انتهت من كى نصف الملابس، عندما دق جرس الباب. فتنهدت وهى تأمل الا يكون مريضاً يسكن بالقرب منهم، وقد جاء بنفسه لأبيها ليكشف عليه، ثم حدقت بدهشة، حينما اكتشفت أن الكسندر واقف على عتبة الباب، وقد بدا عليه التعب وشحوب الوجه، وهو يرتدى الملابس التى لبسها من أجل الذهاب إلى لندن.

سألها قائلاً:

ــ هل لى أن أدخل ؟

ــ بالطبع.

جاهدت صوفى نفسها لتكبت نوبة الإثارة التى انتابتها لدى رؤيتها له، وأصطحبته عبر الطريق إلى المطبخ.

ــ هل لديك مانع إذا استأنفت كى الملابس ؟

سألته، وهى تلمحه بفضول، وتحدد الكرّ بالهجوم على كومة القمصان، واستفسرت:

ــ ماذا دهاك، يا الكسندر ؟

راقبها ناظراً إليها، بينما كان شعاع الضوء يرسل ومضات من الذهب من شعره الجميل الكثيف، ويثبت علامات التعب تحت عينيه، واللحية المتروكة على فكّه وكأنها طليت بالفضة.

ــ لقد قمت بزيارة خاطفة قبل الرجوع إلى البيت، يا صوفى، ووجدت بيرى تاركاً لى مذكرة محتوية على أجزاء مختلفة من المعلومات، أكثرها أهمية هى الأخبار عن أنك سوف تتركينى أعتباراً من الأسبوع القادم.

يا لى من حمقاء، علمت صوفى ذلك فى نفسها. ونكست رأسها قائلة:

— أجل. مدام روجرز رائعة للغاية، وبناءً عليه لا أرى وجهاً للمقام أكثر من ذلك. وهى سوف تأتى مرة ثانية بعد يومين للتبديل.

— فهمت.

ساخ الكسندر هامداً على أحد الكراسى الطويلة، وقال:

— أظن أن لايفورد لا يطيق صبراً.

طوت صوفى أحد القمصان بعناية، وقالت:

— ليس بالضبط. يبدو أننى قد قمت بعد فراغى مبكراً جداً قبل الأوان. لقد جاء سام لايفورد إلى ديتزبرى اليوم ليخبرنى أن سكرتيرته تريد الوظيفة لكى تسترجعها لنفسها متى ما ولدت الطفل. إذ أنها لم تتزوج ويعوزها المال. وبناء عليه سيتعين على أن أبدأ فى البحث عن وظيفة؛ وهذا جزاء حسن جداً لى، أعتقد ذلك. يا لها من تجربة جديدة.

أنطلق الكسندر من مقعده، وفصل الكهرباء عن المكوى، ثم استحوذ عليها ممسكاً بأيديها، قائلاً:

— يوسعنى أن أمنحك وظيفة بديلة، يا صوفى.

حدّقت فيه وقد أخذتها المفاجأة، وأخذ نبضها يرتفع عندما التقت عيناها بالوميض المتوهج فى عينيه الخضراوين. أسرع معدل تنفسها، وأجرت حافة لسانها على شفتيها اللتين جفتا على حين غرة، حينما جذبت الحركة السريعة لحدقتى عيون الكسندر كالمغناطيس.

— صوفى —

كان صوته أجش وهو يجذبها نحوه بضراوة وهو يقول:

— لماذا لم أحلم أبداً أنك سوف تكونين نارية ملتهبة هكذا، أنى لأعجب؟

حاولت صوفى جاهدة أن تسيطر على أنفاسها، وقالت تغمغم:

— يوسعنى أن أقول نفس الشىء.

— إذن شعورنا متبادل؟ هل أنا أتخيل هذا — الإنفجار فى كل مرة أمسّك فيها؟

— كلا. قالت ذلك بحده.

— ألم تتمتعى به؟

— أنا لم أقل ذلك.

جثم الكسندر على المقعد، جاذباً إياها لتقف بين ساقيه الممتدتين تململت صوفى، وهى مدركة بأنها كليهما لم يفيقا من تبادلهما للمتعة الملتهبة.

وقال بهدوء:

— صوفى. لقد ذكرت فيما سلف أن لدى عرضاً اقتراحا بديلاً لأفعله. أليس بك فضول لكى تسمعى ما هو؟

عضت صوفى على شفتها، وهى على يقين من أنها تعلم ما الذى سوف يقوله. تآلفت روحاهما وتطابقنا حتى صارا كتلة واحدة. هذه الكيمياء، المفاجئة المكتشفة حديثاً بينهما، فقدانها للواظيفة، ألم الكسندر الشديد الذى لقيه فى المعاملة على أيدى ديلفين، كانت تخشى صوفى أن يتراكم مؤدياً إلى اقتراح الزواج الذى لا تريده. إنها تريد الكسندر، هذه حقيقة، ولكن ليس الكسندر بعد هزيمته أمام ديلفين.

قال الكسندر مداعباً:

— تلك نظرة تحليلية جداً. وأضاف:

— هل أنت تحاولين أن تخمنى ما الذى فى عقلى؟

كانت صوفى غير سعيدة بتيقنها مما فى عقله.

— أحسب ذلك، يا الكسندر، ولكن من فضلك، أنا لا أريد أن..

هزها بخفة قائلاً:

— هاى! انتظرى حتى تسمعى اقتراحى، على الأقل قبل أن تسكبيه على الأرض! لا شىء شرير، أعدك بذلك. ظننت فحسب أنه طالما الوظيفة مع سام لايفورد قد تبددت الآن، فيوسعك أن تستأنفى العمل من أجل بدلاً منه.

www.liilas.com

الفصل السابع

أصبح وجه صوفى شاحبا من جراء الدهشة، بينما ضاقت عينا الكسندر حتى صارت تومضان ومضات مثيرة للقلق. قال :

ـ أنت لم تعرفى ماذا كان يدور بخلدى، ألست كذلك ؟

ووضع أصبعا تحت ذقنها، وأضاف :

ـ يا صوفى غوردون ! هل ورد على خاطرك أننى كنت على وشك أن أطلب منك الدخول إلى فراشك ؟

قالت صوفى وقد شحب وجهها، وأصابها الضعف وهى فى حالة ارتياح :

ـ أجل.

يا إلهى، وصلت بها الصراحة إلى هذا الحد الذى تجعل فيه من نفسها إنسانه حمقاء بلهاء. صمتت برهة ورشقت الكسندر بابتسامة ضعيفة :

ـ آسفة.

هز رأسه بحزن قائلاً :

ـ لا تعتذرى، فلو كنت أية انسانة أخرى واقعة تحت هذه الظروف الخاصة، لكنا فى الفراش فى تلك اللحظة عينها، ونحن ننهى ما كنا قد بدأناه. ولكنك أبنة أبيك ـ

أكملت له صوفى قائلة :

nooran

ـ وأنت ابن زوج العمة كيت.

ـ قال الكسندر بتركيز :

ـ هذا أمر لا يغير من حقيقة أننى أريدك كالمجنون مثلك تماماً.

ـ ولكن لماذا ؟

كان سؤال صوفى يعكس فضولاً عميقاً لديها.

ـ أنا كما كنت بنفسى التى لم تتغير أبداً يا صوفى.

ـ إذن علمت لماذا، فربما أكون قادرة على أن أكف عن احتياجى إليك ! فالحب عبارة عن أخذ وعطاء. وإذا علمت أننى لن أستطيع الاستحواذ عليك، فهذا أمر يجعلنى أريدك أكثر فأكثر.

ـ تماماً بنفس القدر مثل ديلفين.

ـ أوه . كلا .

جذبها الكسندر مقرباً إياها إليه أكثر وأكثر وقال :

ـ ليس بنفس القدر من الإبعاد مثلما فعلت ديلفين، مادمت قد ذكرتيها. لسبب واحد فقط، هو أنها لم تسمح لى بأن أعبث بها تالفاً هندامها ـ

ـ وفر على نفسك التفصيلات القذرة !

قالت ذلك صوفى وهى تكافح من أجل أن تخلع نفسها وتتخلص منه، غير أن ساقيه التفتا عليها كالمقص لتحتجزها كالسجينة، بينما كان هو يهزها هزاً عنيفاً نحوه.

ـ أنت التى فتحتى الموضوع، وأنا أحاول توضيح الأمور فحسب.

كان ثمة شىء واحد واضح جداً لصوفى، وهى واقفة بين وركيه القويتين بالعضلات، بينما هو يشدها إليه كما كانت، ألا وهو أنه كان من المستحيل تجاهل كم كان يريدها. لقد كان النبض القوى كدليل على ذلك يضرم النيران فيها، عبر القماش القطنى وقماش الجوخ

الفاخر.

قالت لاهثة :

ـ الكسندر ـ

ـ صوفى.

همس كالصدى، ورفعها بقوة مفاجئة من قدميها، وأقعدها على حجره، ممسكاً بها ولا يزال، متجاهلاً مجهوداتها للتخلص منه، وقال:

ـ أظن أننى كنت أريد ديلفين. ويعلم ا، أنها كانت جميلة بما فيه الكفاية. أما أنت فالأمر يختلف معك. مختلف جداً.

هدأت نبرة الإخلاص العاطفى فى صوته من روعها، بينما كان هو يتشبث بها فى حجره كما لو كانت طفلاً فى المهد، وهو يحدق فى عينيها كما لو كان يريدها أن ترى أنه يتحدث الحقيقة، وأضاف :

ـ أنت لست جميلة، ولكن دمك خفيف، وهذا هو المهم. يا صوفى لا يهمنى قيد شعرة ما إذا كنت ترتدين ملابس كهذه، أو ترتدين ملابس تجعلك كالعربة المدرعة المصفحة وأنت ذاهبة إلى العمل، أو حتى وأنفك أحمر وعيناك متورمتان كما كانتا فى الليلة التى جعلتك غضبى حتى أنك هرعت إلى فراشك. أنا لازلت أحترق بنفس الدافع لأن أنتظك رافعاً إياك لأعلى وأحملك على حجرى.

تساءلت صوفى، وقد أفلتت :ـ أين.

أصابتها ابتسامة برعشة امتدت فى أوصال جسدها وعمودها الفقرى.

قال :

ـ لست متأكداً ـ أعتقد أنه فى كهفى.

قاطع جرس الهاتف لحظة الخطر، جاعلاً كلهما يقفزان صب الكسندر لعناته، وانزلقت صوفى إلى الأرضية لترد عليه، وهى تترنح على أقدامها من تأثير الدوافع الجديدة المتحررة غير المكبوحة والتى

كانت تعتقد ـ منذ بواكير حياتها وحتى فترة مؤخرة جداً ـ أنها إنما حق من حقوق أولئك النسوة الأخريات. سألها أبوها :

ـ هل أنت على ما يرام ؟

تنحنحت صوفى قائلة : نعم يا أبى، على ما يرام. ليس ثمة مزيد من المكالمات.

ـ عظيم. ثمة مريض أخير سوف أذهب إليه وأعود إلى البيت.

تبعها الكسندر إلى الصالة، وهو يهز كتفيه فى معطفه، قائلاً:

ـ أفضل أن أنصرف، أليس كذلك ؟

قال هذا باكتئاب، وأضاف :

ـ قبل الانصراف، هل يوسعنى الحصول على اجابة عن سؤال الوظيفة ؟

ـ لكن، يا الكسندر ليس بمقدورك أن تقول لمدام روجرز أنك قد غيرت رأيك ـ وأنك لست بحاجة إلى سكرتيرتين.

ـ آه، ولكننى أقدر. ما رأيك فى الفرع الجديد فى أرليسفورد ؟

أضاءت عينا صوفى كالمصابيح، وقالت :

ـ أوه، يا الكسندر ـ هل تعنى ذلك ؟

ـ بالطبع أعنى ذلك ! لماذا تحسبين أننى غيرت طريقى للمجىء إلى هنا هذه الليلة ؟ ثم وجه نظرة ساخرة، وأردف :

ـ هذه ليست الحقيقة كلها، وإذا كنت أميناً فإننى أقول جئت آملاً أن أقتنصك وأنت بمفردك ههنا.

انزلقت عينا صوفى بعيداً عن عينيه، وهى تقول :

ـ لربما كنت خارج المنزل.

ـ أخبرتنى كيت أنك دائماً تكمثين فى البيت، عندما يكون لديفيد مكالمات.

ـ ربما كنت غير وحيدة.

هز كتفيه، وهو يستند على قائم الدرابزين، قائلاً :

ـ حقيقى. وحتى أواصل حديثى عما كنت أتكلم بشأنه، أنت تعرفين أن بيرى سوف يدير الفرع بعض الوقت، ولكن فى البداية يعوزنى أن أجعله يقف على قدميه بنفسى. وتعوزنى سكرتيرة ذات خبرة، تستطيع التصرف بمفردها وإدارة عجلة العمل فى أوقات غيابى منذ البداية، طالما كان يتعين على كأمر طبيعى أن أقسم وقتى بين أرليسفورد وديتزبرى. باختصار، أنا أحتاج إليك يا صوفى.

لفت صوفى ذراعيها حوله، بتهور، وهى ترفع رأسها إلى الخلف لتبتسم فى وجهه بإشراق وتألق، قالت :

ـ أوافق، يا الكسندر بإمتنان.

ابتسم بانشداه ساخر وقال :

ـ لماذا تشكريننى يا صوفى، لم أعتد على هذا التقدير منك.

ـ بينما كنت دائماً بعيداً جداً جداً عن النساء الأخريات !

قالت ذلك، وهى تكشر عن ابتسامة، ثم تفكرت برزانة وأردفت:

ـ لكننى أقصد ذلك، يا الكسندر، فأنا فعلاً ممتنة. لقد كنت يائسة جداً قبل مجيئك، لأن أبى كان يسن القوانين بشأن إقامتى معه والعمة كيت حتى أستطيع إيجاد وظيفة فى أرليسفورد.

ولم يكن بوسعى النقاش والجدال لأنه لم يحدث أن كان يقسو كأب على.

أشاحت بوجهها وهى تقول :

ـ لا أستسيغ أن ألعب دور العزول مع زوجين حديثى العهد بالزفاف.

ضحك الكسندر، وانحنى ليقبلها وقال :

ـ حسناً، الآن لن تكونى مكرهة على الذهاب معهما. لقد أخبرتك بأننى قد اعتقت دور الملاك الحارس لك.

نظرت صوفى إليه مفكرة ملياً لمدة لحظة، وقالت :

ـ يبقى بعد ذلك شيىء واحد. فى حقيقة الأمر تعوزنى الوظيفة فى أرليسفورد للغاية، غير أنه كيف أستطيع تدبير الأمور ؟ أقصد أن الأمور ستكون خاضعة لقواعد الأعمال بصرامة.

تورد وجهها خجلاً، وقالت :

ـ أوه. ذلك يوحى بأن الأمور تحتاج إلى رأس كبير.

ما أريد أن أقوله ـ

ـ هل هذا هو ما يجب ألا استأنفه رداً على امتنانك.

قال ذلك برزانة، وأضاف :

ـ تقصدين ألا يكون ثمة متعة وألعاب فى المكتب.

ـ لم أعنى ذلك تماماً، أنا فحسب أتساءل قائلة إننا سوف نعمل معاً كما فعلنا دائماً.

ـ بالطبع، ولكن بشرط واحد. هو أنك تسمحين لى بمعاونتك فى تزين بيتك الصغير المحبوب.

ضحكت، قائلة :

ـ لا تقلق ـ سوف أكون بحاجة إلى معاونتك لى بفرشاة الطلاء.

ـ آه، ولكننى أصر على امتهان حقوق الإحتكار لهذه الوظيفة.

بومضة من عينيه الخضراوين، قال لها تصبحين على خير، وانطلق، تاركاً صوفى فى حالة الابتهاج مكنتها من إنهاء كى جميع الملابس، وإعداد صينية قهوة وساندوتشات، لأبيها حينما يعود أخيراً للمنزل ليسمع الأخبار السارة.

ضرب لأوليان بريت على الوتر الحساس فى حياة صوفى فى الأيام التى أعقبت ذلك، وأدهشها كثيراً باكتئابه من جراء رحيلها الوشيك.

لكنك كنت تعلم منذ فترة طويلة أننى بسبيل للرحيل يا الكسندر.

قالت ذلك وهى بعد قد أخذت على حين غرة، من جو الغم الذى شاعه، بينما كانا يتناولان طعام العشاء معاً فى المطعم الايطالى المفضل للأوليان.

كان لأوليان رجلاً فى الثلاثينات من عمره، ذا وجه شاحب وشعر داكن كثيف جداً. وكان يعمل قيماً «أميناً» فى متحف ديتزيرى، ويعيش معه أمه فى منزل شاسع مليىء بالأنتيكات «الآثار القديمة»، ويتمى إلى العصر الفيكتورى، ويقع على مبعدة حجر واحد من المكان الذى كانا يقعدان فيه ذات اللحظة.

أعاد ملء كأس خمر صوفى واثنى للوراء فى كرسيه، وهو يتفرس فيها بعينين بيكاءتين مليئتين بالدموع.

قال:

ــ حسبت أنك سوف تعملين لحساب الشاب لأيفورد.

احتست صوفى خمرها، وهى تشعر بالاضطراب، وقالت:

ــ لقد قلت لك إن الفرصة ضاعت، يا لأوليان. وإذا لم يكن الكسندر قد أتى فى الوقت المناسب بالوظيفة فى فرعه الجديد فى أرليسفورد، لكنت قد اضطررت إلى المكوث ههنا، حتى أجد شيئاً آخر.

أشار قائلاً:

ــ على الأقل، كنت تبقين آمنة تحت سقف أبيك. وكان باستطاعتنا الخروج سوياً كالمعتاد.

ــ أوه، حقاً يا لأوليان، إن الأمر الواقع قد يكون هو كل شىء وينهى كل وجودك، ولكن يحدث أن أتوق للتغيير.

ــ كما أرى يا صوفى، التغيير الوحيد فى حياتك سيكون الحقيقة بأنك تعيشين فى البيت الصغير المتداع للسقوط، بدلاً من هنا. وإلا فإن نهار العمل سوف يستأثر به الكسندر الأكبر كالمعتاد!

عبست صوفى فى وجهه وقالت، تزيل أى ذرة من الشك!

ــ لا تكن ماكراً. أنت تحب المقام فى المنزل مع أمك، ولكننى، أحب عائلتى، وبرغم ذلك، لا أستطيع الإنتظار ولا أصبر على حاجتى إلى بيت صغير خاص بى.

أدار لأوليان ملعقة القهوة وتنحنح مسلكاً زوره عدة مرات قبل أن يقول بيأس:

ــ تستطيعين أن تتزوجنى يا صوفى.

وأبقى عينيه مثبتتين على فراش المائدة، حيث كانت الدهشة المطلقة على وجه صوفى، لا يمكن أن توصف أبداً بأنها مداهنة.

قالت بلطف:

ــ ولكن يا لأوليان، أنت لست تريد الزواج.

نظر إليها متوسلاً:

ــ ولست أريد أن أفقدك، أيضاً، إن أمى لن تعيش إلى الأبد، وأنت لم تبدى أى دلائل على الزواج من أى إنسان آخر، أبداً فى الواقع، أنت كنت تقولين دائماً أنك لا تريدين الأولاد، وهو زمر أحبه. ألن تتدبريه على الأقل؟

لم تستطع أن تصدق أذنيها، قالت:

ــ ولكن يا لأوليان ــ أنت غير مهتم البتة فى الحصول على زوجة.

ــ أنا مهتم بالحصول عليك كزوجة، يا صوفى.

أكد لأوليان لها ذلك، بإلحاح متزايد بأكثر مما حدث لها أن سمعت من صوته قبلاً.

ــ وباستطاعتنا الخروج كما كنا نفعل دائماً. وستكون أمى مسرورة أن تراك تعيشين بيننا، أنا على يقين. لقد بدأت تشعر بالوحدة، كما تعلمين، إنها مغرمة بك تماماً. ولن يكون هناك مدبرون لشئون المنزل ــ إن عائلة باكستر الذين يتولون تدبير شئون البيت، كانوا يعيشون معنا

لسنوات.

راحت صوفى تنقب بجدية عن طريقة تغلف بها رفضها له بكلمات ملائمة غير جارحة زو مهينة، قالت :

ـ حلو وجميل منك للغاية حقاً، يا لأوليان، ولكنك تعلم بأحسن من أى إنسان آخر، أنه لم يرد على خاطرى أبداً الزواج ـ ولا حتى النوع الذى تقترحه.

تبدى لها أنه غير الإحسان أن تخبره بأن الصورة التى رسمها لحياتهما معاً فى المستقبل قد أثارت دافعاً قوياً فيها لأن تولى مدبرة وقد لملمت أطراف ملابسها فراراً من المطعم. بدلاً من ذلك توسعت فى تقديرها للعرض، مشيرة إلى أن أرليسفورد، تبعد فقط ثلاثين ميلاً، وهى مسافة بمقدور لأوليان أن يقود سيارته قاطعاً إياها، ويراها من حين لآخر متى ما استقرت فى بيت ايليكس الصغير.

نظر لأوليان إليها مذعوراً قال :

ـ عزيزتى صوفى، أنت لا تتوقعين منى أن أقود السيارة ثلاثين ميلاً أو أكثر ذات مساء فقط لأخرجك معى لتناول وجبة طعام !

لم يحدث أن أصطحبها لأوليان أبداً إلى مكان آخر بخلاف دينزيرى نفسها، وفى أماكن يتوقعان أن يواجهها فيها معظم سكان المدينة المزدهرة وهم يتجولون ويذرعونها جيئة وذهاباً.

ذكرت صوفى نفسها بتلك الحقيقة، وهى تقاوم دافعاً لديها فى أن تهاجم مرافقها بزجاجة الأشانتى. وخطر على بالها، أن المفاجأة ـ أقل حدة عليها دون غيرها من الناس ـ فى أنه باصرارها على الانتقال إلى أرليسفورد، تكون قد وضعت نفسها إلى مكان يقع إلى ما وراء يد لأوليان بريت.

وفى المساء التالى كانت الليلة متناقضة تماماً مع الليلة الأولى إذ أنه بعد نهار عمل صوفى. الأخير فى فرع شركة بالأيت فى دينزيرى،

أعدت هيئة الموظفين والعمال لها حفل عشاء وداع جميل فى فندق لأورلا، وهى ليلة استحوذت على استحسان وذوق صوفى فى نقيض ليلتها مع لأوليان.

كان بيرى فى الصورة كالمعتاد، جاعلاً الشركة كلها تضحك، بينما كان الكسندر باعتباره المضيف يشرف بنفسه على سلاسة وقائع الحفل بأسلوبه الذى لا يدخر وسعاً، من أجل التودد إلى قلب صوفى بطريقة مفهومة لم يدركها أى فرد آخر على أنها غير معتادة.

وكانت صوفى واعية فحسب بالفارق الكبير؛ ألا وهو الكهرباء العالية التى يؤرخ لها من يوم عودة الكسندر من اليونان، وهو الأمر الذى بدا يكبر ويتكثف، فى كل مرة، ينفردان ببعضهما معاً فيها. خلال الأسبوع كله فى المكتب، كان الكسندر حذراً محترساً بطريقة مرضية، فيما عدا ومضة أثيمه فى عينيه، كانت تلاحظها صوفى وهما معاً فى الحلو، وقد تعمد الكسندر أن يتصنعها خصيصاً، كما علمت هى، لكى يذكرها ـ وهى ليست فى حاجة إلى ذلك ـ بالتغيير الذى طرأ على علاقتهما.

ولكن، حينما كان يجلس الكسندر بجوارها على منضدة العشاء، كان وركه يمس صوفى برفق تكراراً ومراراً مصادفة، وفى كل مرة كان هذا الاتصال يثير صدمة عاطفية من الاستجابة التى تصاعدت وتسامت عبر جسدها كله.

وملأ الجهد الذى بذلته لإخفاء الاستجابة عن عيون العالم كله، ملأها بالإثارة المحرمة، واضعاً حداً لليلة، كان من المستطاع أن تتمتع بها حتى الثمالة، حتى بدون البهجة المضافة فى الجلوس بجانب الكسندر.

لاحظت صوفى أنه شرب قليلاً جداً. علقت بصوت خفيض خافت قائلة :

ـ أنت معتدل جداً هذه الليله.

ـ لسبب وجيه جداً، وهو أننى سوف أوصلك إلى المنزل.

ونظرت عيناه عمداً إلى ثغرها، ثم سرعان ما انتقلت على حين غرة من وجهها المتقد إلى سالى هانتل، زوجة شريكه، نحثها على المزيد من القهوة.

وفى نهاية السهرة، وثب بيرى ليقترح تقديم الخبز المحمص، بينما هو يعدد خصال صوفى بنشاطه المألوف. وبينما نهض كل فرد ليلقى كلمة موجزة، جلست صوفى وكأن فى حلقها كتلة، وقد توردت واحمرت وجنتاها، ولمعت متلألئة عيناها، واجدة الأمر عسير فى الحفاظ على اطراد نبرة صوتها، حينما نهضت استجابة للصيحات المطالبة بأن تقوم لتلقى «كلمة».

وجهت الشكر لكل فرد على الأصيص الخزفى الفاتن، فهم كم كانت سعادتها كبيرة حين كانت تعمل فى مكتب ديزبرى، وكم هى مبتهجة لإتاحة الفرصة لها بالبقاء على الإتصال معهم عن طريق فرع المكتب الجديد.

ثم التفتت عمداً إلى الكسندر، وهى تقول :

ـ أخيراً، وبالتحديد جداً، أود أن أشكر مضيفنا على هذه السهرة التى سوف أتذكرها دائماً بمتعة هائلة.

ـ علق الكسندر على ذلك بينما كان يوصلها بالسيارة إلى بيتها، قال :

ـ كانت تلميحة مكشوفة تلك التى فعلتيها فى النهاية.

ـ لقد كنت مهذبة للغاية.

ـ أنا على يقين من أن كل فرد ظن ذلك. أما انطباعى أنا فقد كان مختلفاً.

ـ هل تذكر أنك كنت تلمسنى تحت المنضدة طلبة الليله؟

ـ كلا. لقد قلتى أننى كنت أحافظ على المسافة بينى وبينك أثناء ساعات العمل. وهو الأمر الذى كنت أفعله.

أضاف ذلك متشدقاً بالفضيلة.

ـ أنت لم تشمل المناسبات الإجتماعية فى التحريم.

ـ إذن يتعين على أن أفعل. لقد كنت كالقطن التى تصطل على الجمر الساخن طوال السهرة.

ـ أنت لم تبدى وتبنى ذلك. اتهمته صوفى قائلة :

ـ ولكنك علمت جيداً كيف أنك كنت تؤثر على، أليس كذلك؟

ـ بنفس الطريقة التى كنتى تؤثرين بها على. أتعشم ذلك.

أوقف الكسندر السياره على مسافة قريبة من المنزل، وقال :

ـ ها أنت قد وصلتى، يا صوفى، إلى بيتك سالمة معافية.

ـ هل تأتى لتناول القهوة.

ـ هل من المحتمل أن يكون أبوك مستيقظاً ؟

ـ أجل.

ـ إذن عفواً، لن أدخل. لست واثقاً من مقدرتى على مواجهة المزيد من الإحباط هذه الليلة. أحدقت صوفى فى يديها المتشابكتين وقالت :

ـ إذن، أفضل الذهاب. أشكرك على هذه السهرة، وتوصيل إياى للمنزل.

اقتربت منه وقبلت وجنته، وعلى حين غرة، انطلقت ذراعاه لتمسكاها، وأطبق ثغره على ثغرها بجوع وتعطش. وحينما رفع رأسه كان ينهج متنفساً بصعوبة.

ـ لقد كنت قد أقنعت نفسى فإن بمقدورى أن أدعك تذهبين بدون عمل ذلك. تمتم وهو يقبلها.

انظرى ما الذى فعلته بى، يا صوفى غوردون ـ الحب فى السيارات مثل تلاميذ المدارس المراهقين ؟!

همست قائلة :

ـ أنا أحاول، لا أستطيع الإذعان لحقيقة أنك ـ أنا ـ

ـ أن صديقين قديمين مثلنا يكتشفان فجأة أنهما لايريدان أن يكونا صديقين، بعد كل شيء.

ابتعدت صوفى قائلة :

ـ أسنا صديقين، إذن، يا الكسندر ؟

ضحك ضحكة عابسة وقال :

ـ صوفى، أيتها الديناميت، بالتأكيد يجب أن يكون واضحاً وبصراحة أننى أريد أن أكون عشيقاً لك، وليس صديقاً !

اخشن صوته وهو يسحبها ويضمها إليه، وبدأ يقبلها مرة ثانية، وامتدت ذراعاها حول عنقه لمدة بضع لحظات منوحشة، وهى تحتضنه وتتشبث به وتضمه إليها بقوة، ثم اقتلعت نفسها منه مبتعدة بجهد خرافى، وهى تلهث للتنفس، وقالت :

ـ يجب أن أذهب الآن يا الكسندر. لا أستطيع احتمال المزيد من هذا. لم أتعود عليه.

أمسك بيدها، وقال :

ـ آسف يا صوفى، لم أقصد أن أخالف قواعدك، أعدك بأن أبذل قصارى جهدى لألتزم التزاماً شديداً بهذا، حينما تبدأين فى المكتب الجديد.

عصرت صوفى أصابعه، وقالت :

ـ أنا التى استحق اللوم. كان يجب ألا أقبلك. أعدك ألا أفعل ذلك ثانية.

ـ لا تقولى ذلك يا صوفى ـ

رفع يدها وقبل راحتها، وهو يثنى أصابعها لتغطى المكان الذى قبله. وقال:

ـ هل سوف أراك فى نهاية الأسبوع ؟

قالت : ـ لا داع لأن نضع خططاً مسبقة يا الكسندر.

ـ ولم لا ؟

ـ وجدت صوفى أنه من الصعب أن تشرح السبب فى الرفض. فقد بدا لها حرجاً أن تقول إنها بحاجة إلى مغادرة البيت وبدء حياتها الخاصة، مبعدة نفسها عن كل شيء ردحاً من الوقت قبل أن تستطيع التفكير فى الكسندر فى ضوء العشيق.

لأن ذلك ما سوف يكون عليه الكسندر، إذا اجتمعا مع بعضهما كثيراً فى الخلوة، وقد اعترفت بذلك بأمانة، حيث ستكون العلاقة دقيقة متطلبة الحذر والحيطة للحفاظ عليها سراً، وكان هذا واضحاً، طالما أن حياتهما قد تشابكتا كالحلقات بهذا القدر من الانصهار.

ـ لم يحن الوقت بعد.

وأضافت :

ـ عما قريب جداً.

ـ عما قريب جداً ! لقد عرفنا بعضنا لمدة عشرين عاماً. فهل ثمة شيء أفضل من أن تعرفى شخصاً ما هذه المعرفة لكى تدعيه يدعوك على الخمر والطعام، بحق الإله ؟

ـ لا تغضب يا الكسندر. إذا كان يجب أن تعرف، أظن أن ذلك سيكون قريباً جداً من بعد ديلفين :

أخرج نفساً عميقاً، وقال :

ـ آه، لقد فهمت.. أنت لازلت تعتقدين أننى لازلت أداوى جروحى.

تدبرت صوفى الأمر ملياً، وقالت :

ـ لم أظن ذلك فى البداية، سوف أعترف. الآن لست على يقين من الأمر، أنا لازلت بحاجة إلى وقت لإلتقاط الانفاس.

قال الكسندر حادًا على حين غرة :

ـ جميل جداً. سوف أمهلك حتى زفاف والدينا. وعقب ذلك...

توقف وهو يحمل مغزى يريد أن ينقله إليها:

ـ عقب ذلك أتوقع تغييراً فى الاتجاه يا صوفى..

تسألت بأسلوب لاذع، قائلة :

ـ تقصد تتوقع منى أن أثب إلى الفراش معك متى ما أدار أبى ظهره ؟

ـ لا، لا أتوقع !

استدار الكسندر فى مقعده وأمسك بكتفيها، يهزها هزاً خفيفاً، وقال :

ـ كل ما فى ذهنى هو الخروج لتناول العشاء معاً انفاقاً ذات يوم، أو تمضية سهرة فى المسرح. لا أكثر ولا أقل مما كنت تفعلينه مع لأوليان بريت لسنوات..

توقف مدة وجيزة، وهو يحدق إليها عمداً فى الظلام، وأضاف:

ـ أم أنه العقبة الكؤود ؟ هل تفضلين صحبته على صحبتى، هل هذا ممكن ؟

كان للغضب الكامن فى صوته تأثير السحر على صوفى إذ فعل الاعاجيب فيها.

ـ الأمر لا علاقة له بلأوليان. فهو حتى غير مستعد للسفر بعيداً حتى أرليسفورد ليواصل ما اعتدنا عليه من الخروج معاً، هل رءيت..

اهتزت أكتاف الكسندر، وقال :

ـ حسنا يا إلهى ! لا يدهشنى ذلك. إن بريت لم يعرف أبداً أن يهتم بأية إمرأة غيرك، بقدر ما أعلم. ولم يحدث له أن كان عاشقاً

متيماً.

استسلمت صوفى لمحاولات الإغراء بداخلها، وقالت :

ـ على العكس. لقد طلب منى الليلة السالفة أن أتزوجه بدلاً من الرحيل.

صار الكسندر أكثر تجمداً، وقال بنبرة حديدية خطيرة :

ـ وماذا كان جوابك ؟

قالت صوفى بأسى وحسرة :

ـ كانت الصورة التى رسمها لحياتنا المستقبلية معاً جذابة كالمجنون. إلا أننى وجدت لدى بعض القوة للرفض. فأنت كما تعلم قبلاً، ليس للزواج مكان فى مشروعات حياتى.

كان يرضيها ويسرها جداً أن تسمع زفيرا الانفجار الذى أخرجه الكسندر علامة على الراحة، قال :

ـ حمداً لله على ذلك. بريت لن يكون زوجاً لك يا صوفى.

كانت صوفى متفقة تماماً معه، غير أنها لم تجد سبباً لأن تدع الكسندر يعلم ذلك. وقالت :

ـ أنا لست سلعه فى السوق معروضة لأى زوج.

أكدت على كلامها هذا، وفتحت باب السيارة، وأضافت :

ـ طاب مساؤك يا الكسندر.

قفز من السيارة ليتمشى معها عبر الحديقة، ليوصلها حتى الباب الأمامى، وقال :

ـ سوف تكون الأمور غريبة كريهة فى المكتب بدونك يوم الأثنين يا صوفى. طمأنته قائلة :

ـ فى غضون يوم أو يومين لن تلاحظ أننى قد انصرفت. بالإضافة إلى ذلك، سأكون قد بدأت العمل فى المكتب الجديد فى الأسبوع المقبل. هل سيكون جاهزاً آنذاك ؟

ـ جزء منه على الأقل. قد تضطر إلى تنقيل السلالم وعلب الطلاء هنيهة، ولكننا سنكون قادرين على التصرف.

كان الكسندر يراقب صوفى وهى تفتح قفل الباب، ثم انتى برشاقة وقبلها بشدة من ثغرها قبل أن يعود ذراعاً المسافة نحو السيارة.

أنصتت صوفى لحظة حتى سمعت السيارة وهى تنطلق، ثم أسرعت الباب ببطء قبل أن تلتف لتجد أباها منحنياً فى ردهة المطبخ، وهو يرتدى الروب دى شامبر، ويراقبها. سألها قائلاً :

ـ هل استمتعت بسهرة لطيفة، يا صغيرتى ؟

قالت وهى تبتسم له بسعادة :

ـ لطيفة جداً فى الواقع. لقد كان الجميع عطوفين جداً لقد اشتروا لى إصيصاً خزفياً جميلاً للبيت الصغير. أوه. باللنكد ـ لقد تركته فى سيارة الكسندر.

قبّل الدكتور ديفيد غوردون خديها بعطف، وقال :

ـ حسبت أنك ربما تشعرين بالكآبة بعد أن قمتى بتوديعهم، ولكننى تساألت صوفى بسخرية :

ـ ماذا كنا سنفعل بدونه؟

ثم ردت القبلة لأبيها، وانصرفت صاعدة إلى فراشها، وهى تعتقد أنها لم تكن لتقلق بسبب تفكيرها فى الكسندر وممارسة الحب معه، إذ اختفى أبوها من حياتها.

ثم قضت بعض الوقت تنظر إلى انعكاس التأثيرات على عينيها البراقيتين فى المرآة، وقد توصلت إلى حقيقة أنه لو خرج الكسندر من حياتها، فسوف يترك ثغرة عظيمة الاتساع، لن يستطيع أى شخص آخر مهما كان أبداً أن يملأها.

الفصل الثامن

اكتشفت صوفى أن أسبوع الأجازة التى حازتها لم تكن فيه حرة كما تمنت. حيث إن معظمه قد أنفق فى تورية المشترين المستقبليين المنزل، وهو أمر وجدت أنه مقيت بغيض. لقد كان الدافع لديها فى أن تعيش بمفردها قوياً كما كان قبلاً، ومع ذلك شعرت بغصة فى كل مرة تتصور فيها أن الغرباء يعيشون فى المنزل الذى ترعرعت فيه. واستشعرت راحة عظمى حينما جاء عرض لشرائه فى الحال من أناس وقوم هى تحبهم كثيراً.

فيما بعد ذلك، قالت صوفى لكيت بالأيت :

ـ وبوسعى أن آخذ أجازة من كل أعمال البيت هذه المرعبة، طالما أن البيت يرتاده الراغبون فى الشراء طوال اليوم وكل يوم! كان البيع السريع للبيت معناه أن صوفى قد تشرح فى وظيفتها فى أرليفورد بقلب جرىء حر. وكان يتعين عليها البقاء فى البيت حتى يتم عقد القران، وبعده اعتزمت البقاء والمكوث لدى جدتها حتى يكون بيت ايليكس الصغير جاهزاً، ووافقت أباها بخنوع لما قال لها أنها سوف تكون حمقاء لو رفضت عرض الكسندر بتوصيلها بالسيارة من وإلى أرليسفورد كل يوم.

وفى السر كانت صوفى تستمتع بالقيادة اليومية للسيارة مع

الكسندر، الذى كان محافظاً بنبالة على وعده فى أن يراعى المسافة والبعد عنها حتى تم عقد القران والزفاف.

ووجدت أيضاً أن الأمر مشبع ومثير فى آن واحد أن تعمل مع الكسندر فى تأسيس الفرع الجديد، وبسرعة كونت انطباعها الخاص عن المكتب المخصص لها واستعمالها الخاص.

كان المنزل الذى يشتمل على المكاتب عتيقاً، ذا غرف ساقمة شامخة، وأسقف ذات أفاريز، ومساحة أكثر من أن تكون كافية، للمكتب الكبير المكسو بالجلد، وجده الكسندر بعد بحث وتنقيب فى أحد محلات بيع الانتيكات الأثرية.

وأحضر مرسامه المهندس الشهير معه من دينزبرى، ومقعد غليظ مصنوع من الجلد من مكتب الإستذكار الخاص به فى المنزل، وبذلك وحتى الوقت الحاضر تكون الأبعاد التناسبية الملائمة فى عرائه قد تحققت لتعطى التأثير الكامل، غير متأثرة فى هذه المرحلة بركام عينات الحجارة، والبلاط والسجاجيد، التى ازدحمت فى كل ركن من مكاتب دينزبرى.

وفرت صوفى الأمن والنظام والهدوء كلما أمكنها، وهى تعلم علم اليقين إن المسألة فحسب هى مسألة وقت، قبل أن يصبح المكان مكتظاً بالطوفان القادم من دينزبرى.

لقد كانت الألفة والدفء ترغبان صوفى فى العمل فقط مع الكسندر طلباً للصحبة، بدون بيرى أو لاورلا هانتل، أو أى شخص آخر من أولئك الذين كانوا دائبى الحركة دخولاً وخروجاً من مكتبها وهم يرغبون فى قضاء حوائجهم. تمتعت صوفى بذلك حتى الثالثة، ولم تترك لنفسها الفرصة للتفكير بشأن اليوم الذى يشعر فيه الكسندر أن بمقدوره التخلى عن أرليسفورد وفرع المكتب هناك، ليقوم على رئاسته بيرى، ويول متراجعاً نحو مكانه اللائق فى معقله فى دينزبرى.

قال الكسندر فى اليوم الأول:

ـ أنت لا تستطيعين رفض تناول الغداء معى، إذ لا أرى سبباً فى خروجك إلى الكافيتيرى القريبة، بينما أكون ههنا أتناول الغداء وحيدا وحيدا بمفردى فى بار يونيكورن.

وكذلك لم ترى صوفى سبباً، فهى أكثر سعادة أن توافقه، ولكنها لم يكن لديها النية فى جعله يعرف. وحيث إنهما الآن بمفردهما فعلياً فى المكاتب، لا يقاطعهما سوى أخصائى زخرفة أو اثنان، فقد بدأت علاقتهما مرحلة جديدة تماماً وبالتحديد. ولم تعد تتجاهل صوفى حقيقة أنها أصبحت أكثر إدماناً على الكسندر، وصحبته. وسرها أن تتذكر أنها قد صارت متعودة عليه كلية كما لو كان صديقاً للعائلة، ورفعت الكلفة بينها وبينه كرتيس لها فى العمل فلم يسبق لها أن اضطرت من جراء المشاعر المزعجة التى تحس بها الآن وهى تتكالف نحوه يوماً. لقد كان الكسندر هناك متواجداً فى حياتها كلها، كأنسان تعاشره بصفة مستديمة مثل أبيها أو شقيقها. بخلاف الشعور بعبادة البطل الذى أنتابها ذات يوم لألكسندر، حينما كانت فى الرابعة عشرة أو تلك الحدود، والذى كان سببه الحسد العنيف من جانب صديقاتها، فى اليوم الذى التقطها فيه الكسندر من المدرسة فى السيارة المبهرجة التى كان يقتنيها فى أيام دراسته فى الكلية.

أما أول عاطفة عميقة حقيقية أحست بها نحوه، فقد كانت تعاطفها معه، فى اليوم الذى غدرت به فيه ديلفين ويندهام على الملأ والعامة. ومنذ ذلك اليوم لم يكن متسطاعاً أو ممكناً أبداً، أن تستأنف العلاقة القديمة العادية مع الكسندر، لأنه كان قد خرج من الصدمة التى منى بها كبرياؤه، وهو رجل مختلف كلية.

رجل استيقظ بين ليلة وضحاها على حقيقة أن سكرتيرته الكفء المألوفة، ليست فحسب فتاة كان يعرفها طوال حياتها، ولكن إمرأة

ذات جاذبية، صار مدركاً على حين غرة بأنه تفاعل معها بقوة.

ـ أنا أتصرف بإفراط كثيراً، ألا توافقيني على ذلك ؟

سألها هذا السؤال وهو معتد بنفسه، وقت تناول الغداء عند نهاية الأسبوع الأول فى أرليسفورد.

ضحكت صوفى قائلة :

عمود ثابت من الاستقامة ؟

إذن دعيني آخذك لنخرج إلى أى مكان يوم السبت كمكافأة لى.

ـ لا طائل من وراء ذلك يا الكسندر. لقد قلت إنه بعد عقد القران.

بالإضافة إلى ذلك، أنا أتفق اليوم مع العمة كيت، أتسوق الأشياء التافهة حتى آخر دقيقة.

وأما الكسندر الذى كان يبدو أنيقاً وهو يرتدى الفانلة الرمادية ذات الخيوط الطباشيرية المقلمة، تنهد ينظر إليها عبر إحدى الموائد الصغيرة فى بار بونيكورن المزدحم، قال :

ـ أنت إذن سوف تخبرينى على الوفاء والحفاظ على وعدى.

أومأت صوفى برأسها قائلة :

ـ بطبيعة الحال. نظر إليها بكل المزاح، وقال :

ـ ولا ريب أن غاية ما أتوقعه بعد حفل القران هو وجبة عارضة معاً. وإذا كنت محظوظاً جداً، ربما كان قبلة وداع ليلة محتشمة. لكم كنت أتمنى أن تكون غرباء، يا صوفى، بدون قبيلة من الأقارب يضايقوننا.

ـ افترض بذلك أنك تشعر أن حساباتك لأبى والعمة كيت تقف عقبة كؤوداً أمامك.

ـ بصرف النظر عن الشقيقين التوأم المزعجين !

ضحكت صوفى وقالت :

تخيل كم سيكونان قد كشفا حقيقتك إذا علما أن لبطلهم نوايا مخزية وشائنة نحو امرأة !

ـ كشر الكسندر عن ضحكة، وقال :

ـ والمشكلة هى أن المرأة فى تلك الحالة هى شقيقتهما. إنها ليست الأوهام التى يعيشون فيها هى التى تثير قلقى، صدقينى، إنها قبضاتهم ولكماتهم. فكلاهما سينقضان على مثل طن الحجارة ويصرخان : الثأر والانتقام.

ـ يا الهى، هل تظن ذلك ؟

صدمت صوفى من الفكرة صدمة كبيرة، وأضافت :

ـ فى تلك الحالة، ربما ينبغى لك أن تعرف أنهما سوف ينضمان إلى نادى للفنون الحربية.

أصدر الكسندر أنينا وغطى عينيه بيديه، قائلاً :

ـ أيتها السماء احفظينى. إن عفتك بريئة منى، أعد بذلك.

قالت صوفى وقد أصابها الإحباط.

ـ يا له من أمر باعث على اليأس. هلم بنا. لقد حان الوقت للعودة إلى العمل.

كان يوم الزفاف بارداً وممطراً وابلاً، وهذه العناصر فى ديتزبرى، وقد استخدمت الورود والقنابل والشموع وجاءت العروس وقد أنشدت لها أنشودة النصر عند أول ضربة عند الظهر. كانت العائلة وبعض الأصدقاء المقربين هم المدعون الضيوف الذين حضروا، وظهرت كيت متألقة حتى أن صوفى قد أسكبت دمعة، حينما شاهدت أباها وهو يقبل العروس بحنون وعطف موترين.

بعد ذلك نظم الكسندر غداء فخم فى الشانترى، وبعد أن تمتعوا به، والخبز المحمص والشراب، والقاء الكلمات، سافر الزوجان لقضاء شهر العسل فى جزر البهاما شعرت صوفى بغصة حادة حينما انطلق

التاكسى آخذاً أباها وكيت تلوح من النافذة حتى غابوا عن الأبصار اعترضت سيسل وينرايث، التى كانت تبدو مبجلة فخمة وهى ترتدى المعطف المصنوع من فرو المنك والقبعة، اعترضت النظرة فى عينى حفيدتها، وقادتها عائدة إلى المنزل.

ـ يشعر المرء دائماً بالارهاق بعد كل حفل زفاف، فلنشربى بعض الشمبانيا.

علقت بذلك بطريقتها الفويه المتعشة.

ونفذت صوفى ما أمرت به، بينما كانت عيناها منجذبتين نحو الكسندر، الذى كان يضحك عندما كان مانيو ومارك يمتعانه بكاتالوج من قفشاتهم ونوادرهم فى ادينبرج. قالت صوفى بحرمان ويؤس:

ـ أشعر وكأن فصلاً فى حياتى قد ولى. هل يقدر هذا وهماً ياجدتى كلا البته هو شعور طبيعى تماما حيث أنى لست الوحيدة التى سوف التى سوف تنقلين من بيت الطفولة، بل إن اباك قد اكتسب امرأة جديدة فى حياته.

ثم أضافت مدام وينرايث قائلة:

ـ غير أن تلك لا توصف ـ أى كيت ـ بأنها امرأة جديدة، بالضبط.

ـ حقيقى.

قالت ذلك صوفى وهى تخفض كأس الشامبانيا نحية على فوها، ثم وجهت بصر جدتها إلى اتجاه القس، قبيل الرحيل للتعامل مع هَبَّة الانصرافات، حيث بدأ الضيوف فى المغادرة، وحتى شقيقيها التوأم، قد غيروا واستبدلوا بذلهم الرسمية، لارتداء زيهم المعتاد، واعتزموا الانطلاق إلى ادنبرج فى النو واللحظة.

ـ إن البنات اللائى على الباب المجاور يلقين تحية المساء

والانصراف من الحفل.

قال ذلك ماتيو وهو يقبل صوفى، وقال:

ـ سوف نطلبك هاتفياً عند جدتنا غداً.

وما أن انصرف الضيوف ومتعهدو تقديم الطعام فى الحفل، أصر الكسندر على إعداد الشاى بنفسه، بينما كانت السيدتان تسترخيان فى حجرة مرسامه الهندسى. التفتت مدام وينرايت حولها بفضول وقالت:

ـ سبحان مغير الأحوال. سوف تصبح كيت السيدة ههنا فى النهاية بدلاً من ديلفين.

قالت صوفى بوضوح:

ـ دعينا ننسى كل ما يتعلق بديلفين. ضحكت مدام وينرايت فى نفسها وقالت:

ـ أنت تعتبرين أن الكسندر وقد جاء حاملاً الصينية:

ـ ثمة شخص يذكر اسمى؟ أتتكرمين بصب الشاى يا مدام وينرايت؟

كانت السيدة الأرملة سعيدة للغاية وهى تؤدى هذا الواجب، ثم صدمت صوفى صدمة قاسية بقولها للكسندر كم أنه محظوظ لأنه تخلص من ديلفين ويندهام، وصرحت قائلة بقوة:

ـ يا لها من بنت غبية، إنها سيئة الطباع أيضاً. لم تفلح فى أن تجعل رجلاً ظريفاً مثلك يا الكسندر كالماشية المثيرة للضحك.

أحدقت صوفى فى جدتها غاضبة، وقد روعتها:

ـ بحق السماء، يا جدتى اسكتى!

بدا الكسندر هادئاً، وقال:

ـ أوافقك تماماً. والآن يا صوفى، هل تحلمين بالتصرف مثلها. هل تفعلين يا صوفى.

ـ القليل من الناس يفعلون !

ـ هل ستعودين فى سيارتى «البتل..، يا صوفى ؟»

وجهت مدام وينرايت لها هذا السؤال وهى تجمع القفاز الخاص بها.

عجل الكسندر قبل أن تستطيع صوفى النطق بكلمة، قائلاً :

ـ إن لها معى موعداً مؤجلاً هذه الليلة، وأنت لم تنسيه يا صوفى أليس كذلك ؟ وهو الموعد الذى اتفقنا عليه من قبل.

وبعد انتهاء حفل الزفاف أيقنت صوفى، وقد أخذت على حين غرة، أن الكسندر كان يعنى ذلك بالحرف الواحد.

قالت مدام وينرايت وهى تنقب حقيبة اليد المصنوع من جلد القاطور، وهو جلد تمساح أمريكى ذو جودة :

ـ إليك مفتاحاً يا صوفى. إذا تأخرتى، افتحى وادخلى. ويحتمل أن أكون نائمة فى فراشى. إن حفلات الزفاف مرهقة لمن هم فى مثل سنى.

ذهبت صوفى مع الكسندر لتركيب مدام وينرايت خلف عجلة القيادة لسيارة البتل القديمة الطراز وأصرت على القيادة، إذ كانت تفضل قيادة البتل القديمة على السيارات الحديثة التى حاول ديفيد غوردون أن يقنعها لشراء احداها على مر السنين.

وفى رأى سيسل وينرايت تعد سيارة البتل ذات طراز عريق، وهى عربة مبجلة لازالت تبهج سكان مدينة أرليسفورد كلما خرجت بها مدام وينرايت تسوقها فى الشوارع..

قالت صوفى بقلق :

ـ أرجوك احذرى الطريق وأنت تقودين السيارة، يا جدتى.

ـ أنا دائماً أفعل ذلك.

قالت ذلك وهى تبتسم فى وجه الكسندر، وأضافت :

ـ أرجعها إلى البيت سالمة، يا الكسندر.

كان لدى صوفى العدد الكافى من السيارات التى شاهدتها وهى تفر بجوارها على مرور الوقت، وعادت أدراجها إلى المنزل مع الكسندر، وهى بعد تشعر مكتئبة للغاية.

ـ هل سوف أبقى كما أنا. ما دمت قد نسيت أن تذكر أية خطط لقضاء هذه السهرة. أنا لم أحضر ملابس لأغير تلك التى أرتديها.

ولأن الدكتور غوردون كان قد زود ابنته بمبلغ محترم من المال لتنفقه على شراء أفخر الملابس لتحضر بها حفل الزفاف، فهى خضعت لإغراء اقتناء شال كشميرى ذى صوف ناعم بلون الشكولاته بالحليب، وبلوزة طويلة بطول الفخذ وقميص قصير، وهى بعد لم يزينها من الحلى إلا سوار بلون عظم ظهر السلحفاة على رسغ صوفى.

قال لها صوفى بعد أن مسح بعينيه شخصها طويلاً وبرؤية وتمهل:

ـ أوه، سوف تبقين كذلك. غير أننى تعوذنى دقيقة أو دقيقتان لتغيير ملابسى، إذا كنت سوف تحتملين هذا.

ـ بالطبع.

البيت.

ـ حينما صممته أصلاً، جعلت الضوء والمساحة الأولويات فى اهتمامى، على خلاف عدد الغرف.

أشار الكسندر إلى النوافذ قائلاً :

ـ ألواح كبيرة من الزجاج كانت ستصبح خطأ كاملاً، لأن الحديقة تطل عليها، وبناء عليه استخدمت طاقات الألواح الزجاجية الصغيرة، كى أخلق جو البيوت الصغيرة «الأكواخ».

ـ بارع.

ـ قالت ذلك صوفى ببساطة، وملست على الدرابزون الماهوجنى الذى انحنى مستديراً على عمود السياج الحديدى المتصق، الذى صنع بمهارة فائقة، حتى أنها قد بدت وكأنها قد صنعت من أربطة سوداء مزخرفة. تبعت الكسندر أسفل الدرج، إلى مطبخ صممت ديكوراته بأناقة، وحجرة الطعام الكبرى، وحجرة الرسم الظريفة، ذات السقف المشع، والفجوات ذات الأرفف التى تحيط بالمصطلى الرخامى. وأخيراً وصلا إلى باب غرفة، أعلن الكسندر أنها سوف تكون مكتباً له.

اتسعت عينا صوفى حينما أدخلها إلى قلب الغرفة. فهى على خلاف بقية الغرف، قد كانت مليئة بالأشياء. أكوام السجاجيد كانت منشورة هنا وهناك، بجوار عينات من أقمشة الستائر، والأبسطة الملفوفة المتراكمة فى أحد الجوانب، بينما ألقيت الأقمشة ذات اللوحات الزيتية فى الركن الأخر، والكراريس فى كل حدب وصوب، عبارة عن كتالوجات من كل شىء بدءاً من تركيبات المصابيح مروراً بالحمامات وألوان الطلاء.

وكان فى وسط الأرضية بساط من الكليم عبارة عن واحة وكان عليها قطعة الأثاث الوحيدة التى شاهدتها صوفى حتى الآن فى البيت كله، ألا وهى الكرسى الطويل المصنوع من نبات الروطان، وعليها وسائد مخملية ناعمة بنية اللون. ابتسمت لالكسندر وهى مبتهجة قالت :

ـ لقد فهمت، لقد فهمت، ههنا سوف نقوم بنزهتنا. ولكن قبل أن أتناول الطعام، أعتقد أن رأيى مطلوب على هذه الأرض !

أخذت صينية الشاى إلى المطبخ، وهى تشعر بأنها خجلى على نحو مثير للضحك، سعيدة بالقيام بعمل دنيوى مثل غسيل الفناجين.

عاد الكسندر بسرعة كبيرة، وقد استبدل حلته اللاالانتيو وارتدى بنطلوناً أسود كثيفاً لأرسيه، ولأاكيت صوفياً مزوداً بزمام متزلق، على قميص صوفى أبيض.

ـ حسناً، يا صوفى، دعينا نذهب.

قال ذلك برشاقة ونشاط.

ـ إلى أين ؟

ـ إلى نزهة.

ـ أحدقت صوفى فيه بانشداه، بينما يسرع هو بها خارجاً من المنزل إلى السيارة. وقالت وهى تنزلق إلى داخل السيارة :

ـ هل لاحظت، إن الجو مظلم تماماً، وموقع فى الجسم البرودة والقشعريرة.

بدا الكسندر معتداً بنفسه وقال؟

ـ لاحظت. غير أن هذا لن يؤثر على النزهة، اعدك بذلك. لا تأبهى. لقد قلتى إننى بمقدورى أخذك من حين لآخر لتناول الطعام خارج المنزل. ولكنك لم تحددى أين.

قهقهت صوفى فجأة، بينما كان روحها المعنوية قد ارتفعت حينما تركوا دينزبرى وراء ظهرها، وقالت :

ـ إن النزهة ستكون بالتأكيد تغييراً من إنزيو !

قال الكسندر بنبرة مريرة وقاسية :

ـ المطعم المفضل لدى لأوليان، على ما أظن. حيث يذهب وجوه دينزبرى ليروه ويراهم أما الليلة، فليس ثمة شىء من هذا القبيل، يا حبة القلب. أنت وأنا فحسب.

سرت الرعشة فى العمود الفقرى لصوفى لدى سماعها ذلك، بينما الكسندر، وقد راح يلعب على أوتار ذلك بتناغم، وضع يداً مبسوطة على إحدى ركبتيها. وقال :

— إن هدف الوحيد هو امتاعك، أيتها الصغيرة، وأعدك بذلك لأنني استطع أن أرغم أن الكآبة قد انتابتك حينما انطلق أبوك مع كيت.

تنهدت صوفي، وقالت :

— نعم إن الطبيعة البشرية غريبة جداً، أليست كذلك ؟ لقد كنت أتوق إلى حريتي منذ عهد طويل، والآن وقد جاءتني على طبق، أعترف بأنني لا أعرف ماذا أفعل بها.

— سيكون بوسعك عما قريب أن تكيفي حياتك.

طمأنها، وراح يتحدث عن حفل الزفاف.

ومضى وقت قليل قبل أن تستطيع صوفي استجماع شجاعتها لتسأل السؤال الذي كان يفرضها ويقضمها طوال النهار، قال :

— الكسندر، هل كان اليوم يوماً مؤلماً لك يفقراته ؟

شرع الكسندر يقود سيارته في صمت هنيهة، وقال بهدوء وبطء :

— حتى أكون أميناً لقد كنت أعمل حساب هذا اليوم متخوفاً من قبل. غير أنه ما حدث كان على نقيض ما تصورت. إذ أن الحفل الهادىء المؤثر الذي شهدناه، في الكنيسة اليوم، لم يكن له علاقة البتة بالخفاق الشهير الذي مثيت به.

قالت بهدوء :

— أنا كنت قلقة عليك.

— أشكرك. ثم تردد لحظة ورمقها بعينيه قائلاً :

— إلا أن وجودك معي هو الذي أحدث الإختلاف، يا صوفي. وأتعجب متسائلاً إن كنتي تفهمين ذلك أم لا. إن الوقت الذي مضيته مع ديلفين كان غير واقعي لي، قد كان عبارة عن «ساعة مبهرجة قصيرة وزائلة» وقت أن أبرق نيزك في حياتي هنيهة، ثم خرج منها ثانية. أما أنت، يا صوفي، كنت دائماً هناك — متألقة على نحو

متواصل، مثل النجم ذي الذخيرة الوافرة التي يحتاجها الرجل في حياته.

استغرقت صوفي المزيد من الوقت حتى تستوعب هذا حتى أنها أخفقت في ملاحظة أين كانا — إلى أن أوقف هو السيارة.

أنعمت النظر فيه، وقد ارتفعت حواجبها، قالت :

— «ويللو ريتش» يا الكسندر ؟ لا تقل ذلك، دعني أخمن. إن ثمة مشواه في الحقيقة !

— يا الهي ! كلا.

— ضحك وترك السيارة ليفتح البوابات المزدوجة الضخمة قبل أن يسوق السيارة إلى الداخل. ولدهشة صوفي أنها وجدت الأنوار مشتعلة في المنزل، قالت :

— هل ثمة أحد ههنا؟

— كلا.

ثم دلدل باقة من المفاتيح أمام أنفها، وقال :

— «ويللو ريتش» صار ملكاً لي الآن، كلية. والأنوار يتم تشغيلها بمفاتيح زمنية، بالطبع. وأنت أيتها الآنسة غوردون، أول زائرة، غير أن نزهتك والعشاء لن يكونا رخيصين — سوف تعدينها بنفسك.

— أوه، هل سأفعل ؟

تبعت صوفي الكسندر حينما فتح الباب على مصرعيه، قبل أن يحتضنها بين ذراعيه مؤرجحاً أياها وحاملاً لها كذلك نحو الصالة المربعة الكبرى.

قالت، وقد صار وجهها أحمر متورداً حين أنزلها

— ما الذي تفعله ؟

هز كتفيه قائلاً

— ذلك

الزفاف.

قالت بحدة :

إذن كف عن الحديث عنهم، وأرينى منزلك بدلاً من ذلك.

كان الكسندر سعيداً للغاية وهو يفعل ذلك، وكانت تصرفاته توحى بأنه يزهو بملكيته للبيت، وهو يقودها أعلى الدرج، عبر غرف خالية، جميلة متناسقة الأبعاد، وهى أقل عدداً مما توقعت صوفى لما رأت حجم

ـ العيون.

ـ خلع الكسندر لأاكته، ثم ترك صوفى بمفردها تستطلع كل الألياف، وتساءل فى تعجب عن الكمية المستخدمة للأرضيات والنوافذ لهذا البيت الهادىء الظريف.

عاد الكسندر بسرعة حاملاً زجاجة شمبانيا وكأسين، قال :

ـ لقد أحضرت الشمبانيا المنعشة توقعاً لهذه اللحظة الفريدة، يا آنسة غوردون .

خلعت صوفى حذاءها وألقت به بعيداً، ولفت نفسها جالسة على المقعد الطويل وحولها عينات عديدة من أقمشة الستائر، ومدت يدها لتناول الكأس الذى كان يعرضه الكسندر، وقالت بخبرة كلها تقدير :

ـ شمبانيا وردية اللون، عظيم فلنشرب نخب ويللو ريتش يا الكسندر، وأتمنى لك السعادة القصوى ههنا.

قال الكسندر وهو يشرب بعمق :

ـ نخب ويللو ريتش. هل تحبين المنزل .

ـ ومن الذى لا يحبه ؟ فإذا حدث أن كان هناك عميل يريد دليلاً على حاسة التميز لديك، فإن هذا المنزل يعد قطعة عرض رائعة. وحتى بداخله إنه لا يبدو منزلاً حديثاً، ومع ذلك ثمة توق دائب لا ينقطع إليه.

ـ ربما كان ذلك لأن الكثير جداً من مواد البناء تم انقاذها، كما قلت لك ذلك ونحن فى الحديقة، لنشاهدها.

قال ذلك الكسندر وهو يجلس واضعاً رجلاً فوق رجل على البساط، ثم انحنى وأعاد ملء كأسه، وأردف :

ـ تم بناء «ويللو ريتش» لأول مرة من أجل اقامة خلية أحد رجال حاشية الملك شارل الثانى. إذ كانت زوجة الرجل غنية وقبيحة وغيورة جداً، ولذلك فقد بنى هذا البيت من أجل عشيقته الصغيرة الجميلة، على مبعدة أميال من أى مكان آخر، فى ذلك الوقت الذى كانت المنطقة خالية من السكان، وبنى له أسواراً عالية بدلاً من سياج الشجيرات الحالى، غير أن الفسقية ذاتها بقيت كما هى فى الكهف الموجود بالحديقة. وهو المكمن السرى الذى يستطيع أن يكون فيه بمأمن وحيداً مع عشيقته، متخفياً عن العالم.

خفت صوت الكسندر التعبيرى عند انتهائه من آخر كلماته، حينما كان ينظر فى عينى صوفى، وقال :

ـ ما رأيك فى هذا الكلام ؟

ـ كنت أتساءل متعجبة ما الذى كانت تفعله الفتاة لتشغل نفسها عندما يكون عشيقها بعيداً فى البلاط. فى كل تلك الدقائق والساعات والأيام كان يتعين عليها أن تملأها بدونه. كيف تسنى لها أن تمضى الوقت ؟

قال الكسندر بأسلوب غير ممتع وممل :

ـ تعتنى بأطفالها، على ما أظن. إذ أنهما أثمرا عدداً قليلاً، ومن الغريب أن رجل البلاط لم يرزق أبداً بوريث شرعى.

قالت صوفى بتأثر :

يالها من مسكينة تلك المرأة القبيحة. على أية حال، يا سيد بالأيت، يا سيدى، دعنا نتعامل مع موضوعنا.

تخلصت صوفى من الظل الذى وراءها وجثت راكعة مع

الكسندر على الأرضية، واستغرقا سريعاً فى الألوان وأقمشة النسيج المتناثره حولها حولهما فى كل مكان. تعاونت عينه الثاقبة مع نزعاتها الطبيعية وغرائزها ومضى الوقت برشاقة، حينما استمتعا بكومة من الخيرات الممكنة. وانصرمت ساعاتان قبل أن ذكرت صوفى قرقرة مفاجئة فى المعدة بأنها لم تتناول طعاماً منذ طعام الإفطار فى حفل الزفاف فى الشانترى.

قالت :

ـ أنا أشعر بالجوع. أين تلك النزهة التى وعدتنى بها أيها الرقيب؟

قفز الكسندر واقفاً على قدميه نادماً، وقال :

ـ آسف يا صوفى. ابق حيث أنت ولسوف أحضر شيئاً حالاً.

ـ ألا استطيع أن اساعدك ؟

كلا. لقد فعلت ما فيه الكفاية اليوم. لن أتأخر عليك.

ولما كانت بمفردها، راحت صوفى تصفف شعرها، وتمددت برفاهية على الكرسى الطويل، وتفكر فى المرأة التى عاشت واحبت فى البيت الأصل «ويللو ريتش». ما هو شعور الفتاة التى تكون خلية وعشيقة لرجل فى مكان كهذا ؟ وأخذت تتعجب. فهى بالتأكيد لا تقم بكى الملابس أبداً أو تطهو الوجبات المغذية، ولا تعرف حتى كيف تضع خيطاً فى إبرة، بغض البصر عن الحياكة ؟ واستهواها أن تكون خليلة الكسندر. وضاقت عيناها حين تصورت نفسها متخيلة أنها ترفل فى الحرير الفاخر غالى الثمن الذى يرتدى كملابس تحتية، والأربطة المصنوعة يدوياً، والمبذل النسوى الفضفاض وهو مفتوح بينما هى تراخت على المقعد الطويل مثلما هى الآن، منتظرة إياه لقضاء ليال طويلة من الهوى والهيام المحرم معها، بدون لمحة واحدة من الأعمال المنزلية التى تتطفل على النعيم الذى يرفلان فيه. ولمعت عيناها حينما تخيلت مشاهد من أجازات نهاية الأسبوع فى باريس

وروما، وأجازات فى انتيغوا وبالى.

هذه نظرة غريبة فى عينيك، يا صوفى !

اقتربت صوفى عندما عاد الكسندر حاملاً سلة للنزهة. ووقفت مندهشة، وهى تعيد قميصها إلى وضعه الأصلى، بينما كانت وجنتاها متقدتين.

قالت : أحلام اليقظة

وساعدته على وضع عشائها على المفرش الأبيض الموجود بالسلة. أقبلت صوفى بهمة وشهية على الطعام الشهى الذى قدمه متعهدو الطعام الذى يتعامل معهم الكسندر، زاد منها التوابل ولحم صدر الديك الرومى الغض النضر، والسالمون المدخن والفطائر المصنوعة من لحوم الطرائد، وكانت تستشعر شهية أكبر من تلك التى أكلت بها إفطار الزفاف من قبل.

قال الكسندر.

ـ يبقى بعد ذلك الجبن. لقد كلفتهم بأن يجعلوه لذيذاً.

قالت صوفى بدون تمييز :

ـ رائع أننى أموت جوعاً. ربما لأننى لم أكن جوعى وقت الغداء.

ـ وضع الكسندر المزيد من التوابل والصلصة على طبقها وهو يقول:

ـ لقد لاحظت ذلك.

وراح الاثنان يتناولان الطعام بشهية، وبعد ذلك أنهوا شرب الشمبانيا وأفرغوا الزجاجة.

ـ هل تشعرين أنك تحسنت الآن ؟

سألها الكسندر هذا السؤال بتكاسل. واتكأ مستنداً ظهره على قوائم المقعد الطويل، ومدد ساقيه أمامه. أما صوفى فقد رقدت على الوسائد المخملية، وهى تحسى قليلاً بعد الطعام اللذيذ وتنهدت قائلة :

ـ بكل تأكيد. إن هذا المنزل جميل جداً. أنت عبقرى.

قال الكسندر بتواضع .

ـ أعلم ذلك، إن النزهة التى أعددتها لم تكن فكرة سيئة، أليس كذلك ؟

أنزلت صوفى ساقيها إلى الأرض وبحثت عن حذائها، وقالت على مضض :

ـ يجب الآن أن أطلب منك أن توصلنى بالسيارة إلى أرليسفورد.

لا أريد أن أزعج جدتى بالبقاء حتى ساعة متأخرة فى أول ليلة لى أقضيها عندها.

نظر الكسندر فى عينيها وقال :

ـ هل لى أن آخذ قبلة واحدة أولاً ؟ إذا كنت تريدين العودة .

فإننى على يقين من أننا كنا قرونا على قبلة من حين لآخر.

ـ أنت قررت.

ابتسم وجذبها لأسفل برفق إلى ذراعيه، فرقدت صوفى عليه، وكان ثغرها بجوار ثغره مفتوحاً، وهى بعد راغبة، حتى أنه ضمها إليه بشدة وقد أصدر أنيناً، وراح يقبلها بشهوة وجوع، أيقنت من أنه يكبتها طوال المساء، حتى صار غير قادر على كبح جماح نفسه.. بعدئذ، انتهت العاصفة كالبرق كما بدأت فجأة. ارتفعت رأسه قليلاً وتراخت قبضته وعناقه، وقت أن أحدقت عينان الخضراوين لأسفل فى عينيها البنيتين البديعتين وقد راحتا فى هجوع وسبات كالنوم الخفيف. وقال :

ـ هل تعدين ذلك قبلة واحدة ؟

وهو يتمتم بالقرب من فمها.

همست :

ـ لم أكن أعد.

أخذ نفساً طويلاً مرتعشاً متوعكاً، ووثب على قدميه، جاذباً إياها معه، وقال بحزم :

ـ إلى البيت !

الفصل التاسع

ذات ليلة باردة فى شهر نوفمبر عقب ذلك بأسابيع قلائل، دفعت صوفى فرشاة الطلاء فى إناء للخمور البيضاء وأراحت ظهرها المنهك بينما كانت تفتح الباب المطل على الدرج، قالت :

ـ قهوة، يا الكسندر ؟

قال بصوت عال رداً عليها :

ـ بعد خمس دقائق. بعد طلاء سقف غرفة النوم بتكسية جديدة.

أصبح بيت ايليكس الصغير جاهزاً تماماً للسكنى. ملأت صوفى غلايتها الجديدة فى مطبخها الصغير، وتنفست الصعداء، وهى تسعل قليلاً حيث اصابت رائحة الدهان صدرها.

كانت سيسلى وبرايت حريصة على تكليف مزخرف محترف، ولكن صوفى لم تأبه به أو تسمع كلامه، مصرة على أن البيت الصغير لابد وأن يكتسب الطابع الذى تفضله هى، وذلك يتسنى بأن تقوم هى بعملية الطلاء. وفى الوقت الذى علمت فيه جدتها أن الكسندر يساعدها، كفت عن الكلام.

خلص الكسندر نفسه بحذر عبر الباب الكائن فى أسفل الدرج، مكشراً عن ابتسامة حينما رأى صوفى تجلس القرفصاء، فى وسط الأرضية غير المكسوة بالأبسطة وبجوارها أبريقان خزفيان من القهوة، قالت :

ـ أنا أحاول أن أطل ورق الحائط.

ثم قدمت له علبه بسكويت.

اقترب الكسندر منها، ناقراً بإصبعه أنفها، وقال :

ـ لقد تلطخت بالطلاء يا صوفى.

نظرت إليه بعين ناقدة وقالت :

ـ يتعين عليك أن ترى نفسك !

كان كلاهما فى قمة التلطيخ، اما صوفى فقد ارتدت بنطلون من النسيج القطنى الخشن، وكنزة فضفاضة، وقبعة مستدقة الطرف مصنوعة من القماش الدنيم المتين، وأما الآخر الكسندر فقد ارتدى حلة عدو سوداء، وبنطلوناً. وكلا الخليتين قد تلطخ وتخطط بالطلاء الأبيض، على نحو عشوائي.

علق الكسندر، وهو يتضرر جوعاً قائلاً :

ـ هل من مخرج لقضاء ليلة عطلة نهاية الأسبوع يوم السبت ؟

نظرت صوفى حولها فى نشوة انتصار وقالت :

ـ احتاج يوم الغد من أجل تخفيف ملابسى. إذن بوسعى زن أنتقل يوم الاثنين.. لقد أنجزنا كل شىء ! أليس هذا رائعاً ؟

[illegible] صغيرة على شكل بيت.

[illegible] كان هذا هو السبب فى ولعى

[illegible] فى الاتجاهات، حيث إنها [illegible] فى بقليها، وأخيراً وكزت على

الصغير كله ربما يلائم حجرة مرسامك الهندسى. ولكن بالنسبة لى هذا المكان يمثل كل شىء أردته وتمنيته.

وقف الكسندر على قدميه وتمطع، متثائباً، ثم نظر إلى ساعته، وقال :

ـ هيا بنا، لقد انتصف الليل تقريباً. لقد حان وقت عودتك إلى غريناكر.

نهضت صوفى وهى تجمع آنية القهوة. التفت خلفها ناظرة إليه، وهو يتبعها إلى المطبخ، قالت :

ـ أنا أحمل لك عرفاناً بالجميل يا الكسندر. لقد كنت عطوفاً على فى الفترة الأخيرة.

أزال الكسندر قبعتها الملطخة، وأسدل ذراعيه حولها من الخلف، واضعاً ذقنه على قمة رأسها الأشعث.

ـ ليس عطوفاً فحسب. أم أنك لم تلاحظى ؟ لقد كنت أيضاً فاضلاً متشبثاً بالفضيلة وضبط النفس، تماماً بتمام.

تخلصت صوفى من مسكته، عيناها ترقصان وهى تلتفت بوجهها إليه، قالت :

ـ لقد حسبت أن الطلاء ربما قد أثر على حبك لى !

جذبها بعنف إليه وقبلها، ثم هزها بقوة، وأضاف :

ـ لا تستعجل حظك، يا آنسة غوردون. أن حبى لك مشتعل. إننى فحسب أنتظر الفرصة الملائمة.

تفكرت ملياً، وقالت :

ـ إلى متى، وإلام بالضبط ؟

كادت رموشه تغطى وتستر تعبيره حين قال :

ـ سوف تعلمين حينما يحين الوقت.

ـ لا تثير تلهفى وغضبى ـ اخبرنى !

ـ لن أقول.

شعرت صوفى أنه من الأفضل أن تتجنب استكشاف وتوقع نواياه مرة ثانية. إذ أنها كانت قد عانت من نفس المأزق مرة سابقة، وتمكنت فقط بفضل السماء أن تتجنب رفضه طلباً منها الزواج من الكسندر، وكان لا ينوى ولا يعتزم مطلقاً أن يفعله وفى هذه المرة، تستطيع فقط أن تتفكر فى أنه ينتظرها للانتقال من سقف جدتها إلى بيتها، قبل أن يطلب الزواج منها أخيراً.

كانت تلك فكرة قد شغلتها قدراً عظيماً من الوقت على مدار الأيام فائتة، وفى كل ذلك الوقت كانت تدير شئون استقرارها فى بيتها الجديد، وتعاون جدتها على الإنتقال غريناكر إلى غرفتها التى سوف تشغلها فى برواد أوكس.

لقد أصرت مدام وينرايت على الأشراف على نقل وتعبئة ممتلكتها، والتى كان معظمها قد صممت هى على وضعه كخزين من أجل استعمال صوفى أو شقيقيها فى المستقبل.

وعندما انتهت الجلبة فى النهاية واستقرت السيدة التى لا تقهر أخيراً فى مقرها الجديد، انزعجت صوفى لدى رؤيا إلى أى مدى بدت جدتها مجهدة.. وأعربت عن ذلك فيما بعد بكلمات صريحة مباشرة إلى أبيها وكيت، اللذان انضما إلى الأشراف على الإنتقال.

تبادل ديفيد غوردون نظرة مع كيت، ثم اقترح أن يذهبوا جميعاً إلى بيت ايليكس الصغير لكى يروا النتيجة التى آل إليها. وعندما انتهوا ثلاثتهم من القيام بجولة تفقد أعجبتهم، جلسوا يحتسون كؤوس الشرى وهى خمر أسبانية الأصل قدمها بيرى «نخباً تكريماً لإله الانتقالات»، وشرح الدكتور غوردون لصوفى حالة جدتها سيسل وينرايت قائلاً لها إن قلبها لم يعد قوياً كما كان. وضغط على يد صوفى وهو يقول :

ـ حينما سمعت أنها بصدد الإنتقال بنفسها إلى برود أوكس، كان لى معها حديث ـ من وراء ظهرك، يا طفلتى. لا تقلقى ! إنها سوف تعيش لسنوات قادمة، طالما أنها تعتنى بصحتها، مع وجود عين طبية تهتم بها. إن جدتك إمرأة حساسة، وهى قد فعلت الشيء الأكثر إمكاناً ما استطاعت تحت ظل هذه الظروف.

قالت صوفى وقد انتابها الشعور بالندم.

ـ لم يكن لدى فكرة عن ذلك. إذ أنها لم تتفوه بكلمة واحدة .

قالت كيت بلطف :

ـ وهى لم تشكر أباك لأنه سمح للقطة أن تخرج من الحقيبة. احتفظى لنفسك برأيها فى الموضوع، يا صوفى واستمرى فى حياتك كما هو معتاد. أنت تعلمين كيف أن غضبها الشديد يثار إذا أيقنت أن ديفيد قد حرك

ـ يا إلهى، أجل!

ابتسمت صوفى ابتسامة حزينة، وغيرت من الموضوع بأن تساءلت عن رأيهم فى ألوان المنزل، كان صوت كيت مرتفعاً وهى تعرب عن استحسانها للستائر الصفراء والبيضاء، وكيف أنها أحبت سجادة غرفة الطعام التى جاءت بها من غريناكر، والتى كان حجمها مناسباً للغرفة الصغيرة.

أضافت:

ـ لقد أحبت أيضاً الكرسى الطويل. هل هو من ممتلكات سيسل ؟

قالت صوفى:

ـ كلا، أعطانى إياه الكسندر كهدية للإنتقال. إنه ظريف فى مكانه هناك. أليس كذلك .

فيما عدا الأخبار المزعجة بشأن جدتها، كانت حياة صوفى

مستطابة فى الفترة التالية على انتقالها إلى بيت ايليكس الصغير. لم تكن ترى الكسندر إلا قليلاً، تلك حقيقة لأن بيرى أصبح الآن مكلفاً باداره فرع أرليفورد التابع لشركة بالأيت آند صن.

على أية حال، باعتباره الشريك الأكبر، كان الكسندر يزور مكتب الفرع من حين لآخر، واتبع خطته الأصلية بأخذ صوفى للخروج من أجل تناول الطعام عرضاً، أو للقيام برحلة للمسرح فى مدينة باص أو بريستول، إلا أنه رفض بحزم عروضها لتناول الطعام فى بيت إيلكس الصغير رداً على دعواته لها.

ــ لا، يا صوفى.

قال لها ذات ليلة، حينما أوصلها إلى البيت سالمة، وأردف :

ــ أنا أعطيك فترة التقاط الانفاس التى أردتها، وأتصرف كصديق فاضل للعائلة، حسبما يظنون أنى كذلك. ولكن بصراحة لا أعتقد أن فضيلتى مطلقة، حتى أتخلى عن سهرة ثنائية معك، يا حبيبتى، سواء ههنا أو فى «ويللو ريتش».

أضاءت صوفى لمبة ثم جلست على الكرسى، متطلعة إليه فى تحد، قالت :

ــ وماذا رأيك إن علمت أننى لا أريد أن تتخلى عن ذلك يا الكسندر ؟

ذم فمه وهو ينظر إليها. وكان الرداء الكشميرى الذى ترتديه لحفل الزفاف يبرز ويفصل منحنيات نهديها، حينما شبكت يديها عمداً خلف رأسها ووضعت ساقاً فوق ساق، وهى تلبس عليها الجورب الخفيف المصنوع من القماش الخفيف يعنى أن الجيب قد ارتفعت فوق ركبتيها.

ــ صوفى .

ــ توقف، وهو يجرى أصابعه فى شعره، وهرع إلى المصطلى.

ــ حقاً يا الكسندر ! أنا لست عذراء من العصر الفيكتورى، حتى أصاب بالإغماء إذا ما التقطت عيناك منظراً لسيقانى.

التفت وقال :

بمقدورى أن أرى أكثر من ذلك !

وبدون أن أتحدث، إنا على يقين من أنك قد قيل لك كم هى جميلتان سيقانك مئات المرات، وبناء عليه أدنى عليك الجبة لتغطى ساقيك وتصرفى عادياً، يا صوفى.

جلست منتصبة، وهى تتحدث مخاطبة كتفيه العريضتين، قالت :

ربما كنت على خطأ. أكاد أقسم بأنك تغيرت نحوى، يا الكسندر.

وفى الفترة الأخيرة، كنت تعطينى الإنطباع بأنك تعتبرنى أكثر من مجرد صوفى صديقة العائلة، أو حتى صوفى السكرتيره هل أنا على خطأ يا الكسندر ؟

استدار ملتفتاً، وعيناه تلمعان، وأحدق فيها لمدة وجيزة، ثم أمسك بيديها وهو يسحبها إليه. وقال :

ــ اللعنة، أنت تعلمين حق المعرفة أنك لست على خطأ.

وحرك يدها لتلمسه، وأضاف :

هل تشعرين من ذلك أننى لا أريدك ؟ ولماذا ــ بحق الجحيم ــ تحسبين أننى أصر على اختلاق واختراع الأسباب للتدخل فى مكتب أرليسفورد ؟ كل هذه لرؤيتك فحسب، يا صديقتى الصغيرة! إن بيرى صار دمه يمور خنقاً وغضباً على، إنه يعرف يقيناً أن عنقك أنت التى أريدها أن أتشممها، وليست عنقه هو.

كانت متأكدة كالمتصر من أنه سوف يكتسحها بذراعية. ولكن بدلاً من ذلك، سقطت ذراعاه بعيداً وهز رأسه، وعيناه منغلقتان :

ـ لا ؟

قالت ذلك وهى لا تكاد تصدق.

ـ لا أسطيع .. يا صوفى !

رد الكسندر بكلمات متقطعة متآكلة .

أشاحت صوفى مبتعدة، وهى تلف ذراعيها حول صدرها، وقالت :

أوه. أنت لست طبيعياً!

أمسك الكسندر بكوعها وأدارها إليه قائلاً :

ماذا تعنين بقولك هذا بحق الجحيم ؟ كم عدد الرجال الذين طلبتى منهم أن يأخذوك إلى الفراش. هل تستطيعين أن تردى ؟

ـ أنت فقط، يا الكسندر فقط.

أبرقت عينا صوفى فيه، وقد اعتملت فى جوانحها المهانة والغضب، وقالت :

ـ ولكن، على أية حال، لا تقلق. لن أطلب منك ثانية. البتة، أبداً !

هزها بعنف، وقال:

انصتى إلى أيتها السليطة الصغيرة: عندما انتقلتى إلى منامى تلقيت طلبات من عدد من الناس. لم تكن صياغتها بنفس الكلمات بالضبط، ولكنها كلها ترقى إلى نفس الشىء. جدتك، أبوك وكيت أيضاً، لقد طلبوا كلهم منى الحفاظ عليك بأن أتفقد أحوالك، والعناية بك، لأرى إذا ما كنت على ما يرام أم لا. والآن أخبرينى هل كانوا يعتزمون منى أن أفحص أنفك كيلاً يكون قد تجمد من البرد، أم ماذا، كل شىء محتمل. لكنك تعلمين وكذا أنا أعلم أنهم يعنون أن أرى أن لا أحد من الرجال تراوده الأفكار بأن صوفى الصغيرة تعيش بمفردها الآن : واحسب أنهم يشملوننى، يا صوفى. طالما أننى أعتقد

أننى أستطيع القول بأننى رجل.

خلصت صوفى نفسها منه، وقالت :

ـ لست مجرد رجل عادى يا الكسندر ـ أنت نموذج للكمال .

وضعت يديها خلف ظهرها وارتفعت حواجبها، واردفت :

ـ لماذا لا تصارح ؟ إعترف بأننى لا أقارن بديلفين.

جز الكسندر على أسنانه، وقال :

ـ بحق الإله، ما الذى يجب أن أفعله لأقنعك بأننى لم أعد لا آبه البتة باللعينة ديلفين ؟

نظرت إليه وقالت بتحدى :

لم لا ؟ لقد كنت ههنا معى فى مناسبات عديدة فى الفترة الأخيرة. وقد كانت طويلة بما فيه الكفاية كى تمارس معى الحب فى كل مرة. من الذى يعلم أنك لم تفعل ؟ جميع الجيران يعتقدون أننا عشيقان، على أية حال.

ـ ولكننا لسنا عشيقين ! وعائلتك تأمتنى وتثق فى بأننى أتصرف معك هكذا.

ـ إذن أحسب ان الأفضل أن نعود إلى علاقتنا الأصلية فى تعاملاتنا فى المستقبل. صاحب العمل والموظفة.

راحت صوفى تهتز من داخلها بكبرياء جريح وشىء اعتبرته احباطاً كان ذلك شعوراً جديداً. شعور امتهنها وجرحها واستحثها على أن تهجو بلسان سليط، وأن تحطم درع الاستقامة الذى يحتمى به الكسندر.

ذكرها قائلاً ببرود :

ـ علاقتنا الأصلية كانت أيضا صداقة.

توجهت نحو الباب وقالت :

ـ إذن دعنا نقرر علاقة جديدة، بدون مشاعر شخصية.

اشكرك على السهرة يا الكسندر. لن أقول إن الليلة كانت نجاحاً منقوصاً ــ ولكن شكراً على أية حال.

ــ هل هذا يعنى أننى سوف أراك فقط فى المكتب.

نهض واقفاً أمامها، وعيناه قد انغلقتا بوجهه الشاحب، أضاف :

ــ ألسنا على الأقل أصدقاء ؟

لقد طاردنى رجال حتى ههنا يريدون متمنين أن يكونوا أصدقاء. ذلك أمر سيىء جداً لعفاف الفتاة. طابت ليلتك يا الكسندر.

فتحت صوفى الباب وهى تنتظر خروجه بفارغ الصبر. حدق فيها الكسندر لحظة، ثم أمسكها من كتفيها وقبلها بوحشية. وألقى بها جانباً وهو يقول :

ــ ذلك كى يعلم الجيران مدى علاقتنا.

ثم راح يطوى المسافة بين البيت والمعشى الصين، تاركاً صوفى فريسة ونهباً للعواطف الحارقة المضطربة، فصرعت الباب إياه واندفعت أعلى الدرج نحو الفراش.

وفى اليوم التالى قال بيرى لصوفى، حينما انتهت من إعداد البريد والخطابات معه :

هلا قضيت ليلة طيبة ؟

ردت بحدة ونزق قائلة :

ــ بلى.

ثم ابتسمت بطريقة تنم عن رغبة فى الاعتذار ، وصرحت :

ــ آسفة، لم أقصد أن أحرجك.

ــ أعلم ذلك، هونى على نفسك ــ كل ما هنالك أننى لم أرغب أن أراك محبطة فى الصباح. ألم تكونى قد تناولت العشاء مع ابن العم والرئيس الجليل الليلة الماضية ؟

نهضت صوفى وقالت :

ــ نعم. هل بمقدورى أن أعد القهوة الآن ؟

ــ بعبارة أخرى ألا يسعدك أن يتبادل أطراف الحديث معك ى. د. بالأيت الشريك الأصغر.

قال ذلك وقد ابتسم وأخذت عيناه تلمعان بطريقة تنم عن الفضول قال :

ــ لا تقولى إن الكسندر تشاجر معك بالأمس، يا صوفى !

ألقت صوفى عليه نظرة صاعقة وعادت أدرجها إلى مكتبها بدون أن تتنازل فتعطى له جواباً. حيث كانت الكآبة التى أصابتها حادة. إذ أن الرضاء الذى استشعرته من طردها لالكسندر لم يدم طويلاً، بل دوى بمجرد إلقاء نفسها على الفراش، وقد تسبب فى أن يجعلها بائسة بكل ما فى الكلمة من معنى، وعرضة للتلهف متطلعة ترجو فى كل مرة يفتح فيها باب مكتبها، أن يكون الطارق الكسندر. غير أنه كان دائماً بيرى، أو بريان هاريس، المصمم الهندسى الصغير، ولم يكن أبداً الكسندر. وكان كل جرس للهاتف يجعلها تندفع نحو السماعة، غير أنه لم يكن أبداً الصوت المرغوب على الجانب الآخر من الخط.

لقد تحولت حياتها فصارت نهباً للفزع والقلق، وحتى إبتاجها بانتقلها إلى بيتها الجديد قد عكر صفوه مشاجرتها مع الكسندر، ومع مرور الأيام التى قضيت لياليها بمفردها فى البيت الصغير، بدأت تحس بالوحدة بدلاً من الأمان. ومضى الباقى من أيام الأسبوع بدون اتصال مع الكسندر من أى نوع، سواء كان متعلقاً بالعمل أو غيره، وحتى أن صوفى أسعدها للغاية قبولها لتناول الغداء يوم الأحد بدعوة من أبيها وكيت. وكانت صوفى تساعد كيت فى أعمال المطبخ حينما سمعت صوت الكسندر فى الصالة. ارتفعت حواجب كيت حينما رأت صوفى وقد تيبست وتصلبت.

ــ ألم أذكر لك أن الكسندر سوف يأتى على الغداء، يا حبيبتى ؟

ـ كلا لم تذكرى ذلك. كم هو رائع أن يحضر معنا.

لم يكن رائعاً على الإطلاق حضوره. إذ كانت الوجبة عبارة عن محنة، طالما أصبحت طباع الكسندر نحو صوفى مهذبة على نحو يشعرها بالبرودة، وكان رد فعلها هو أن تتسامر لتضيع مائة بالمائة من الوقت مع كيت، من أجل أن تخفى أحباطها وهلعها. اما كيت والدكتور غوردون، وقد أزعجها التوتر الناشب بين الشخصين المحبوبين لديها، بذلاً كل ما فى وسعها للحفاظ على عجلة الحديث دائرة، غير أن ذلك كان عملاً مستحيلاً.

ـ كانت صوفى يسعدها للغاية أن ترى الكسندر مضىّ مهزولاً ومنهكاً، ذلك أن فقدان النوم كان مشكلة تشاطرا إياها. وجهت إليه سؤالاً ، قائلة.

ـ كيف حال «ويللو ريتش»، هل تم انجاز كل شىء الآن ؟

التقت عيون الكسندر بعيونها وهو يقول :

ـ جيد. السنائر التى اشتريتها مناسبة تماماً، على فكرة.

لقد قمت بتركيبها يوم الجمعة.

ـ أوه. عظيم. كلا ـ كلا. أشكرك، يا أيتها العمة كيت، لا أريد البودنغ (الحلوى).

قال بوها، وقد لاحظ عليها تناولها للطعام :

ـ أنت لم تأكلى بما فيه الكفاية.

هل تظهين وجبات جيدة لنفسك هذه الأيام ؟

ـ نعم، يا دكتور. أطهى !

قالت ذلك صوفى وهى تتحاشى نظرة الكسندر التهكمية الساخرة، وشرعت تحادث كيت بشأن الأوبرا المذاعة عبر التلفاز، والتى كانا قد شاهداها معاً أثناء بحر الأسبوع، وبعد ذلك بقليل، نهض الكسندر للإنصراف. وقال :

ـ هل أستطيع أن أوصلك يا صوفى ؟ إن أرليسفورد فى طريقى.

ـ لا، أشكرك. سابقى لأشرب الشاى ـ إذا كان الأمر لا يضايقك يا عمة كيت ؟

وافقتها كيت بإبتهاج وترحاب، وضغطت على الكسندر ليمكث، غير أنه جمع شمل نفسه وقد أحس بأنه يتوق إلى المهروب.

تساءل الدكتور غوردون، بينما كانت كيت تودع ابن زوجها، قال:

ـ هل تشاجرتما أنتما الإثنان ؟

ـ أجل. لا تشغل نفسك بذلك ؟

ابتسمت صوفى بإشراق محياها ومضت لتساعد كيت فى المطبخ.

رفضت صوفى دعوات بيرى لتناول طعام الغداء فى مطعم البونيكورن، منذ البداية، غير أنه فى اليوم التالى أصر على أن تكسر هذه القاعدة، لقد كان مزاجه متهللاً شديد الابتهاج، وأراد أن يحتفل بذلك. إذ أنهم كانوا قد تلقوا لتوهم تأكيداً وتنويهاً بأن الشركة قد فازت بمزايدة فندق الوتر سايد فى برادينغ.

قال بيرى، وهو يحمل الشراب إلى المائدة:

ـ لله درك يا الكسندر. آسف على تأخرى على فكرة. إن المطعم يعانى من قلة العمال.

احتست صوفى الخمر وهى غائبة الوعى، فقد كان ذهنها مشغولاً بآخر مناسبة كانت فيها مع الكسندر ههنا. تساءل بيرى قائلاً

ـ ماذا دهاك يا صوفى ؟ إن أى شخص يرى بعين واحدة بمقدوره أن يعلم أنك أنت والكسندر قد توقفتما عما كان بينكما من ود وعلاقة طيبة. وأن كلاكما غير سعيد تماماً بما آلت إليه الأمور.

ـ ليس ثمة شىء كان ودّاً، كما قلت أنت هكذا بدقة.

وتفكرت صوفى بتعاسه قائلة فى نفسها، وليس من المحتمل أن يكون.

ـ آسف، كنت أظن فحسب أن ذلك كائن. أقصد أنكما عرفتما كل منكما الآخر، منذ عهد بعيد، بطبيعة الحال. غير أنه منذ تجربة الكسندر الشنيعة مع ديلفين، إلاه وقد صار رجلاً مختلفاً فى كثير من الأحوال عما كان من ذى قبل. وهو يستهواك بشدة هذه الأيام، يا صوفى، باعتبارك صديقة قديمة للعائلة أو غير ذلك.

ـ هراء.

قالت ذلك يا صوفى مباشرة، يكاد قلبها يثب منها، بمجرد أن علمت أن الكسندر يستهواها. وضع بير أحدى يديه على يدها، قائلاً:

لقد رأيت «ويللو ريتش». وعلمت أنك ساعدته على اختيار الكثير من المواد المنزلية هناك، وبطبيعة الحال، ظننت أن...

ـ حسنا أنتما صديقان فحسب.

لا. يا بيرى.

بلعت صوفى ريقها بصعوبة، وعيناها اغرورقتا بالدموع، قائلة:

ـ نحن لسنا حتى صديقين، ولن نعد كذلك.

ـ إذن أنتما ههنا.

قفزت صوفى عدة ياردات حينما قاطع حديثهما صوت الكسندر. نظرت إليه صوفى وهى تشعر بالذنب والإثم. وقد غاص قلبها من جراء نظرته المستهجنة الباردة والبادية على وجهه الوسيم، بينما كان هو يحوم حولهما.

قال بيرى، بدون خجل أو ارتباك:

ـ نحن نحتفل. نتناول أى طعام يا الكسندر ؟

ـ تحتفلان ؟

كان صوت الكسندر يصر، وكان بيرى ينظر إليه بعينين زرقاوين مليئتان بالبراءة، وقال :

ـ بمزايدة فندق الووتر سايد، طبعاً، أيها الرجل.

ابتسم بعذوبة ورقة وانطلق يشق طريقه نحو البار.

قال الكسندر متسائلاً بخشونة :

ـ هل استطيع أن أنضم إليكما.

ـ نعم تستطيع.

ابتلعت صوفى بعض الخمر لتبل حلقها الذى جف فجأة، وأضافت:

ـ تهانى، على فكرة. لابد أنك مسرور جداً.

ـ أشكرك.

حدق الكسندر نحو الأسفل على المائدة وقال :

ـ هل تتناولين الغداء هنا مع بيرى كل يوم ؟

ـ كلا. اليوم أول مرة، فى الواقع. لقد أصر على الاحتفال بنجاحك.

نظرت صوفى بعيداً عبر البار المزدحم وهى تكابد نفسها لتحتفظ بهدوئها.

ـ هل كل شىء على ما يرام فى بيت ايليكس الصغير ؟

ـ نعم.

ـ حسناً. كيف حال جدتك ؟

ـ أفضل حالاً الآن منذ أن استقرت هناك. لكن يعكر صفو حياتها عمال برود اواكس.

مد الكسندر إحدى يديه ليلامس يدها، وقال :

ـ صوفى...

صب لعناته الكسندر حينما عاد بيرى ادراجة، وهو يهز ثلاثة كؤوس. قال بيرى.

mias.com منتديات ليلاس

ـ لقد أمرت بإحضار غداء لك معنا، يا الكسندر... يا لها من امرأة شقراء نارية تلك التى تجلس هناك فى الخلف.

إذ ذاك نظر الكسندر وصوفى إلى بعضهما مشدوهين مرتبكين التقطت صوفى فطيرتها بينما كان بيرى يلتهم بنهم ساندويتش اللحوم، ثم نهض قافزاً، وهو يقول أن لديه موعداً، دفع صوفى جاعلاً إياها تجلس على مقعدها، حينما نهضت لتنصرف معه، قائلاً لها أن تنهى طعام غدائها شيمة الفتاة الطيبة، وألا تندفع عائدة أدراجها إلى المكتب.

ولما أصبح الكسندر وصوفى بمفردهما معاً، راحا يتظاهران بأنهما يأكلان.

ـ الكسندر...

ـ صوفى..

وحادثا نفسيهما، ثم توقفا برهة، ينظران إلى بعضهما البعض، وابتسم الكسندر للمرة الأولى.

ـ لم أستطيع أن أطيق صبراً، يا صوفى. لقد كنت بائساً حتى الموت منذ تلك الليلة. واستغرق التفكير منى فترة طويلة فى بيتى الخاوى.

ـ وأنا أيضاً، أتانى الفكر والقلق كثيراً.

ـ هل كان ذلك الفكر والقلق عنى ؟.... سألها الكسندر هذا السؤال، وأمسك بيدها بين يديه تحت المنضدة، وراح يربت عليها بأصابعه.

صارحته صوفى بلا تفكير قائلة :

ـ بالطبع، كان قلقى وفكرى بشأنك. لماذا كنت هكذا بارداً جافياً عنى البارحة ؟

ـ هل أنا كنت بارداً وجافياً ؟ يا إلهى ـ لقد كنت أنت ملكة

الجليد الأصلية. لقد كانت نظرة واحدة منك كفيلة بأن جعلتنى أشعرب بالبرودة والعزلة!

أصدرت صوفى ضحكة مكبوته، ثم غرقت فى التفكير عندما وجدته ينظر إليها بذلك القدر من التركيز، حتى أنها أحدقت مأظرة إلى الخلف بدون كلام. وقت أن رأت بؤبؤى عينيه الكثيفتين بالأهداب قد اتسعتا، وشملتها بالاحتواء حتى لكأنها عبدة من الرقيق.

قال بنعومة :

ـ أنا أفتقدك يا صوفى. ولكل ما أفكر فيه هو تلك الكلمات التى قلتها.

ـ أية كلمات ؟

ـ طلبك الذى طلبتيه منى يا حبيبتى. أرجوك كرري الطلب مرة ثانية، ولسوف استجيب لك بطريقة مختلفة هذه المرة، أعدك بذلك. لقد توصلت لقرار مؤداه أننى لا أستطيع أن أنفق حياتى كى أرضى كل الناس، ولكن أنت وأنا فقط.

واقترب منها أكثر فأكثر وانحنى نحوها، بينما يده تضغط وتحكم قبضتها على يدها. وقال:

اطلبى منى مرة ثانية يا صوفى.

ـ ههنا ؟

ـ نعم هنا، الآن.

لم تستطيع صوفى أن تخفى عنه دموعها التى اغرورقت بها عيناها وتلاشت من حولهما كل مظاهر الضجيج والجلبة الضحك إلى لا شيء. كل ما تستطيع أن تراه هو الكسندر وإلحاح عينيه فى طلبها وهو بعد كالمنوم مغناطيسياً، وقت أن سألها أن تقول ما تريده هو.

ارتعشت صوفى، وأحكمت يده قبضتها على يدها، حينما جرى

mlas.com منتديات لملاس

لسانها على شفتها اللتين جفتا على حين غرة. وقالت هامسة :

ـ إذا تذكرت ولم تخنى الذاكرة، فإننى قلت...

ـ الكسندر !

صاح صوت عال كصوت الفلوت، كاسراً سحر كلامها، وأضاف الصوت :

ـ يا لها من مطاردة تلك التى قمت بها من زجلك، يا حبيبى ! لقد فتشت عنك فى مكتبك القديم أولاً، ثم مررت ههنا بسيارة أبى «البغور» لهذا المكان الجديد، وأخبرنى فرد من عائلة بريان أننى سوف أجدك فى الحانة.

وها أنت ذا !

قالت ذلك ديلفين ويندهام واقفة بينهما وهى ترتدى معطفاً مصنوعاً من الفراء مندلياً فوق فستانها. وألقت بالقوة الكاملة لابتسامتها المشهورة عليهما، بينما كان يحدقان فيها فى صمت كالثلج، وضاقت عيناها عندما انتقلت عيناها من أحد الوجهين الجامدين إلى الآخر.

شعرت صوفى كما لو كانت تعيش حلماً مزعجاً، وقبل أن تهض الكسندر متبطئاً على قدميه، بينما كان وجهه عبارة عن قناع وسيم، وقال بهدوء :

ـ مرحباً، يا ديلفين. يا لها من مفاجأة تامة.

ـ لقد عدت يا حبيبى.

أعلنت ذلك صوفى بمرح، وضحكة متهورة، أدت إلى موجة من الاهتمام المركز التى سرت عبر البار بأكمله. وراحت تهندم نفسها بأسلوب أثار الانتباه التى كانت تجتذبه، ثم التفتت إلى صوفى، التى شعرت فجأة أنه لا حول لها ولا عون، كالفأر الذى شلته نظرة محدقة من قطة سوداء مفترسة ضاربة. قالت ديلفين.

ـ أهلاً، يا صوفى، جميل أن أراك مرة ثانية. أنت لازلتى تحومين حوالين الكسندر إذن ؟

عند ذاك، أفاقت صوفى ونهضت على قدميها، تلملم حقيبتها والوشاح. وألقت على ديلفين نظرة صغيرة هادئة، وقالت :

ـ أهلاً، يا ديلفين أنا على يقين من أنك لن تعتقدى بأننى وقحة إذا ما مضيت لابد ألا أترك رئيسى ينتظر. إننى أعمل لصالح بيرى فى فرع المكتب هنا هذه الأيام.

ثم ابتسمت فى وجه الكسندر وقالت :

ـ إلى اللقاء.

صوفى...

صاح الكسندر بالحاح، وهو يمسك بذراعها، بينما تشق طريقها، غير أنها خلصت نفسها وبدأت فى الاندفاع فى طريقها عبر الحشود.

إلى اللقاء، يا صوفى.

قالت ذلك ديلفين، وألقت يد مستحوذة مستبدة على ذراع الكسندر وصاحت :

ـ والآن يا حبيبتى. ألن تشترى لى مشروباً ؟

فرت صوفى هائمة، وألقت مصادفة بـ آنا ميتشيل، زوجة المالك.

قالت الأخيرة، وهى تلهث :

ـ آسفة. ثمة فوضى شاملة اليوم.. ا وحده يعلم ما سوف نفعله الليلة.

ـ هل يعوزك العون فى البار ؟

قالت صوفى متسائلة بإلحاح

ـ نعم نحن بحاجة إلى المساعدة. هل تعرفين أى أحد يستطيع أن يملأ الفراغ لليلة أو ليلتين ؟

نعم. أنا.

الفصل العاشر

جاء عرض صوفى وهو عفو اللحظة، رد فعل مباشر على الصدمة العاطفية التى منيت بها من جراء رؤيتها لديلفين.. وأسرعت صوفى، غير حافلة بشكر آناميشيل، خارجة من اليونيكورن، لا ترى شيئاً إلا التعبير على وجه الكسندر، حينما كان يتطلع لديلفين وهى تبتسم له. لقد كان يحدق فى ذلك الوجه الفاتن وكأنه رجل فى سكرة الأحلام، تفكرت صوفى متحيرة فى ذلك، وقد أصابها اليأس والشقاء. فبالنسبة لها كانت التجربة ككل عبارة عن كابوس، وقطع وحشى للحظة التى كان يمكن لها أن تمثل نقطة تحول فى حياتها.

أما ظهيرة اليوم التالى، فقد كانت تجربة تمنت صوفى ألا تتكرر أبداً، حيث قضتها فى قلق وتوتر، تارة فى أمل، وتارة أخرى فى فزع من أن يظهر الكسندر فى أية لحظة، وهو يتطرف فى معيته ورعايته وديلفين. وكل ما كانت تبتغيه صوفى هو أن يخرجها شىء من شقائها بطريقة أو بأخرى، غير أنها تركت مهملة فيما يمكن أن نطلق عليه مجازاً «سلام»، ولم يعد أبداً ببرى أدراجه إلى المكتب عقب أنصرافه المفاجىء إلى البيت لكى يقوم بتفقده، أما بريان هاريس وأتباعه المحبون فقد كانوا غارقين فى ركام الرسومات والمطبوعات الخاصة بإحدى الشركات الجديدة.

وبدا لصوفى أن الوقت لا يمضى، وأنا سرمدى فى توقفه كالخلود،

قبل أن تصبح حرة فى الذهاب إلى بيتها أخيراً، وقد اشتعلت فيها نيران الرغبة فى أن تحك وتفرك جسمها كله من رأسها حتى أخمص قدميها، وهى تشعر بعض الشيء أن الماء الساخن الحار والصابون ربما يغسلانها من المهانة التى أحست بها حينما توسلت إلى الكسندر أن يكون عشيقاً لها، بينما هو لا يزال واضحاً يتوق شديداً إلى ديلفين.

وساورها الاحساس بأنها تريد أن تركل نفسها. لقد كان تعريضى نفسها للحماقة مرة واحدة امراً مسموحاً به، أما مرتان فهو عبارة عن جنون. سكبت صوق الماء على شعرها ووجهها، وقد أصابها الإحساس بالموت لدى تذكرها إنها قد نسيت بالفعل كم كانت ديلفين جميلة فى الواقع. أى رجل يمكن أن ينظر فيرى مثل هذا الكمال، بدون السعى والرغبة فى اقتنائه ؟ والكسندر، إذا تسنى أن يتم تصديقه، لم يستطيع أبداً فى الحقيقة أن يمنح ذلك المزيج. وهو الأمر الذى زاد المشكلة سوءاً. فالرجال دائماً، كما قال لها الكسندر ذات مرة، يريدون بشدة الأشياء التى منعوها. بينما هى، أى صوفى قد راحت تتدبر ذلك وترتعد، كانت قد عرضت نفسها عليه مرتين. مرتين !

هاجت صوفى شعرها بالمجفف ومرشة الشعر، ثم صنعت ساندوتشاً وقطعته إلى أجزاء، حينما كانت تحتسى فنجاناً عقب آخر من القهوة السوداء القوية، ذراعة غرفة الجلوس الصغيرة روحة وجيئة ذهاباً وإياباً، حتى حان الوقت للرحيل متوجهة إلى مطعم اليونيكورن.

قالت آنا مبتشيل لها، إن أمسيات يوم الأثنين دائماً أكثر هدوءاً من باقى أيام الأسبوع. كانت صوفى ممتنة وشاكرة لهذا، حيث أتاح لها فرصة حفظ الأسعار، وتعلم كيف تسحب بانيات أثمان البيرة، وتناول والتعامل مع الطلبات، وغسل وإعادة رص واستبدال الكؤوس

والأكواب، وأن تكيف نفسها على روتين الوظيفة عموماً.

أما فرانك مبتشيل صاحب الملك، كان رجلاً فوق البنية ذا طبع سار وإن كان تسلطياً، محبوباً من جانب مجموعة الزبائن.

أما صوفى، فقد وجدته رجلاً يسهل العمل معه منذ البداية، أساساً لأنها تعلمت بسرعة، وكانت سريعة فى تلبية الطلبات. غير أنه أخذ عليها شيئاً واحداً لم يستطع التسامح فيه، فأخبرها فرانك بصراحة بأنها كساقية تنفق الكثير من الوقت، وتتوانى ، فى التسامر مع الزبائن من صغار الذكور الذين يرتادون البار.

أدهش صوفى أن تجد لدى الناس الوقت للتسامر مع بعضهم البعض من خلف بار مطعم اليونيكورن، وعادت إلى المنزل فى وقت انتهاء العمل والاغلاق، وقد شعرت بأنها متعبة جداً. ووجدت أن جرس التليفون يدق، وعندما فتحت الباب واندفعت إلى غرفة الاستقبال اكتشفت أن الجرس قد توقف عن الرن. فنظرت إليه فى حالة من الاحباط، وهى على يقين من أنه الكسندر، انطبت عابسة. إذا كان حقاً يريد أن يحادثها، بوسعه أن يدق متصلاً مرة ثانية، صعدت أعلى الدرج وتناولت مضيعة الوقت سدى وقت أن كانت ترتدى ملابسها، ثم اضطجعت فى حالة من الترقب المشوب بالتوتر، وقد تأكدت من أن الهاتف سوف يدق جرسه ثانية. وأخيراً حينما أصبح واضحاً فى النهاية أن الدق لن يتكرر مرة ثانية، استسلمت وتركت نفسها تبكى بؤسها فى وسادتها.

كان بيرى منتظراً عندما وصلت المكتب فى اليوم التالى. سلمها مذكرة وقال :

ــ صباح الخير يا صوفى. لدى أوامر بأن أناولك هذه قبل أن تبدأ.

شكرته صوفى، وقد زمت فمها حينما رأت خط يد الكسندر

المألوف، يقول:

لقد اتصلت بك الليلة الماضية ـ مراراً ـ بدون نجاح. أنا متواجد فى المحكمة طيلة النهار اليوم، ولكننى سأكون فى البيت الصغير هذه الليلة فى الساعة الثامنة. الكسندر.

لولبت صوفى الورقة حتى صارت كالكرة وألقت بها فى سلة المهملات بدون تعليق، ثم انخرطت بنفسها فى أعمال اليوم الاعتادية، وقد علمت علم اليقين أن بيرى يكاد ينفجر من الفضول. لم تقم بأية محاولة لاشباع فضوله، وتعاملت صوفى مع بريد الصباح، وقبل أن يشرع بيرى فى القيام بأى إغراء، كانت صوفى على وشك الخروج من مكتبه، قال يفتح الباب لصوفى:

ـ لقد عادت ديلفين. حسبما سمعت.

ردت وهى تبتسم ساخرة بعض الشىء، قائلة:

ـ نعم، كان يتعين عليك أن تمكث أمس. لقد فاتك الكثير من المتعة.

بدا بيرى مهموماً، وهو يقول:

ـ انظرى، يا حبيبتى، أنا واثق من أن الكسندر...

قاطعته صوفى برفق، قائلة:

ـ حسناً. ينبغى الآن على أن أنصرف.

كان ثمة المزيد من العمل لانجازه فوق المعتاد، وهو الأمر الذى كان يشغل بال صوفى كثيراً. أحالت مذكرة الكسندر إلى مرتبة دنيا من تفكيرها، رافضة أن تفقد أعصابها من جراء اللهجة الاتوقراطية المتسلطة فى الرسالة. ولكن حينما أخذت فترة الراحة القصيرة من أجل تناول طعام الغداء، وأشعرت نفسها بنشوة الانتصار حين تصورت الكسندر يخفق سدى وعبثاً بيتها الخالى فيما بعد. إذ أنه لو كان يريد أن يراها، يتعين عليه أن يجدها ويبحث عنها أولاً.

هرعت صوفى إلى سام لايفورد أثناء طريقها لتناول الغداء الخفيف فى الكافيتيريا، وبدلاً من أن يتجنبها كما لو كانت طاعوناً، كما فعل فى مناسبات متعددة من قبل فى المدينة، توقف ليتكلم معها، قال وهو يبتسم بحياء:

ـ أتعشم أن تكونى قد استقريت بسعادة فى بيت إليكس الصغير يا صوفى.

أكدت له صوفى أنها استقرت هناك بسعادة، ومشت معه عندما كانا يمضيان على الطريق، سألها قائلاً:

ـ هل سامحتنى؟

ضحكت قائلة؟

ـ إذا كنت تقصد سماحى بشأن الوظيفة، فقد سامحتك طبعاً.

ـ لقد شعرت بالحزى حقيقة وقت أن أصبتك بالإحباط.

تأثرت صوفى، وقالت:

لقد حدث ما حدث، لقد آلت الأمور كلها فى النهاية على أفضل وجه، وبناء عليه، أرجوك لا تكن مرتبكاً بشأن هذا الموضوع.

استرخت عضلات وجه سام حين سألها صوفى هل يشترى لها طعام الغداء فى مطعم اليونيكورن كإجراء على سبيل التعويض والترضيه.

ابتسمت صوفى ابتسامة باهرة وقالت:

ـ كلا! أقصد، لا، أشكرك. أنا أساعد ملاك اليونيكورد هناك فى الأمسيات لأجل غير مسمى حتى يكلفوا شخصاً دائماً بالعمل، ولذلك أفضل أن أتجنب اليونيكورن فى الصباح والظهيرة.

وحينما أقترح سام الكافيتيريا كبديل، بدا الأمر فظاً إن هى رفضت: وانقضت صوفى لفترة فاصلة مبهجة معه، ولطف من جروحها الدامية قليلاً جهوده المؤثرة التى بذلها كى يسعدها وبالتالى

عادت متأخرة إلى المكتب، الذى كان خاوياً، فيما عدا زائراً غير متوقع حضوره البتة. كانت ديلفين ويندهام جالسة متوجة معظمة خلف مكتب صوفى، أما عيناها الذهبيتان فقد كانتا مشتعلتين بنار حقودة خبيثة عندما التقتا بعينى صوفى ووجهها. نهضت متمددة وهى تلقى بشعرها نحو الخلف، وقالت :

ـ أهلاً، يا صوفى.

ظهرت ديلفين بديعة الجمال فى ذلك النوع من الفستان الملتصق بجسدها ذى الثنيات والتجاعيد، الذى لا تستطيع سوى المرأة الرشيقة الهيفاء أن ترتديه، بجانب معطف الفراء الذى كانت تلبسه بالأمس، وهو منديل بإهمال من أحد كتفيها، وكان يخطف الأبصار عن كل ما عداه، دبلة الخطوبة الزمردية اللون التى كان الكسندر قد أعطاها إياها بارزة على يدها اليسرى.

أجرت ديلفين يدها اليسرى باسترسال على شعرها وقالت :

ـ لقد تصادف أن كنت أمر، لذلك ظننت أنها فرصة كى آتى إلى هنا من أجل التسامر.

تفكرت صوفى فى كلامها، وقالت فى نفسها يا لها من حجة، إذ أن ما تدعيه لا يحدث إلا فى عدم وجود تليفون تستطيع أن تواعدها من خلاله.

قالت صوفى بفتور :

ـ زيارة لطيفة. أقدم لك الشاى أم القهوة ؟

ـ لا يا حبيبتى، لا أستطيع المكوث، لقد جئت فحسب كى أضعك فى الصورة بكل صراحة، والموضوع بشأن صديقنا المشترك.

تساءلت صوفى فجأة بسخرية وتهكم قالت :

ـ هل أنت من هواة روايات ديكنز ؟

ـ ما الذى تتحدثين بشأنه ؟

مشت ديلفين الهوينى نحو الباب، ثم التفتت منسكعة لدى الفتحة، وأضافت :

ـ حسنا يا صوفى. دعينا نناقش الأشياء بصراحة. لقد عدت الآن. للخير، ولن يكون الكسندر فى حاجة إليك مما تعرضينه عليه بكل وضوح.

أجلست صوفى نفسها خلف المكتب، وهى تنظر إلى زائرتها برزانة تصنعتها كى تخفى الجريمة التى تستشعرها فى قلبها. وقالت محدثة إياها :

ـ يا لك من داعرة يا ديلفين، أحسب أن عقد شركة إل إيه قد آل إلى الفشل وألغى ـ أم أن بترى فأول قد وجد، وجهاً أصغر سناً من بين الامريكيات ؟ عقب كل شيء، مثلما تنتهى أيام شهرة المانيكانات، ستوف تلقين نفس المصير، أليس كذلك ؟

تشنج وجه ديلفين من الغضب الذى طمس جمالها. أنشت أيديها على المكتب واحدقت فى صوفى، قائلة :

ـ يا لك من بقرة حقيرة ! كيف تجرأين ؟ لقد علمت أنك كنت تحومين حول الكسندر على مدى كل هذه السنين، ولكن يجب عليك أن تنسى كل ذلك، لقد عادت ديلفين، وهى تمثل كل شيء كان يريده الكسندر بالأبت. وأنا أعنى يريد. أما أنت يا حبيبتى، فليس بمقدورك أن تنافسينى !

هزت صوفى كتفيها وقالت :

ـ دعك من الفزع يا ديلفين. لن تلقى منى أية منافسة. فالحصول على زوج ليس على قائمة متطلباتى. هيا اغربى عن وجهى والعبى مع الكسندر حتى ترضى قلبك.

ونظرت إلى ساعتها بحدة، وجذبت أحد الملفات إليها، وقالت:

ـ والآن، إذا إذنت، إن لدى الكثير من العمل الذى يجب انجازه إن

لدى موعداً هذه الليلة، وأنا حريصة على الانصراف فى موعدك المحدد على الفور.

تراجعت ديلفين وقد أصابها الهلع، قائلة :

ـ نعم ـ حسناً، طالما أنك تعرفين كيف تسير الأمور.

جذبت الفراء نحوها وحواليها، وهى تنظر إلى صوفى بشك وريبة، قائلة :

ـ من الرجل الذى كان معك بالخارج ؟

ـ سام لايفورد، سمسار العقارات.

ـ هل تناولت الغداء معه ؟

ـ نعم.

أومأت صوفى برأسها وهى تجيبها.

ـ هل هو الذى واعدك هذه الليلة ؟

لخبطت صوفى أوراقها بحدة، وقالت :

ـ ليس هذا شأناً من شؤنك، ولكن كلا، ليس هو الذى واعدنى.

هزت ديلفين رأسها، وقالت :

ـ لاأرى الذى يراه الرجال فيك. أعنى أنك لست على جمال رائع، أليس كذلك ؟

ـ ربما كان جمال النفس هو الذى يجتذب الرجال. والآن أغربى، يا ديلفين.

والتفتت صوفى مستديرة نحو آلتها الكاتبة، مجفلة نحو تصريع الباب المغلق، حينما رحلت زائرتها أخيراً.

كان مزاج صوفى شريراً فى بقية ساعات الظهيرة، نصف رأسها مشغولاً بالعمل، والنصف الآخر يصب اللعنات على الكسندر بالأيت وديلفين ويندهام.

متأثرة بإهانات ديلفين، أفردت صوفى كبير عناية بزينتها تلك الليلة قبيل خروجها متوجهة إلى اليونيكورن. ومن أجل اصلاح وتدعيم ذاتها تلك الذات التى عانت الأمرين من المحن، أرتدت أجمل ما فى حوزتها من الملابس الأنيقة التى تبدى مفاتنها وحسن جمالها، وكانت مسرورة حين غمز فرانك ميتشيل بعينيه تقديراً لجمالها لدى رؤيته إياها، وقال :

ـ لطيف وجميل جداً يا صوفى. هذا هو عين المطلوب من أجل اجتذاب المقامرين.

كان فرانك ميتشيل على حق. فقد كان اقبال الزبائن كثيفاً عليها طوال المساء، على خلاف الليلة الماضية.

قالت صوفى وهى تلهث ذات مرة، عندما كانت تلمع الكؤوس بغضب :

ـ هل الأمور على هذا النحو كل أيام الثلاثاء ؟

قالت آنا مؤكدة :

ـ الليلة وكل ليلة.. لا يتسربن إليك الملل. يا حبيبتى، إنها الأعمال. وأنت تسيرين سيراً حسناً، ألا يستهويك التخلى عن الوظيفة النهارية وتأتى معنا للعمل هنا على أساس مستديم ؟

كان هذا العرض فى تلك الحالة المزاجية لصوفى مغرياً. ولولا الكسندر، لكانت قد أجابت بالايجاب تماماً وعلى نحو طائش. غير أنه كان هناك أيضاً بيرى لكى تتفكر بشأنه، وجميع الأفراد الآخرين. وأقدمها التى تألمت من طيلة الوقوف، حيث إنها لا يستطيعان حملها. هزت رأسها بأسف، ثم التفتت إلى مجموعة من الزبائن الجدد الذين وصلوا لتوهم بابتسامة، قائلة :

ـ صباح الخير يا سادة. ماذا أحضر لكم ؟

وعندما كانت صوفى فى طريقها إلى البيت كانت تهتز مرتجفة

مرتعشة. حيث كان الجو عاصفاً طيلة النهار، غير أن الرياح الآن صارت هوجاء عنيفة، أما السحب فقد ساقتها الرياح بوحشية عبر السماء المضيئة بضوء القمر، وقت أن انحرفت بعيداً عن أضواء شوارع المدينة، معرجة إلى شارع الكنيسة. لقد كانت الرياح تنصف صارخة كالشيطان عبر الأشجار، وهى تتخذ شكل القمع عبر الممشى الضيق بين فناء الكنيسة والبيوت الصغيرة، بقوة قذفت بشعر صوفى فى عينيها، وتسربت كالثلج عبر معطفها الواقى من المطر. وفى أثناء فترة هدوء مؤقت بين عصفات الريح، توقفت، وقد تصلبت وأصابها التجمد، حينما تأكدت أنها تسمع خطوات أقدام.

راحت تبرز لنفسها تلك الأصوات قائلة ربما لأنها متعبة، صارت تسمع أشياء لا وجود لها، وأخذت تجرى مسافة الباردات القليلة الباقية نحو البيت، غير أن قلبها صار فى حلقها حينما أسرعت خطوات الأقدام خلفها، تلاحقها بنفس مقدار سرعتها، وعندما وصلت إلى الباب الأمامى لبيتها، أمسكت يد بذراعها، فصرخت وهى تستدير كاللولب بسرعة. عندما أنفجر ضوء القمر بارزاً من وراء السحب ليضيء شعر رأس الكسندر الذى لا تخطئه العين، فاحدقت فيه، وقد أخذتها قوة الغضب، والحنق، وقالت وهى تبصق.

ـ ماذا تظن بحق الجحيم أنك بصدد أن تفعله ؟

ـ أين كنت أنت بحق الجحيم ؟

سألها هذا السؤال مطالباً بالإجابة، بصوت أجش، من فورة، وبجاهلاً سؤالها وأمسكها من كوعها، وقال :

ـ ألم تصلك مذكرتى ؟

دفعته صوفى بعيداً عنها، وصاحت :

ـ أوه. أجل. لقد وصلتنى مذكرتك.

فتحت الباب، ثم التفتت إليه قائلة ببرود :

ـ لقد كنت أنت الذى قلت إنك ستكون ههنا عند الساعة الثامنة، وليس أنا.

فتح الكسندر الباب وقذف بها داخل البيت، بفظاظة، وأخذت عيناه تلمعان على نحو يوحى بالخطر، وهو يصرع الباب قائلاً إياه، ثم وقف متكئاً عليه، طاوياً ذراعيه، وقال :

ـ لقد اتصلت بك هاتفياً على فترات متقطعة طيلة مساء البارحة، حتى أوغل الليل، وظننت أنك قد انصرفت للمقام عند كيت. ولذلك كتبت بعجلة المذكرة، وأعطيتها ليبرى قبل أن أنطلق إلى المحكمة هذا الصباح. يبدو أننى كان يتعين على أن أفرغ نفسى كى أصوغها بكلمات معسولة وردية، متوسلاً إليك أن تتلطفى وتنازلى فتمكثى فى البيت هذه الليلة. أين كنت على مدار ليلتين متواليتين، بحق الإله ؟

خلعت صوفى نفسها من معطف المطر، وقد تورد وجهها من الغضب، وقالت:

ـ ليس من شأنك فى شيء، أن تسألنى أين أمضى أمسياتى.

ـ غلطتى، أنها غلطتى أنا.

قال ذلك الكسندر وقد انفجرت وجنتاه بالدم، فأوضحت خطوط وجهه، أضاف.

ـ أعتقد أن هذا ـ نوبة الغضب هذه بسبب ديلفين :

اشتعلت عينا صوفى وهى تنظر إليه بإتقاد، وقالت :

ـ نوبة غضب. هيا اغرب عن هنا، يا الكسندر. عد إلى حب ذراعى خطيبتك المخلصة.

قالت ذلك وهى تبصق الكلمات فى وجهه، وأتى الكسندر قادماً من ناحية الباب ومندفعاً بسرعة، وأمسك بيديها، قائلاً :

ـ أنت غيورة !

وأبرقت عيناه بنشوة انتصار، وجدت صوفى نفسها غير قادرة على احتمالها. فقالت، وهى تحاول أن تخلص نفسها :

غيورة ها !

ـ غير أن الكسندر كان متيقظاً لها وأحكم من قبضته، قالت لاهثة :

ـ هل سوف تسمح لى بالانصراف ؟ لقد كان يوم العمل الذى مضيته طويلاً، وإنى لمتعبة، وأريدك فحسب أن تخرج من هنا.

قال متقدماً إياها بقسوة :

ـ من هو ؟

أحدقت فيه صوفى وقالت :

ـ من هو الذى هو من ؟

خلص أحد يديه، وأخذ يمسها بقلة احتشام مهينة وقال :

ـ أنت ترتدين أفضل ملابسك يا ترى لمن.

تفادته صوفى، وقد بلغ بها الحنق والثورة مداها، والتقطت قضيب إذكاء النار المعدنى، وقالت :

ـ أخرج من هنا، يا الكسندر بالأيت، أخرج من هنا الآن، قبل أن ألحق بك أية أصابات، أيها الخنزير لمرتين على التوالى !

ألقى الكسندر ذراعيه على انبساطهما بيأس، وقال :

ـ صوفى، ما الذى لحق بك، بحق الإله ؟ حسناً إنها ديلفين أثارتك مرة ثانية. هل هذا هو السبب فى كل ذلك ؟

ـ لقد قلت لك للمرة العاشرة والأخيرة، إنذاراً لك ! أخرج من هنا الآن !

ـ أنظرى إلى يا صوفى غوردون. لقد مكثت متسكعا فى السيارة عند نهاية شارعك ساعات طويلة، أنتظرك كى أراك فحسب. ولقد

صرت مسعوراً شديد الاهتياج حتى الموت بمرورك وانعطافك لحظة بحيتك، ولن أبرح المكان حتى تخبرينى ما الذى يطحنك ويثير ثائرتك.

ـ إذن ستمكث لى ههنا طوال الليل !

ولما تحققت صوفى من إذعاء قولها لالكسندر، كان الوقت قد أزف فتراجعت متألمة، آنذاك تقدم الكسندر نحوها، وضاقت عيناه وهما يومضان ومضات سريعة، وقال :

ـ استحلفك برضائك الكبير، أن تعطينى ذلك القضيب المعدنى.

ـ لن أعطيك إياه !

لوحت صوفى بقضيب إذكاء النار المعدنى فى وجهه بوحشية، غير أن الكسندر انتزعه فى معمعة الشجار معها، خالعاً إياه من يدها، وقذف به فى المدفأة، وجذبها إليه وهو يهزها هزاً عنيفاً، قال وأسنانه تصطك :

ـ حسناً. سوف نترك الجدال إلى ما بعد ذلك.

ـ إلى ما بعد ذلك ؟

انفتح فم صوفى احتجاجاً غير أنه أغلق فى غير إبطاء بفمه هو. وبعد لحظة وجزء من الثانية. كانت قد استسلمت، وأحكم مسكها، ثم شرعت فى القتال والعراك جلباباً، وهى تركله بأعقاب الحذاء العالى، وقد أمدت أحد يديها لتقبض على شعره، غير أن الكسندر كان غير واع بكل ذاك. انفرطت حبات العقد وانتثرت فى شتى الاتجاهات، غير أنه لم يرفع فمه عن فمها، خانقاً احتجاجتها، منيعاً لا يتأثر بضربات يديها حين رفعها لأعلى من الأرض.

راحت صوفى تضربه وتجاهد كالوحش، إلا أن الكسندر لكونه رجلاً حملها نحو الغرفة، ولوى مقبض الباب ففتحه، وصعد أعلى

الدرج. كان صعودهما لغرفة النوم عنيفاً، فى حتمية، وكان كلاهما يصطدمان بالحوائط متألمين، حينما يتعثر الكسندر وهو عنيد متصلب، مصراً على حملها لأعلى، مصمماً على إبدعها، وقد صارت عبئاً عليه على المكان الذى كان ينوى أن يضعها عليها

وفى اللحظة التى ألقى بها على اللحاف، زحفت مثل السمكة الثعبان، غير أن الكسندر ألقى بنفسه عليها، يطاردها مطاردة كرة الركبى، وأمسك بها من رسغ قدميها، يسحبها إلى الخلف على السرير،

عند تلك النقطة، فقد
الكسندر آخر هنة من هنات الحضارة التى كان لم يفقدها بعد. أصدر أنيناً كرجل يعانى كرباً،

ضربت صوفى رأسها للخلف وللأمام، مصدرة أصوات احتجاج مخنوقة، غير أن استجابة الكسندر كانت أن يحتويها

واضعاً أحد يديه على فمها، حينما كان يجاهد لكى يتخلص من اللاأكيت بيده الأخرى. لم يسمع أى منهما العواء المتصاعد للرياح، حيث كانا كلاهما منغمسين غارقين فى عراك بدائى، إذ أنهما كانا كالأصم والأعمى الذى لا يستمع ولا يرى أى شىء، سوى المهروب من أحد الطرفين، والسيادة من الآخر.

ــ دعنى وشأنى!

صرخت صوفى من الذعر والألم، ولم يدر به الكسندر، وقت أن رفع يده من على فمها. كانت ابتسامة الكسندر قاتلة فى صوتها الخفيض، تاركاً صوفى وقد تأكدت بلا ريبة، أنه مهما كان يضمر فى عقله، إلا أن تحريرها لم يكن وارداً فى ذلك المضمار. وأخيراً تخلص من

اللاأكيت الجلد الكثيف، وانحنى قليلاً لكى يقذف به على الأرض. انتهزت صوفى الفرصة من فورها، وأزكى لها اليأس قوة، وقت أن تمعجت وخلصت نفسها وألقت بنفسها بإتجاه قوائم السرير تماماً عندما انفتح الشباك فجأة بصدام هائل، محدثاً شيئاً صلباً وحاداً فى رأس صوفى.

ــ صوفى!

كانت صرخة الكسندر معذبة، حينما وثب من أجل أشعال الضوء، وطحنت قدماه على الزجاج المتكسر، لما رجع ليرى صوفى جالسة مصابة بالدوار والدخوة، فى كومة من الزجاج المهشم، محدقة فى خصلات الشعر الملطخة بالدماء، والجلد المضطلجع على اللحاف الأصفر الشاحب. صرخت الرياح عبر الغرفة من النافذة المكسورة، ورمشت عينين خاليتين من التعبير أو الإنفعال نحو الكسندر، وهو يخلص ويزيل بعناية الزجاج المكسور من عليها، حتى يستطيع أن يرفعها إلى الفراش.

قالت صوفى:

ــ إن وجهه قد جرح.

لمعت عيناه فى وجهه الأبيض بلون الطباشير. وقال:

ــ لا تأبهى بى. هل أنت على ما يرام. يا حبيبتى؟

أومأت برأسها، ثم راحت تلهث والدم ينصب من جبهتها مسربلاً يديها وملطخاً قميص الكسندر الأبيض. وكان ثمة ألم مفاجىء عنيف فى رأسها وأخذت تصرخ وهو يرفعها بين ذراعيه ويعدو بها هابطاً أسفل الدرج. بسرعه ضعف السرعة التى صعد بها أعلاه. بعد كل ذلك صارت الأمور كلها ضبابيه غير واضحة. كانت صوفى مدركة ادراكاً ضعيفاً من وطأة الألم والبرودة، أنها كانت تركب سيارة، ثم استشعرت وكأنها فى غرفة مضاءة إضاءة باهرة، رائحتها

تزكم الأنوف بالمطهرات، وكان ثمة ممرضات ورجال صغار السن يرتدون المعاطف البيضاء، وهم الذين عملوا لها واستخرجوا لها أشعة اكس، وحقنوها ببعض الحقن، وفعلوا أشياء صامتة فى فروة رأسها مستخدمين الإبر والخيوط، وهى جملة الأشياء التى تألمت منها ألماً غير محتمل، كما شعرت بأنها مريضة ومتوعكة، ومرتبكة وترتعد، حينما شقوا فستانها الأسود، الذى انغرز وخرّ فى الأماكن المصابة بشدرات الزجاج، بجسمها محتفظاً بقطع الزجاج الصغيرة لكونه مصنوعاً من الصوف. مما أدى إلى أحداث قطوع ضئيلة عميقة، قامت الممرضات بتضميدها، معاً بالضمادات الضاغطة، وأخيراً، وسدوها الفراش وتركوها تنام فى سعادة وهدوء.

عندما استيقظت صوفى، كان النهار قد شارف على منتصفه أو كاد وكان أبوها وكيت يقفان بجوار سريرها، ابتسمت صوفى بحيوية، وقد أجفلت عندما سرى الألم كالسكين عبر رأسها. وقالت بصوت أجش:

ـ كنت بصدد أن أقول «أين أنا» لأننى أظن أننى فى مستشفى أرليسفورد العام.

ـ نعم، يا حبيبتى.

رد عليها الدكتور غوردون وأخذ يدها فى يده، وأضاف:

ـ كيف تشعرين؟

ابتسمت صوفى فى وجه أبيها وكيت، وقالت:

ـ أشعر بصداع قديم فى رأسى، ولكن احسب أننى بخير، وأنا آسفة حينما فزعتك يا كيت.

تنفست كيت الصعداء، وقالت:

ـ سوف أتغاضى عن هذا فى هذه المرة. فلا تفعل ذلك ثانية، أرجوك يا حبيبتى.

ـ وكيف حال الكسندر؟ هل هو بخير؟

نظر الدكتور غوردون إلى ابنته نظرة ساخرة مريرة، وقال:

ـ جروح قليلة، وفيما عدا ذلك فهو بخير. يحيرنى سبب وجوده فى غرفة نومك عندما قصفت النافذة، ولكن حمداً لله لأنه كان متواجداً هناك. كان محتملاً أن تكونى فى حالة أكثر سوءاً كلية، إذا لم يكن هذا الجرح البليغ قد تم تضميده فى رأسك على الفور. وإنى أوكد ذلك.

تحول وجه صوفى من اللون الأبيض إلى اللون القرمزى، ثم عاد فتلون باللون الأبيض للمرة الثانية، بينما كيت تنهت فجذبت يد زوجها وقالت:

ـ هيا انصرف يا ديفيد، ستتأخر عن العملية الجراحية الصباحية، وسأمكث أنا ههنا مع صوفى.

قال الدكتور غوردون بحدة:

ـ سوف تأخذك كيت إلى بيتنا الشانتزى، متى ما تم شفاؤك وخروجك.

حاولت صوفى أن تبتسم، وهو يقول:

ـ أوه. جميل. طبيبى الخاص سيكون متواجداً فى المنزل إذا انتكست فى الثقاهة.

وفى وقت متأخر من صباح اليوم التالى تعثرت أقدام صوفى وهى بعد متوعكة الصحة، تعثرت داخل الشانتزى مع كيت، وبفضل اسعافات كيت، شكرتها صوفى عندما أسكنتها فى مضجع مريح، وهى بَعْدُ قد أصابها بعض القلق. وحينما رجع الدكتور غوردون فى موعد الغداء، كان الكسندر بصحبته، وقد بدا شاحباً ومضنىً، وكانت وجنته وصدغه قد علاهما، مثله فى ذلك مثل صوفى، ضمادات البلاستر. وبعدما تأكد الدكتور غوردون بنفسه من أن ابنته كانت على ما يرام، انسحب إلى المطبخ مع كيت، تاركاً الكسندر بمفرده مع

المريضة.

وجهت صوفى إلى الكسندر سؤالاً وهى تتحاشى النظر فى عينيه، قائلة :

ـ هل البيت الصغير فى حالة سيئة من الفوضى ؟

قال الكسندر :

ـ إن بيرى هناك يفحص التلفيات. لقد كان على أن أتواجد فى المحكمة ثانية هذا الصباح، بسبب نزاع آخر على الحدود.

وجلس الكسندر على حافة مخدعها، وأخذ أحد يديها الجريحتين بين يديه، وقال :

ـ هل أنت حقاً بخير يا صوفى ؟ ظننت أنهم سوف يحتجزونك فى المستشفى لمدة أطول.

ـ ليس لمجرد وجود شق على الرأس. لقد كانت لى عمل دائب للغاية فى قسم الإصابات.

أفهم من ذلك أن

ـ ما رأيك فى الملابس التى أرتديها ؟ أكثر من شيك ـ إنها مثل قنزعة المندوسى أليس كذلك ؟

اقترب الكسندر أكثر وأكثر وانحنى ناحيتها وقال :

ـ كفى عن اللغو، ودعينى أعتذر لك. أنا آسف حتى الموت، يا صوفى. إذا لم ألجأ إلى تكتيكات إنسان الكهوف البدائى، لم يكن هذا ليحدث أبداً.

شاع الدم فى وجه صوفى متورداً خجلاً ونظرت باتجاه يديها نحو الأسفل :

ـ هراء. إذا لم تكن متواجداً هناك، كنت نائمة على الفراش على أية حال، ولو وقع ما وقع، حينما انفجرت النافذة.

كان صوت الكسندر مريراً مشمئزاً من نفسه، وهو يقول :

ـ تبقى الحقيقة لو لم أسوقك أعلى الدرج، فى ذلك الوقت الخاص، لما كنت قد أصبت بالجروح.

حاولت صوفى أن ترفع من روحه المعنوية بابتسامة مداعبة له :

ـ أوه. تعالى يا الكسندر. لقد ظننت أن الأرض تميد بى، وليس السماء تنطبق على !

تحولت نظرة الكسندر المجفلة ببطء إلى ابتسامة وهو يقول :

ـ هل هذا يعنى أنك لست غاضبة على فى شىء ؟ لقد كنتى تقاتليننى بجنون فى الليلة الأخيرة، ولا زلت لا أعلم لماذا ؟

نظرت صوفى إليه نظرة قاسية، غير أنه اتضح أن الكسندر كان يعنى تماماً ما قاله، وصاحت :

ـ هل أنت أمين وصريح جداً ؟

من كتفيه وقال :

ـ من الواضح أن ديلفين تكمن وراء المشكلة ـ يعلم ا. أنها لا تشكل شيئاً لى الآن.

تلاقت عيناه بعينيها مباشرة، وقال :

ـ ولكن لماذا كنتى غاضبة منى يا صوفى ؟ لم تكن لدى فكرة أنها عادت، أقسم لك بذلك.

وافقته صوفى على ما قال، وصرحت بجفاف.

ـ لا. أعلم ذلك.

تأملت الكسندر ملياً للحظة أو لحظتين، ثم روت له تفاصيل زيارة دلفين التى وجهت فيها إنذارها، وراحت تراقبه، مفتونة بذلك، حينما رأت وجه الكسندر يتحول من طبيعته العادية إلى حالة مبهمة غامضة، ثم يتجهم مسوداً وقد تغير من حالة عدم التصديق إلى ضراوة الغضب القاتل، عند انتهائها من سرد القصة. قال وهو يصك أسنانه :

ـ يا إلهى ! وأنت صدقتها ؟

نظرت صوفى نحو الأسفل، وقالت :

ـ لقد كانت تبرق بدبلة الخطوبة فى وجهى، يا الكسندر. فلما لا أصدقها ؟ إلى جانب ذلك، راحت تتباهى على بجمالها الرائع، وهو الجمال الذى ظللت تحدق فيه، وظهر على وجهك، عندما جاءتنا فى بار اليونيكورن.

وضع الكسندر أحدى يديه تحت ذقنها، وحول وجهها ناحيته، وقال :

ـ صوفى، أقسم لك أننى أوضحت لديلفين بما لا يدع مجالاً إلى الشك، أن كل شيء بيننا قد انتهى. أما غلطتى فقد كانت فى قولى لها إنها تستطيع الاحتفاظ بذلك الخاتم الملعون. إنها لم تعطنى إياه وترجعه لى أبداً، بالطبع، ولذلك قلت لها أن تبيعه، أو أن تفعل به أى شيء تحبه. وإذا كنت قد علمت بما تضمره فى عقلها، لكنت قد حشرت ذلك الشيء الدامى فى حلقها.

ربت الكسندر على وجنتها، وأضاف :

ـ عندما ظهرت من السيارة الزرقاء، لم أكد أحتمل رؤية وجهها البارد، ولا أصدق لها قولاً.

هنا أصبحت صوفى تستشعر بأنها قد تحمست، وقالت :

ـ ظننت أنك قد تحولت إلى إنسان أبكم أخرس عندما رأيت وجهها البديع.

ضاءت عينا الكسندر فجأة بالضحك، وقال :

ـ تحولت إلى حجارة، تعنين ذلك، مثل أحد أولئك الإغريق الذين تحولوا إلى حجارة عندما رأوا المدوزة، أحدى الفرعونات الثلاث.

ـ إذن لماذا جاءتنى محذرة إياى، يا الكسندر ؟ لابد أنها تعلم

أننى سوف أكتشف أنها كاذبة.

تنهد الكسندر بصعوبة وتثاقل، وقال :

ـ لقد أفسد ديلفين طوال حياتها، اعطاءها كل شيء أرادته ببساطة لأنها جميلة. ثم على حين غرة، تفقد ماء وجهها مرتين، فى فترة وجيزة جداً من الزمن، الأولى فى الوظيفة بالولايات المتحدة الأمريكية، ثم معى فى الثانية، ولذلك احتاجت إلى كبش فداء. أى شخص تستطيع أن تنفس عن حقدها وضغينتها فيه.

قالت صوفى بسخرية :

ـ وللمرة الثانية، كنت أنا الأقرب الأضعف.

رفع الكسندر أحد حاجبيه وقال :

ـ كلا على الإطلاق. إن ديلفين أضرمها وجعلها شديدة الإهتياج والسعار، قولى لها إنك أنت يا صوفى التى أريد أن أتزوجها وليس هى.

حملقت فيه صوفى بإنزعاج، وقالت :

ـ ولكن هذا ليس حقيقة !

اقترب الكسندر منها أكثر فأكثر، وقال :

ـ أوه، أجل، إنها حقيقة. أنت تعلمين حق العلم بأنك «وسوف تتزوجيننى.

دفعته صوفى بعيداً عنها، وانكمشت متقلصة للخلف على مضجعها ووسادتها وقالت :

ـ لا أعرف شيئاً من هذا القبيل.

تجمدت عينا الكسندر وقد صارتا كالحديد الصلب من جراء تصميمه على رأيه، وهو يقول :

ـ فى نفس اللحظة التى قاطعتنا ديلفين فيها، كنت أنت على وشك أن تطلبى منى طلباً شخصياً سرياً للغاية. هل أنا على حق أم لا ؟ هل تنكرين ذلك.

ـ كلا. لا أنكره. ولكن هذا الأمر لا يعنى أننى أريد الزواج منك، يا الكسندر.

قفز الكسندر واثباً على قدميه، وهو يمشط شعر رأسه بيده مدخلاً إياها بين الشعر، بينما ينظر إليها نحو الأسفل محدقاً فيها، وقال:

ـ تقصدين أننى مسموح لى بجلسة سريعة معك فى الفراش. وغير مسموح لى بزواجك!

بدا رأس صوفى يخفق، وقالت:

ـ لا أعرف لماذا أنت غاضب هكذا. ذلك ما كان فى رأسك بالضبط، قبل أن يسقط زجاج النافذة؟

تصلب وجهه، وقال:

ـ هذا صحيح، أنا رغبت فى أن أمارس الحب معك. وكان أمراً كافياً لأن أحاربك بأسنانى وأظافرى، لكى أفعل ذلك. ليضاف لآثامى وخطاياتى. ولكن السبب فحسب كان قصدى أن أبين لك أنت التى أبتغيها، بأكثر من أى شىء أو أية إنسانة أخرى فى الوجود، يا فى ذلك ديلفين، حتى أجعلك ترين أننا ننتمى إلى بعضنا البعض، أنت وأنا يا صوفى، لمدى الحياة.

لم تكن صوفى قادرة على مواجهة هذا فوق ما تتحمله من آلام جروحها تلك الليلة، قال:

ـ هل بمقدورنا أن نسقط الموضوع الآن، يا الكسندر؟ إن رأسى كما لو كان يجلدنى بالسوط، حتى أننى غير قادرة على التفكير.

ـ زال عن الكسندر توتره، تاركاً إياه فى حالة شحوب للغاية، ونظرة ضنى وتعب على وجهه، وبينما ينظر إلى صوفى، وقال:

ـ أنا آسف. يبدو أننى لابد أن أقول أن...

ثم دعك وجهه بيده وأضاف:

ـ أننى شعرت فحسب بأننى لا أستطيع أن أمضى معك وقتاً أطول، بدون توضيح الأشياء بيننا؟ وتبيين الأمور.

ابتسمت صوفى ابتسامة كشفت عن الضنى، وقالت:

ـ أشكرك على ذلك. عد ثانية عندما أكون قد لملمت شتات نفسى.

بدا الكسندر كئيباً نكد المزاج، وقال:

ـ مهما قلتى، يا صوفى لا ضير، ولا بأس. ولكن فى نفس الوقت، حاولى أن تفردى لطلبى الزواج منك بعض التفكير من جانبك، أرجوك.

شعرت صوفى أنها مضطرة إلى توضيح الأمور، قالت:

ـ لم يغير هذا شيئاً فى الموضوع، يا الكسندر. لقد أخبرت ديلفين البارحة بأننى ليس للزواج مكان على قائمة أولوياتى وبرنامجى. وكنت أعنى ما أقول.

لمعت عينا الكسندر بغضب فى وجه رمادى الشحوب، وصاح:

ـ أنا لا أصدقك.

هزت صوفى رأسها، وقالت:

ـ تلك ميزة لك، بطبيعة الحال. صدق هذا على الأقل يا الكسندر. فإذا كنت أنوى الزواج، لكنت أنت الزوج الوحيد الذى أريده. غير أن الأزواج نادراً ما يكونون المطلب الوحيد. أنهم جزء من صفقة شاملة، تحتوى على الأطفال، وعمليات الطهو، والغسيل، وأعمال المنزل. وكل أولئك ليس بالجديد على، أى شىء من ذلك كله.

ـ أنت لم تذكرى الحب.

ـ ولا أنت أيضاً.

كانت ثمة وقفة وجيزة متوترة، بينما كانت العينان الخضروان تنظران فى تململ وتحدقان فى العينين البنيتين، ثم ولّى الكسندر ملتفتاً وكأنه أعمى لا يرى، قاصداً الباب للإنصراف.

www.liilas.com nooran

الفصل الحادى عشر

كانت صوفى سعيدة بتقضية بقية الظهيرة فى الفراش، وقد أرهقها التعب، غير أنها كانت صماء إزاء استعطافات وتوسلات كيت بأن تنهض من فراشها كى تتناول العشاء، وتهبط أسفل الدرج لترى كيف أن البيت قد امتلأ بالزهور. كانت ثمة باقة ورد الترنفل من سام لأيفورد، وحزمة براقة من زهور الأقحوان أرسلها بيرى، وأخيراً وليس آخراً، باقة فريدة من زهور البنفسج والنباتات الخضراء من لأوليان بريت.

علق الدكتور غوردون على ذلك قائلاً :

ـ ظريف أن يكون الإنسان محبوباً.

ردت صوفى قائلة :

ـ يجب أن تكون ثمة طرق أكثر يسراً ومناسبات أخرى تقدم فيها الباقات، يا أبى.

ابتسمت صوفى مظهرة الفرح، غير أنها كانت محبطة فى السر، لأن أيا من باقات الزهور لم يرسل الكسندر. وهو الأمر الذى اعتبرته بينها وبين نفسها ضرباً من الحماقة. لقد كان يبدو أكثر سوءاً منها، فى ذلك الوقت الذى رحل عنها فيه. وبالتأكيد لم يكن يفكر فى أى شيء سواء كان وردا أو غير ذلك، سوى الرجوع إلى المنزل والخلود إلى الفراش والراحة.

وفى وقت متأخر من المساء، كانت ثمة مكالمات هاتفية متعددة من الأصدقاء الذين سمعوا عن الحادث، بما فى ذلك سام لأيفورد، الذى كان متعاطفاً ودوداً، وإن كان حديثه وجيزاً وذا معان. وكانت صوفى قد تأثرت من قلقه عليها، ولكنها لم تكن مسرورة بدرجة كبرى، حينما دق جرس الباب، ودخل لأوليان بريت، قال لصوفى كيف أنها تبدو حالتها مروعة، وراح يعدد مرغياً مزبداً الشرور والمخاطر التى تعرض لها الفتيات اللاتى يعشن بمفردهن دون حماية.

أخبرته صوفى بأنه مخطىء، إذ أن الكسندر كان معها فعلاً فى ذلك الوقت، فبدا وكأنه قد أهين إهانة عميقة، وكان صول بيرى فحسب فى تلك اللحظة هو الذى منع محاضرة كان سيلقيها لأوليان. لم يقبل لأوليان بيرى بأكثر مما يكن لألكسندر من عدم قبول، وسرعان ما أخذ يتلاعب خارجاً، الأمر الذى أراح صوفى خلسة. قالت موجهة حديثها لبيرى :

ـ حسناً إذن، يا بيرى. كيف حال البيت الصغير ؟

افرحها بيرى بدرجة عظمى بقوله لها إنه فيما عدا النافذة الجديدة، وسقف غرفة النوم الجديد، بيت بين ايليكس الصغير فى حالة طيبة جداً. وقال مردفاً :

ـ غير أن حالتك ليست على ما يرام يا حبيبتى. أنت تبدين عليلة.

كشرت صوفى عن ابتسامة، وقالت :

ـ أشعر بأننى سقيمة ! وكذلك ستبدو أنت سقيماً عليلاً إذا وقع على رأسك شباك.

كانت عينا بيرى الزوقاوان تنهان عن الفضول والهزل، وهو يقول :

ـ لحسن الحظ أن الكسندر كان متواجداً فى نفس اللحظة ليسعفك.

تورد وجه صوفى، وقالت :

ـ أجل. أجل، من حسن الحظ.

ـ يا للشاب المسكين الذى قضى ليلة جهنمية. بمجرد ما علم أنك على ما يرام، وبخير، أنطلق عائداً إلى شارع الكنيسة ليرى ما إذا كان جيرانك فى حاجة إلى العون.

وضعت صوفى يداً على فمها، وقالت :

ـ يا إلهى. أنهم لم يخطروا على بالى أبداً ! هل هم بخير ؟

نهض بيرى لينصرف وهو يقول :

ـ لقد أزعجهم اهتياج العاصفة، وكانوا قلقين عليك جداً، لكنهم لم يصابوا بأذى. هل الأمور بينك وبين الكسندر الآن على ما يرام ؟

ـ إلى حد ما.

ـ حسناً. كل ما أستطيع قوله، يا حبيبتى، هو أن الكسندر لم يكن على ما يرام تماماً هذه الظهيرة.

قالت صوفى متسائلة بحدة :

ـ هذه الظهيرة ؟ اعتقد أنه عاد أدراجه للبيت لينام.

ـ كلا، يا حبيبتى. لقد أصر على العودة إلى بيت ايلكس الصغير معى ليتفقد التلفيات بنفسه، ثم أتى برجل متخصص فى تركيب الزجاج ليستبدل النافذة فوراً، وكلف أحد المتخصصين فى الديكورات ليفقد ورق الحائط والدهانات فى غرف نومك. أستعجب من الكسندر. إنه يعتقد ويظن أن البيت الصغير يعنى لديك الشىء الكثير على خلاف أى أمر آخر، بما فى ذلك نفسه هو.

ثم انحنى ليقبل وجنتها الشاحبتين، وأضاف :

ـ لقد أرسلت مدام روجرز بإبنة أختها ليملأ مكانك فى المكتب لأيام قليلة. وبناء عليه لا تفكرى فى المجىء والعودة حتى تتماثل للشفاء، موافقة ؟

وجهت صوفى الشكر لبيرى معبرة عن امتنانها، ثم غرقت فى التفكير بمجرد أن انصرف. إذن الكسندر تفحص بيتها بنفسه، بعد كل شىء، تماماً كما لو كان يصب جمرات من اللهب على رأسها الساخط عليه.

قالت كيت، وهى آتية بصينية الشاى :

ـ كانت سيسل على التليفون. لقد قلت لها إنك غارقة فى استقبالاتك للزوار، ثم دعوتها لتأتى على الغداء غداً.

شكرت صوفى كيت بحرارة، وشربت الشاى ثم اضطجعت على الفراش. حيث إنها قررت أن تأخذ قسطاً من الراحة، إن ذلك ضرورى فى شتى الأحوال، حتى تستطيع العودة إلى العمل بقدر ما يستطيع من السرعة، أو حتى تستطيع استجماع قدرتها على الاحتمال لتقاوم الكسندر عندما يستأنف معها عراكه بشأن علاقتهما فى المستقبل. إذا ما جددها.

اكتشفت صوفى أنه لم يقم الكسندر بأية محاولة ليفعل ذلك الشىء، فشعرت بوضوح أنها متوعكة المزاج، حينما كانت طباعه إزاءها ودية كالأصدقاء أثناء زياراته اللاحقة. وكانت هذه الطباع مقتضبة، ولم يكن لأحد أن يرتاب فى سلوكه وتصرفه، فى أن مشاعره نحو نسيبته، ليست أكثر من مجرد القلق بشأن صحتها.

أما صحة صوفى فقد كانت تتحسن يوماً. فى حين أن مزاجها لم يكن كذلك. لقد تضاءلت الضمادات تدريجياً من حيث الحجم، وأزيلت الغرز من فروة رأسها، وتلاشت الإحتقانات والآلام والقروح، واستعادت شهيتها للطعام، وقامت كيت بتغذيتها بحب وحنان. ولم يكن الكسندر يقضى سوى دقائق قلائل مع صوفى فى كل مرة يختليان فيها. وفى بعض الأيام كان عاجزا عن مجرد الظهور هناك على الأنطلاق وحتى حينما ظهر كان وفى ظهر كان يختلق ويلفق ويخترع

الأسباب حتى لا ينفرد بها أبداً. شرعت صوفى تتدبر وتعجب هل كان الحديث عن الزواج هلوسة، أم وليداً للجروح والصدمة. لقد كان الكسندر الذى أتى بالكتب والمجلات كهدايا للمريضة، ودوداً لها كالشقيق بأكثر من أخويها نفسيهما، طالما أن اهتمام التوأم كان مقتصراً على المكالمة الهاتفية، وكررت الأطمئنان على الصحة المبتذلة للغاية.

تطلعت صوفى إلى العودة إلى العمل، طالما بدا لها أنه فى العمل سيكون الاحتمال أكبر فى أن ترى الكسندر، عما هى الحال فى البيت مع أبيها وكيت. ولكن خلال الأيام القليلة الأولى التى عادت أثناءها إلى العمل فى وظيفتها، لم تكن ترى الكسندر البتة، حيث كان بعيداً، وكانت هى مضطرة إلى ملاحقة أخباره وتحركاته من خلال بيرى. وتوصلت إلى أن الكسندر، قد وفى وبر بكلمته لها، وقرر اسقاط موضوع الزواج. أو أى نوع آخر من العلاقة.

كانت النظرة المستقبلية كئيبة لدرجة أن صوفى عادت إلى اليونيكورن يوم الجمعة وقت الغداء لتقدم خدماتها على نهاية الأسبوع، وأما عائلة ميتشيل، وقد كانوا سعداء باستعادة صوفى لصحتها وتماثلها للشفاء تماماً، كانوا تواقين للغاية لأن يقبلوا عرضها بأن تستأنف العمل يوم السبت فى المساء، وبرغم معارضة أبيها وكيت.

أصرت صوفى على انفاق الليلة التالية فى بيت ايلكس الصغير مضجعة على الأريكة فى حجرة الجلوس، مادامت غرفة النوم مازالت لم تستعد حالتها الطبيعية منذ ليلة العواصف. وحتى ذلك الوقت، كانت كيت تقود سيارتها موصلة صوفى من وإلى دينزبرى كل يوم، غير أن صوفى لم يكن لديها النية فى توريط أى من كيت أو أبيها فى همومها ومشاغلها الإجتماعية.

خرج الدكتور غوردون للقيام بجولة فى النادى ولعب شوط

غولف فى نهاية الأسبوع، أما صوفى فقد أمضت صباح يوم السبت تتسوق مع كيت، ثم تطوعت بالعمل مع كيت لإعداد وطهى الغداء، ولذلك كانت كيت هى التى تنطلق لترد على الهاتف كلما رن جرسه.

ـ الكسندر.

غمغمت كيت بصمت، وانطلقت بخفة ورشاقة لأعلى الدرج حتى صارت على مرمى ومدى السمع وأعطت السماعة لصوفى، قال الكسندر:

ـ صوفى: كيف حالك بعد الأسبوع الذى قضيته فى المكتب؟.

ضجرت عندما اكتشفت أن مجرد صوت الكسندر قد أثر على ركبتيها بتلك الدرجة من السوء، وصارت باردة شاعرة بالقشعريرة وهى تؤكد له أنها بخير. أردف الكسندر قائلاً:

ـ إذن أنت سوف تتناولين معى طعام العشاء هذه الليلة، يا صوفى؟

شهقت نفساً عميقاً، وقالت:

ـ آسفة، لا أستطيع.

ـ لا تستطيعين؟ أم لا تريدين؟

ردت صوفى بحدة ولذاعة، وقد آلمتها السخرية فى صوته، قائلة:

ـ المسألة ليست مفاجأة فى الواقع يا الكسندر. إنها أجازة نهاية الأسبوع

قال الكسندر بإقتضاب:

ـ لقد كنت بعيداً لمدة يومين. كما تعلمين جيداً.

ـ نعم، أعلم، هل نجحت فى مهمتك؟

صار الكسندر فارغ الصبر وفظاً، وهو يقول:

ـ دعك من هذا. ألا تستطيعين إلغاء من ترتبطين معه هذه الليلة

بموعد؟ أريد أن أتحدث معك.

هدلت قائلة :

ـ آسفة، لا يمكن لهذا أن يحدث. فرصة أخرى، ربما.

سمعت صوفى قرقعة عالية الصوت فى أذنها، ثم ابتسمت مثل القطة، وهى تضع الهاتف.

لمحت كيت وقت الغداء قائلة :

ـ أنت سعيدة ومسرورة جداً.

كشرت صوفى عن ابتسامة، وقالت :

ـ نعم . لقد طلب منى الكسندر الخروج معه على العشاء.

أحدقت فيها كيت قائلة :

ـ أظن أنه لم يبتهج عندما علم أنك تعملين فى البونيكورن.

ـ لم أخبره. إنه يعتقد أننى مع انسان آخر.

هزت كيت رأسها، وقالت :

ـ أتمنى أن تخرجا معاً أنتما الاثنان، كما تعرفين رأيى، لقد صار التواجد معكما فى الغرفة الواحدة أمراً مضنياً. فى هذه الأيام.

قالت صوفى لاذعة :

ـ لم تكونى كذلك منذ عهد قريب. لقد أصبح الكسندر رائعاً فى غيابه.

ـ آه ! أعرف.

عبست صوفى فى وجه زوجة أبيها الجديدة، متجهمة، ثم راحت تضحك، وقالت :

ـ أنت تظنين أننى أتصرف مثل الطفلة التى أفسدها الدل.

ابتسمت كيت، وقالت :

ـ لا. مثل فتاة واقعة فى الحب، يا صوفى.

كانت ليلة السبت، حافلة بالعمل، وهو أمر غير جديد، فى

مطعم البونيكورن. رحبت الفتاة الجديدة التى تولت العمل خلف البار، بصوفى فاتحه ذراعيها لها. كانت لندا فتاة طويلة شقراء، ذات خلق طيب، ولكنها حسبما قالت لصوفى، ليس لها سوى يدين اثنين وقدمين اثنين فقط، وحتى برغم استضافتى للعمل، وصاحب العمل وزوجته، واضطلاعنا بالعمل جميعاً بكامل طاقتنا، إلا أن المساعدة الإضافية عون من ا.

أمضت صوفى معظم السهرة على ما يرام، وهى تتعامل بسرور مع الزبائن، تقوم بعمل نصيبها من الروتين اليومى. بعد ذلك، نحو الساعة التاسعة، حلت فترة سكون مكنت ميتشيل من الهبوط إلى قبو الخمور من أجل أن يحضر المزيد من المشروبات، ومكنت صوفى من تجفيف الكؤوس الخاوية.

كانت ودهة البار مقصداً ومثوى لصغار الشباب من الجنسين، ما عدا المتصدة الحافلة بصغار الشباب الذين ملأوا الدنيا ضجيجاً باحتفالاتهم بفوز وطنهم بمسابقة الرغبى، وهى ضرب من كرة القدم. وبينما كانت صوفى تجمع باقة من الأباريق، أمسك أحدهم طلعة بها واضعاً ذراعه حول خصرها وهو يبتسم كما لو كانت بينهما سابق معرفة وألفة، فى وجهها المتزعج، قال :

ـ أنت جديدة، يا حبيبتى. ألم أرك فى أى مكان ما من قبل ؟

انطلقت صيحات الضحك العالى الصوت كالنهيق من رفاقه مستهجنين تصرفه الأرعن، وحاولت صوفى قصارى جهدها أن تبتسم ابتسامة مرحة وهى تخلص نفسها بلطف من قبضة الشاب.

سألت آنا ميتشيل صوفى وهى عائدة إلى البار قالت :

ـ هل سبب لك المتاعب أو آذاك ؟

ـ لا. لم يؤلمنى.

غير أنها كانت سعيدة أن تأخذ بنصيحة صاحبة المطعم وأن تبقى وراء البار، تاركة فرانك ميتشيل ليجمع الكؤوس من الآن فصاعداً.

لم يرتدع الشاب الغوى برغم ذلك. حيث إنه لدى عودته راجعاً من حجرة ايداع القبعات والمعاطف، وضع كوعه على البار بالقرب منها، ومكث هناك يراقب كل تحرك وشاردة تأتى بها صوفى، فى الوقت الذى استغرقه وهو يحتسى ثلاثة كؤوس بيرة.

قالت ليندا بصوت خفيض :

ـ مزعج. هو أحد أفراد مجموعة الـ «داوصنز» بشركة مايل ايند هاوس. ويستهويه أن يجرب حظه مع الفتيات.

ـ ليس مع هذا الشخص !

حاولت صوفى أن تتجاهل نظرته المحدقة المصوبة عليها، غير أنه كان عسيراً عليها، برغم أنها كانت مشغولة. عند ذاك حاولت أن تتحرك إلى الطرف الآخر من البار، ولكن المعجب بها تبعها بسرعة، وأقتحم نفسه فى موضع اعطاه أفضلية القرب منها بقدر ما أمكنه ذلك، ملوحاً بورقة بنكنوت من فئة العشر ريال جنيهاتحت أنفها، قال :

ـ أعطنى ويسكى هذه المرة يا حبيبتى.

وابتسم فى وجه صوفى بثقة الشخص الذى يعتقد أنه لا يقاوم.

ـ بالتأكيد، سيدى.

قدمت صوفى له المشروب، وأخذت منه ورقة البنكنوت وأعطته الباقى، وعدته فى يده الممدودة، وفجأة أمسك برسغها، وقال :

ـ هل يوسعنى أن أوصلك بالسيارة فيما بعد ؟

هزت صوفى رأسها، مبتسمة بمرح، وقالت:

ـ آسفة.

ابتسم مداهناً، بينما كانت أصابعه تحكم قبضتها عليها، وقال :

ـ من فضلك، عذراً ـ لدى آخرون يجب أن أتفقد مطالبهم.

ضحك الرجل قائلاً :

ـ كل شىء سيكون على ما يرام مع فرانك. إنه يعرفنى. أنا فيليب داوصون من شركة مايل إيند هاوس.

قال ذلك معتقداً أن اعلانه هذا سوف يترك انطباعاً حسناً لديها، ردت:

ـ أهلاً وسهلاً .

وجذبت صوفى يدها بعيداً بحدة، وهى بعد واعية ومدركة لردود الأفعال على الوجوه الضاحكة التى تراقب التفاعل الحادث، ثم هرعت وقد أصابها التوتر والقلق. مكث المحب الولهان هناك فى مكانه،لم يحرك عينيه بعيداً عنها قط، ورفض أن يقدم له المشروبات أى إنسان آخر أبداً.

قال فرانك مستميل لصوفى :

ـ سليه بقدر ما تستطيعين. ولا تنزعجى. ولسوف أراقبه حتى لا يسىء التصرف معك.

قدمت صوفى كأساً ثانية من الويسكى للشاب الملح على مضض، ثم أمسك يدها للمرة الثانية، وقال لها:

ـ أنت جذابة وفاتنة .

ـ وأنت بدأت تصيبنى بالملل. هيا أذهب.

ـ والآن، والآن، لا تكونى غير ودودة، يا حبيبه القلب. إن الفتيات أمثالك يحبوننى.

قال ذلك وهو فى حالة من التوهج والحميا هذه المرة، وقد علت وجهه نظرة مولعة بالقتال مليئة بالخطر.

شدت صوفى يدها بقوة وهى تقول :

ـ أنا لست مثلهن !

غير أنه تشبث بيدها، ثم سرعان ما تحول وجهه إلى صورة قبيحة عندما تحقق من أنها تعنى وتقصد ما تقول.

وعلى حين غرة، انطلقت من الخلف كالرصاصة يد مألوفة لكى تمسك بقوة وبقبضة من حديد رسغ السيد داوصن التعيس، أحدقت صوفى بقلق فى منظر الكسندر المروع وهو فى حالة من الثورة العارمة.

توعد المتعجب غير المطلوب الكسندر بتبجح قائلاً :

ـ من أنت بحق الجحيم ؟

ـ الفتاة خطيبتى. أرفع يدك عنها، الآن ؟

تلاشى ومات أى احتجاج فى عقل فيليب داوصن المزعج، موتاً سريعاً جداً، لما رأى نظرة عيون منقذ صوفى.

تمتم، وتراجع على عجل، تاركاً صوفى لسيطرة الكسندر، وهو بعد فى حالة من السرور البارد، وقال داوصن :

ـ لقد كنا نمزح قليلاً.

قال الكسندر بهدوء :

ـ لقد تحادثت مع فرانك متيشيل. أنت آتية معى. الآن. ارتدى معطفك.

ـ فتحت صوفى فمها لتعترض.

قال الكسندر محذراً إياها :

ـ إذا لم تأت. فسوف التف إليك وأحملك ككل.

وأصبح جلباً بما لا يدع مجالاً للشك أنه يعنى ما يقول. استأذنت صوفى من ميتشيل وليندا، ثم جمعت معطفها وتبعت الكسندر إلى جراج السيارات فى خلف مطعم اليونيكورن.

انزلقت صوفى إلى السيارة فى هدوء مشحون حينما احتفظ بالباب مفتوحاً لها. وقد عزمت صوفى أن تبدأ المعركة فى معسكر الخصم فقالت ببرود بينما هو يشغل السيارة :

ـ ليس لك شأن فى أن تفعل ذلك.

ـ لا أوافقك. ما لم تكونى يمنعك ـ طبعاً ـ أن يمسك بمخالبه كل من هب ودب.

قررت صوفى أن تتجاهل هذا، وقالت :

ـ كيف عرفت مكانى ؟

رشقها الكسندر بنظرة باردة جانبية، قائلاً :

ـ لقد عرجت لكى أرى كيت وأباك. وعلمت أن هذه ليست المرة الأولى التى تعملين فيها فى مطعم اليونيكورن. وأن ديفيد ليس أكثر سعادة بشأن ذلك منى.

ـ غير أنه، لكونه رجلاً منطقياً، بطبيعة الحال، يعلم أننى قد كبرت الآن وقادرة على أن أفعل ما أحب بنفسى، سواء كان ذلك العمل فى حانة أو المعيشة بمفردى.

قالت ذلك صوفى وهى تحدق بنظرات متحجرة عبر زجاج السيارة الأمامى.

لم يرد الكسندر. وقاد السيارة فى صمت متوتر، بسلاسة، ومهارة، كعادته دائماً، حتى وصلا أخيراً إلى برادينغ، والأسوار العالية للـ «ويللو ريتش». احتفظت صوفى بسكونها حل نحو عنيد، وهى تخرج من السيارة، وقد ترفعت وأنفت من يد العون التى مدها إليها الكسندر، وهى تمشى بتشامخ أمامه. قال الكسندر بنبرة حياد وهو يفتح قفل الباب :

ـ ظننت أنك سوف تحبين رؤية المكان وقد انتهيت الأعمال فيه.

بدأ غضب صوفى يذوى ويذبل بمجرد أن وضعت قدماً داخل المنزل. كان ثمة شىء فى جو الـ «ويللو ريتش»، جعلها غضبى وجعل البغض يبدو غير ضرورى، وكادت تشعر ـ على خلاف إرادتها ـ أن تحديها أخذ يتحلل.

كان السلام والسكينة فى المنزل شيئاً ملموساً، شيئاً ما تستطيع أن تتفاعل مع وتلمسه، بينما كانت تمشى مع الكسندر عبر الغرف اللطيفة الظريفة، أنيقة النظام والترتيب، تنظر إلى الإنسجام الذى حققه مزيج ذوقيهما المتبادل. وقد أثر فيها على نحو سيىء نوبة عنيفة من التملك، وساخت فى احدى الأرائك فى غرفة المرسام الهندسى، فريسة لعواطف أخجلتها أن تحللها.

ــ البيت جميل يا الكسندر، وكامل.

جلس بجوارها، محولاً عينيه السافرتين على وجهها المتفكر، قال :

ــ أما جميل، فنعم، أما كامل، فلا.

ــ أوه. أعرف أنه لم يتم فرشه بالكامل بعد ــ

ــ أعنى أنه ليس منزلاً لرجل يعيش فيه بمفرده. كلا. استمعى إلى. قال ذلك، بينما كانت صوفى تريد أن تتكلم، ومضى قائلاً :

ــ إنه لأمر غريب. لقد قمت بتغيير بيت الشانزلى من أجل ديلفين، لأنها كانت تعتقد أنه من العسير أن تحول بيتاً قديماً إلى نوع من نماذج الجمال والفن التى تراها فى المجلات. ومع ذلك وحتى الآن ليس ثمة علامة أو أثر من آثار شخصيتها هناك. ولا أثر لى كذلك على الرغم من أننى عشت هناك طيلة حياتى، وقمت بتصميم التغيرات بنفسى. فى الواقع، حينما أزور كيت وديفيد هناك الآن، أشعر بأنه بيتها فعلياً من قديم الأزل. كما لو كنت لم أعش هناك أبداً.

قالت صوفى :

ــ لكن هذا المنزل هو بيتك.

ثم أخذت تلوى الخاتم المنقوش الذهبى المزدان فى أصبعها الضئيل، غير ناظرة إليه. وقالت :

ــ هذا شيء قمت أنت بخلقه، أليس كذلك ؟ وهو أحد نبات أفكارك. لقد عاش شاغرو البيت الآخرون كما لو كانوا وكلاء إشراف

عليه، يحتفظون به جاهزاً لك لكى تستولى عليه ذات يوم.

أومأ الكسندر برأسه قائلاً :

ــ بالضبط. والحقيقة التى فهمتها على هذا النحو من الاتقان، تؤكد وتضع الخطوط تحت ما أوشك وأكاد أن أقوله.

تصلبت صوفى، وقالت :

ــ الكسندر ــ

وبدأت الحديث، غير أنه اقترب منها ووضع أصبعاً على شفتيها، قال :

ــ دعينى أنتهى من كلامى، يا صوفى، من فضلك.

ساخت صوفى، وارتفع نبضها بمجرد لمسته. فقال بلطف :

ــ لا تكونى هكذا متوترة، يا صوفى. لقد حسبت فقط أنك أحببت أن تعرفى أن المنزل قد تمت سكناه. والتردد عليه.

ــ من جانب خليلة وجل حاشية الملك تشارلز الثانى ؟

تحرك الكسندر أكثر ناحيتها حتى صار قريباً منها بما فيه الكفاية ليمسك يدها قال :

ــ لا. بيت يمكن أن يتردد عليه فى مناسبات المستقبل، وليس نحسب فى الماضى. ففى هذا المنزل نردنا سوياً. يا صوفى. وأتخيل كيف سيكون إذا ما كنا ههنا معاً، نشارك حياتنا.

وأمسك بها من كتفيها، وأدرها نحوه، قائلاً :

ــ لقد حدث أن اجتمعنا فى مثل هذه الظروف فى الإتجاه المعاكس، بعيداً عن عيون كل الناس، يا صوفى. لقد عرفنا كل منا الآخر جيداً على مدار حياتنا، ولم نر أبداً ما هو واقع تحت أنفنا طوال هذه السنين.

قالت صوفى بإلحاح :

ــ كيف يتسنى لى أن أصدق ذلك وقد كنت على وشك الزواج

من ديلفين ؟ وكلمة «وشك» كانت معلقة بإرادتها هى لا أنت. وإذا لم يصل تيرى فاويل فى ذلك اليوم ليغوى ويغرى ديلفين بالسفر للولايات المتحدة الأمريكية، وإلا لكنت رجلاً متزوجاً منذ حين وحتى الآن.

غيمت نظرة من الكره والنفور على وجه الكسندر، وهو يقول :

ــ ولكننى نادماً آسفاً على ذلك.

ثم ابتسم وأضاف :

ــ يا لها من متعة. فى الواقع، إن تيرى فاويل، بدون أن يعلم قد أسدى إلى جميلاً وعرفاناً لن أنساه مدى الحياة.

قالت صوفى بعناية وحذر :

ــ إذا ما تزوجنا، كيف تعرف أنك لن تندم وتأسف لسرعتك فى الزواج منى، أيضاً ؟

جذبها الكسندر نحوه بلطف بين ذراعيه، وقال :

ــ لأننا عرفنا كل منا الآخر بأفضل مما يعرف أى زوجين طوال حياتهما. لقد عملت معى، وعرفت أسوأ حالاتى وعيوبى، وعلمت أيضاً، أحسن حالاتى ومميزاتى، وأدعو أن تكون كثيرة.

وضع الكسندر أصبعاً تحت ذقنها ورفع رأسها نحوه، وقال :

وكل ما تبقى من ذلك هو أن نصير عاشقين، هل هذا أمر عسير؟

نظرت صوفى لأعلى ناحية وجهه المركز نحوها، وقالت :

ــ أنت تعلم علم اليقين كم ذلك يسير إذا ما رغبت فى ذلك. وهو الأمر الذى يحدو بى أن تساءل كى أعرف شيئاً ما يا الكسندر. قبل أن تنطرق نحو المزيد، أريد أن أقدم اقتراحاً من جانبى.

ظهر الكسندر وكأنها قد ألقت بدلو من الماء على وجهه، قال متسائلاً ومتحفزاً للنزال والشجار :

ــ ما هو ذلك الإقتراح ؟

شهقت صوفى نفساً عميقاً، وقالت :

ــ أنت تعلم مدى مشاعرى وأحاسيسى نحو الأعمال المنزلية. أنا لست إمرأة ذات مهنة كالمهندسة أو الطب، أسلم لك بذلك، غير أننى أتمتع بوظيفتى، وإذا ما تقدر أن أزاولها مدى حياتى العملية، لكنت أسعد الناس بذلك قاطبة. وها أنت قد رأيت، من لحظتى هذه. أننى ولأول مرة فى حياتى، أصبح لدى مسكن خاص بى، وحياة خاصة بى، بدون أن أشغل بالى بأى أحد إلا نفسى. ولقد عشقت هذه الحياة، يا الكسندر.

أهتز هزاً عنيفاً، ووثب ناهضاً على قدميه. وقال :

ــ إذن ليس ثمة المزيد مما يقال.

ــ كلا، انتظر. فتسمعنى فى هذه المرة. ألا يمكن أن أكون خليلة وعشيقة لك فحسب يا الكسندر ؟

قالت ذلك صوفى وهى فى حالة من التردد والصراحة. استدار الكسندر ملتفتاً وهو بعد فى أقصى حالات الدهشة، قائلاً :

ــ تكونين ماذا ؟

قالت صوفى وهى بعد «وطد» العزم على ما قالت. وقد شعرت بأن الدم يجرى فى عروقها :

ــ خليلة وعشيقة لك، أعنى أن تمضى أمسياتك معى، أو أكبر عدد منها تحب أنت أن تمضيه معى. والليالى أيضاً إذا ما أحببت، ونهايات الأسبوع فى لندن أو حتى فى باريس. والأجازات. مثل تلك الحياة.

حدق الكسندر فيها كما لو كانت قد فقدت الحصافة، غير هدى وبدون تحكم، ثم انفجر ضاحكاً. وحملقت صوفى فيه، وقالت :

ــ ما هو الطريف فى هذا ؟

تنفس الكسندر الصعداء، محاولاً بصعوبة أن يسيطر على نفسه :

ـ أتخيل نفسى أنسل خلسة إلى بابك لكى أجدك مستلقية ومضطجعة على الكرسى الطويل، فى حالة من الاسترخاء والكسل، وأنت ترتدين ثوبك الفضفاض، هل هذا صحيح أم لا ؟ يا لها من حياة كلها إغراء وتشويق وإثارة !

عض الكسندر على شفته بقوة، وأضاف :

ـ عشيقتى، بحق السماء، ما الذى وضع الفكرة فى رأسك ؟

ـ إذا شعرت فى أن تصنع مزحة كبرى عن هذا الكلام ـ

وبدأت تغضب وتضجر، ووثبت واقفة، غير أن الكسندر أمسك بها، محتفظاً بها وبداه حول خصرها فى حالة من الاسترسال، وقال :

ـ آسف، لم أستطع أن أتفادى ذلك، يا صوفى. إنها مجرد فكرة محالة.

قالت بتجهم وعبوس :

ـ غالبية القوم لا يتزوجون فى هذه الأيام.

ـ غير أنهم عادة ما يعيشون معاً، عيشة كاملة ! إن الحلية هى التى تتغمس فيها الرجل المتزوج، يا حبيبتى، إذا ما استطاع ذلك.

نظر كلاهما إلى الآخر فى صمت لحظة، بينما تلاشى غضب صوفى واللون الوردى من محياها. قال الكسندر على غير هدى :

ـ أنا أحبك يا صوفى. وأريدك هنا معى، دائماً. وأنا لا أستسيغ فكرة الساعات المنتزعة المخطوفة من المتعة والسعادة المحظورة، وأشكرك فى نفس الوقت بنفس المقدار، وهى ساعات من النعيم بكل تأكيد. كما لا يستهوينى التسلل كاللص على طول شارع الكنيسة فى ساعات الخلوة والهدوء، متعشماً ألا تراني مدام بيركيتز. تعوزنى الزوجة، أريدك أنت.

انتحت صوفى وقد استبد بها اليأس، قالت :

ـ لقد دانت لى الأمور كلها على ما استحبت أهواء نفسى. وتبدو كما لو كانت مدبرة. أعنى أن جدتى أوجدت لى البيت الصغير، وتوافر الوظيفة فى فرع شركة بالأيت الجديد فى أوليسفورد فى الوقت الذى ضاعت فيه فرصة العمل مع سام لايفورد.

وراحت صوفى تعدد وتذكر سائر مجريات حياتها، وهى ترمقه بنظرة ريبة وتشكك. وقالت :

ـ إنه لأمر شاذ يثير الشكوك.

خبا ضوء عيون الكسندر، ثم تنهد، وقال :

ـ دعينا نجلس، يا صوفى.

نظرت إليه بانزعاج، وسمحت بأن يجعلها تستقر فى انعقاب ذراعه على الأريكة للمرة الثانية، وصرح :

ـ صوفى، هل تتذكرين الاسم الذى كانوا يطلقونه على فيا المدرسة.

ولم يتوقع منها اجابة تنم عن المعرفة، غير أن صوفى تجهمت، وقد أخذتها المفاجأة، وقالت :

ـ بالطبع، كان ذلك الاسم هو الإسكندر الأكبر، ويطلق عليه هذا الاسم لأوليان عندما يكون متذمراً منك.

شخر الكسندر، وقال :

ـ يا سلام ! على أية حال، لقد فتحت الموضوع لأننى أحاول أن أشرح شيئاً لك. هل تتذكرين أحد الملوك الفرنجيين بآسيا الصغرى قديماً، وهو الذى كان يسمى غورديوس ؟ لقد عقد وربط أنشوطة بحيث لم يفلح أحد فى حلها، حتى جاء الاسكندر الأكبر بسيفه وبترها قاطعاً إياها بكل بساطة، ومطيحاً بأنشوطة غورديوس

إلى شطرين.

أومأت صوفى برأسها وقد التبس عليها الأمر وصار غامضاً، وقالت:

ـ ثم ماذا ؟

ـ أشعر أننا قد صرنا مقيدين ومرتبطين على نفس منوال تلك الأنشوطة، فذاك هو ما يربط بينى وبينك يا صوفى، ولسوف أعمل سيفاً وهمياً فى تلك الأنشوطة لحلها وفكها. على نفس الطريقة التى فعلتها من قبل نيابة عنك. أتعلمين أننى لم أكن أبداً مستغرقاً فى مشكلاتى الخاصة. حتى أثناء الوقت الذى ارتبطت فيه مع ديلفين. ولقد علمت بأكثر وأفضل من أى انسان آخر كم كنت تتوقين لمغادرت البيت كالأطفال الصبية. ولذلك عندما غادر مستأجرو بيت ايلكس الصغير وفكوا اتسعت عينا صوفى فصارتا كالفنجان، وصاحت:

ـ فكوا عقدهم معك ؟

ـ أجل. إنه يتمى لى وأنا امتلكه. ولذا قلت لبيل أنه بمقدورك أن تستأجريه لحين من الوقت، حتى تتزوجى. ولم أعلم فى ذلك الوقت ما كنت أقصده، ولم أكن أعلم أنه سيكون مكوثك فى حتى أتزوجك أنا.

تبلدت عينا صوفى حتى صارتا بائستين، قالت:

ـ إذن كان بيت ايليكس الصغير ملكاً لك طوال الوقت.

أحكم قبضة ذراعه عليها، وصاح:

ـ بل هناك المزيد، أيضاً. وأفضل أن أكون صريحاً لكى أخبرك عن أحد الأسباب التى جعلت أرليفورد أختياراً ليكون مقراً لفرع المكتب، الا وهو رغبتى فى أن تعملى معى هناك.

ـ لكن ـ لكننى كنت قد عزمت الأمر على العمل مع سام

لأيفورد !

ـ لقد عقدت صفقة معه. مؤداها أنه إذا أخبرك بأن الوظيفة قد ضاعت. فسوف آتى له بالمزيد من العمل والتكليفات بقدر ما أستطيع، بخلاف فرع مكتب الشركة، وبيع بيتكم. وهلم جراً.

دفعت صوفى بذراعه بعيداً عنها وقفزت على قدميها، ذراعه المكان بين الأرائك جيئة وذهاباً، وقالت بعصبية:

ـ إذن. كل هذه الحياة الجديدة التى أعيشها لم تكن من صنعى إطلاقاً. لقد حصلت عليها من جراء لطف وكياسة الكسندر بالأيت.

أومأ برأسه، ونظر بعينين تكادان أن ينفلقا، وأردف:

ـ إلى حد ما. لقد رغبت فى الإحتفاظ بك على مدى بصرى. فى مكان ما يمكننى من تركيز عينى عليك.

قالت بمرارة:

ـ شقيق أكبر ! كما لو لم يكن عندى ما يكفى من الأشقاء لكى يرعونى.

نهض الكسندر على قدميه وأمسك بها من يديها. وقال:

ـ أنا لست شقيقاً لك، يا صوفى. وأريد أن أكون حبيباً لك. وزوجاً. وعلى عكس ما تعتقدين، فإنه من اليسير على الرجل أن يكون عشيقاً وزوجاً فى نفس الوقت.

أشاحت صوفى برأسها بعيداً بحدة محاولة أن تتأقلم مع الضوء الجديد البارد الذى سطع على مساعيها فى الاستقلال محاولاً الأنتقاص منها.

يا لها من مهزلة تمت فصولها، تدبرت صوفى فى ذلك وقد أصابتها المرارة، وغاصت أسنانها بشدة فى شفتها السفلى حتى أن الدم قد كان ينبثق منها. وأخيراً نظرت فى وجهه المراقب لها، بابتسامة لم تدم طويلاً فى عينيها، وقالت:

ـ حسناً يا الكسندر. تفوز أنت. والآن أحسب أن الأفضل العودة للمنزل، من فضلك.

ضاقت عيناه، وقال:

ـ تقصدين وتعنين أنك سوف تتزوجيني ؟

ـ أعتقد في ذلك. إذا ما كان البيت الصغير ملكاً لك. فإنه لا داعي مكوثي فيه. والأفضل أن أنتقل إلى إلى هنا وأدعك تؤجره مره ثانيه حتى أوفر لك بعض المال وطالما أنك هكذا قد استقريت هكذا قد استقريت على تلك التسوية التقليدية، حسناً فلتتزوج.

جذبها الكسندر إلى ذراعيه، وقال:

ـ أنت لم تذكري شيئاً عن المشاعر، يا صوفي. حسبت أنك سوف تكونين غضبتي علي، و ا أعلم. لكنني أفضل نوبات الغضب لا الفتور في الأحاسيس هل تحبيني ؟

هزت كتفها وقالت:

ـ لست موقنة بذلك.

ـ إذن لماذا بحق الجحيم سوف تتزوجيني؟

ـ لأنه إذا لم أتزوجك، أظن أن بيك الساحرة الخلابة سوف تكتب سيناريو بقية حياتي بطريقة أو بأخرى.

قطعت حديثها، وتحولت إلى القسوة في القول، صاحت على حين غرة:

ـ كل ما أفعله، وكل مكان أذهب إليه، أجدك تجاهي هناك، معبقاً طريق وساداً إياه. إذن فليذهب كل شيء إلى الجحيم، دعنا نتزوج، لقد استسلمت وأذعنت.

تورد الكسندر، ثم شحب لونه، أما عيناه فقد لمعتا كعيني القط في وجهه الطلق، وفجأة أصدر لعنة مكبوتة، واستحوذ عليها من يديها، وجذبها معه بجواره، بينما يشق الطريق من الغرفة إلى أعلى الدرج،

نحو غرفة النوم الكبرى في مقدمة المنزل.

قالت صوفي لاهثة، بينما هو يركل الباب مغلقاً إياه وراءهما:

ـ ما الذي سوف تفعله ؟ حذار من أن تتلف الباركيه !

قال وهو يطبق أسنانه بإحكام:

ـ ما الذي تظنين أنني سوف أفعله ؟ أنا واثق تماماً من أنني لن أتزوج أنثى لا تقول نعم أبداً إلا بسبب استلامها وتخليها عن قول «لا». وبناء عليه أعتقد أنني سوف أستمتع بميزة عرضك الأصل «مرة» واحدة على أية حال.

انتحبت صوفي بتعاسة، وهي تجد نفسها قد ألقيت كالركام في وسط الفراش، قالت:

ـ ليس مثل هذا. أرجوك، يا الكسندر !

ـ لم أسكتي.

أسكتها الكسندر وكبت احتجاجاتها بأكثر الطرق الممكنة فعالية، خانقاً الإعتراضات بفمه، وهو يشرع في خلع ملابسها.

لهثت، وراحت تدفعه عنها قائلة:

ـ أنا لا أفعل ـ

ـ أجل، أنت تفعلين.

وبعد ذلك رقدا في سكون هنيهة وفترة منقطعة طويلة وصامتة، بينما انتظم واضطرد تنفسهما، وتباطأ تنفسهما، وألفت صوفي الحقيقة التي كانت تشك فيها طالما ارتابت بشأنها. إنه لأمر لطيف للغاية أن تكون خليلة وعشيقة لعشيق من نوع الكسندر. إذ بعد سنوات من صحبة لأوليان، كان طيباً أن تجد رجلاً مثل الكسندر يريدها بكل ذلك الإلحاح.

تساءل الكسندر أخيراً، متحركاً إليها ومتضاماً نحوها حتى كادا يلتحما:

ـ ما الذى تفكرين فيه ؟

ـ لأوليان.

ـ ماذا ؟

انفجر الكسندر واقفاً فى فورة غضب وحنق، غير أنها جذبته لأسفل إليها مرة ثانية، وسمح لها بأن تهدئه وتسترضيه، ثم لفتها نحوه حتى أنها صارت مضطجعة وعينها فى عينه

التى شدهت

انتباه صوفى جداً عن التفكير فى أى رجل آخر.

قال الكسندر مسترسلاً دون تفكير:

ـ لقد كنت دائماً أوقن بأنه ليس لدى لأوليان بريت أى اتجاهات نسائية. ولم أدر أبداً لماذا كنت تصاحبينه.

ابتسمت صوفى فى العينين القريبتين منها جداً، وقالت:

ـ أظن أنها التسلية. وقد كنت أنا ستاراً له. إن لأوليان أحد هؤلاء الرجال الذين ترهبوا عن الزواج تديناً، يا الكسندر. لا تثريب. إذ يحدث فى بعض الأحايين أن يكون الرجل أعزب بدون تعليق، ولكن هذه الأيام الأمور تختلف. ولذا عندنا نوع من التسوية الضمنية.

لقد كان هو يقدم الطعام والخمر لى بصفة دورية، وفى المقابل كان لدى رجل فى حياتى، أعلم أنه لن تكون له أفكار عن الزواج.

ـ مثلى.

ـ ليس ثمة من هو مثلك، يا الكسندر. أنت فريدة. ولم يقبل على أى نوع من الاقتراحات بشأن طلب الزواج عندما أخبرته بأننى سأرحل بعيداً، لقد قال انه ليس بمقدوره أن يتنقل معى، وأننى أنا التى أنتقل إليه وأمه حتى أكون صاحبة رفيقة لها.

اهتز الكسندر من الضحك أمامها، وقال:

ـ طالما أن طلبات الزواج كثرة، فالتأكيد طلبى أنا للزواج مغرى للغاية بالقياس إلى طلبه هو.

وأجرى فمه أصبعه على شفتها، فقضمته صوفى بلطف، وتوقفت لحظة، وقالت:

ـ هذا صحيح جداً.

ثم اقتربت منه أكثر فأكثر

وأضافت:

ـ لقد غيرت رأيى مرة ثانية بشأن الزواج.

رقد الكسندر متجمداً، وقال:

ـ أتعنى أنه لم يأن الأوان بعد. أليس كذلك ؟

ـ كلا أعنى أنه آن الأوان الآن، وليس لا.

تبهت صوفى، وقالت:

ـ إذا أفهمت ما أقصد.

قال بحدة:

ـ وضحى.

ثم أمسك بها بإحكام حتى أن صوفى أيقنت بأن تذعن وتستجيب.

قالت بهدوء وبطء:

ـ ربما كان الزواج منك غير ضار على هذا النحو، بعد كل شىء.

ـ أحذرى يا صوفى. إن المزيد من الإطراء على هذا المنوال، سيجعلنى أقف فوق نفسى !

وكلت رسغ قدمه بقدمها، وقالت:

ـ إن ما قصدته هو ذاك، ههنا لتصبح أنت كهذا. أشعر بأننى سوف أستمتع بالزواج بك كثيراً جداً، يا الكسندر.

ـ لماذا، أشكرك، يا صوفى. هل هذا يعنى أننى أعتبر مرضياً وأنى بالغرض المطلوب كعاشق.

ـ كما كنت أقول دائماً، يا الكسندر. أنت متفوق بكل معنى الكلمة.

تفكرت برهة ثم قالت :

كلا، لقد غيرت رأيى. إن التغيير أفضل.

قبلها الكسندر بعمق، بينما تنتقل يده إلى أسفل عمودها الفقرى ليضغطها إليه بقوة وعنف. ورفع رأسه قليلاً ليبتسم فى عينيها، وهمس قائلاً :

ـ مجاملة ظريفة. فيما عدا ذلك، فالمقارنة ليست ممكنة، هل هى كذلك يا حبيبتى ؟ أنا العاشق الأول فى حياتك.

ـ هذا صحيح.

ـ ولسوف أكون أول زوج لك، أيضاً. والأخير كذلك. هل توافقين ؟ ثم قبلها بشدة، وأضاف :

ـ وأعدك بأننى سوف أكون زوجاً طيباً.

ـ ضحكت ضحكة خافتة، وقالت :

ـ سوف تكون زوجاً عظيماً ـ يا الكسندر !

قلبها على ظهرها وتعلق فوقها، وقال :

ـ بدون مزاح سخيف من فضلك ! غير أن لدى فكرة عظيمة.

قالت وهى تلهث منقطعة الأنفاس :

ـ أحقاً ؟

ـ مادمت ـ لسبب ما ـ قد غيرت رأيك بشأن الزواج ـ

ـ أنت قد أغريتنى وأغويتنى به !

ـ هل لديك مانع ؟

ـ كلا.

ـ حسناً. والآن بسبب، أن استراتيجيتى كانت واضحة جداً، لدرجة أنك قد أذعنت ـ

ـ هل هذا هو ما قمت أنا بفعله ؟

ـ بالضبط. وأواصل، ما دمت أنت الآن عرضة لقرصة اتحادنا القانونى، فأنا مستعد لتقديم تنازلات.

ـ مثل ماذا ؟

ـ مستعد لتكليف أى واحدة لتساعدك فى أعمال المنزل التى تبغضينها بهذا القدر، ولسوف أطهو طعام العشاء الخاص بى أحياناً. وعلى أية حال، كبار الطباخين هم من الرجال ! لا تكونى هكذا عنيفة. ثم، عندما يكون لدينا أطفال ـ

ـ أى أطفال ؟

ـ أطفال أكثر، عندما يذهب أطفالنا إلى المدرسة، سوف أقنع كيت بحياكة الملابس !

وابتسم الكسندر ناظراً لأسفل نحوها بنشوة الانتصار حتى أن صوفى طعنته بيدها فى ضلوعه، وعند ذاك رد عليها الضربة بأن دغدغها وداعبها مبهجاً إياها، فانفجر الاثنان فى الضحك معاً، ولم يجدا سبيلاً لمقاومة ذلك، وهو الأمر الذى أفسح المجال تدريجياً لشىء فريد مختلف تماماً، حينما واصل الكسندر، بما لا يدع أى مجال للشك من جانب صوفى، فى أنه كم يكون العاشق متفوقاً ولهاناً، إذا ما أعطى الشجاعة الملائمة والكافية.

www.liilas.com
nooran